حكايات ألف ليلة وليلة

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى لمسابقة مدينة "المدينة" للرواية لسنة 2002

فتنة آخر الزمان

رواية تاريخية من التراث صياغة

عبد الواحد براهم

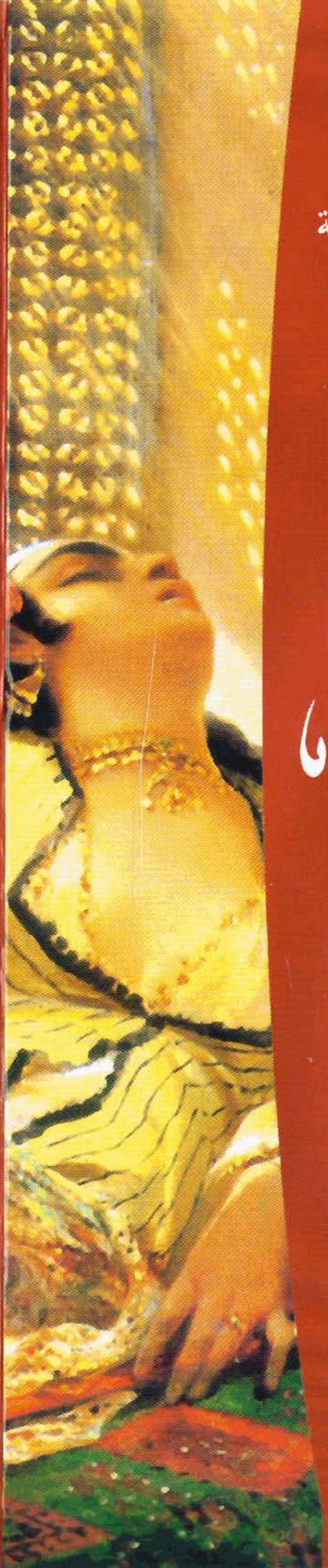

عبدالواحد براهم

من مواليد 1933 ببنزرت
خريج الزيتونة والترشيح
15 سنة في مهنة التعليم
وزارة الثقافة ثم الألكسو
أرسى قواعد عدة مؤسسات للنشر
ترأس اتحاد الناشرين 3 سنوات
ترأس شركة تصدير الكتاب التونسي
لمدة ست سنوات
نشر على مدى 40 سنة
عددا لا يحصى من البحوث
والقصص والروايات

من كتبه:
في بلاد كسرى
ظلال على الأرض
مربعات بلاستيك
حب الزمن المجنون
بنزرت تاريخ وذاكرة
عليسة أسطورة قرطاج
حائز على عدد من الجوائز الأدبية

إضاءة

يعتبر مشروع "المدينة " الذي أنجزته "شركة السلم" في "ياسمين الحمامات"، فضاء متميزا فريدا من نوعه لا في تونس وحسب، بل في كافة البلاد العربية، لأنه إضافة إلى دوره السياحي،سيكون منارة فنية وثقافية تتجسم فيها أهم معالم العمارة العربية الإسلامية، والحضارة الشرقية والمتوسطية.
وفي نطاق الإستعداد لهذا الحدث الهام، نظمت شركة "السلم" مسابقة أدبية بعنوان "جائزة المدينة للرواية"، يتعلق موضوعها بالقيم الإنسانية النبيلة، وتشمل أحداثها وتتجه إلى إحياء "المدينة" وإبراز جذورها الإفتراضية المستمدة من تاريخ تونس وتراثها، وأهم شخصياتها الشهيرة.
وإن هذا الإسهام الذي يكتسي أهمية بالغة في المجال الثقافي من مؤسسة اقتصادية كبرى مثل مجمع "بولينا"، يعد مؤشرا واضح الدلالة على ما بلغه المجتمع التونسي بمجموع مؤسساته من وعي وإدراك لأهمية العامل الثقافي في حياة المجتمعات، وأنه استثمار معنوي طويل المدى،يوفر الأرضية الخصبة لتطور المجتمع ورقيه.
ولقد حرصت "شركة السلم" على أن تسير لجنة التحكيم المكلفة بالنظر في إسناد الجائزة في أحسن الظروف، فوفرت الوقت المناسب، والكفاءات العالية للقيام بهذه المهمة، وأوفت بالوعد الذي عينته لإعلان النتائج، اذ تم ذلك في حفل مشهود بدار حمودة باشا، ذلك الفضاء الثقافي والسياحي الرائع يوم 31/01/2003، حضره جم غفير من أهل الثقافة والإعلام، ونخبة من رجال الأعمال، ورؤساء المؤسسات.
وإنها لبادرة طيبة أن يعلن الرئيس المدير لمجمع "بولينا" مؤسس شركة "السلم"، وراعي مشروع "المدينة"، رجل الأعمال المثتور السيد عبدالوهاب بن عياد - بهذه المناسبة - على استمرارية منح الجائزة بصفة دورية كل سنة، مع إضافة جائزتين أخريين، إحداهما للفنون التشكيلية، وأخرى ذات طابع دولي للرواية الأدبية باللغة الفرنسية والتي ستجتمع لجنة التحكيم الخاصة بها بمدينة باريس.
وهي سنة حميدة تسهم بها شركة " السلم" في تشجيع المبدعين في مجالات الثقافة والاداب والفنون.
وإننا إذ نبارك هذه المبادرة التي أثمرت منذ دورتها الأولى ابداعات أدبية جيدة، واستقطبت أقلاما لها مكانتها في الحركة الأدبية والفكرية التونسية، يسعدنا أن نقدم للقراء وفاء بوعدنا بنشر الروايات الفائزة على نفقتنا، هذه الرواية التي فازت بالجائزة الأولى، وهي التي صاغها الأديب عبدالواحد ابراهم، وعنوانها "قبة آخر الزمان"، وتعتبر إنجازا أدبيا جديرا باهتمام القراء والنقاد والدارسين.

تونس في 31 جانفي 2003

بقلم الجيلاني بن الحاج يحي

رئيس لجنة المسابقة

جميع الحقوق محفوظة للناشر 2003

صدر في هذه السلسلة :

- YASMINA PRINCESSE DE MEDINA
  Version Prestige

- YASMINA PRINCESSE DE MEDINA
  Version Commerciale

- MYOSOTIS Ne m'oubliez pas
  Par Tharouet El Amri

صاح قائد الكتيبة في جنده فوقفوا كالشجر الثابت :

ـ اصعدوا السفينة وليحرص كل واحد على أثاثه وسلاحه. كل من يضيع سلاحه أو يبكي حنينا الى أمه سأرمي به في البحر.

عمّ السكون ولم تتحرك عضلةواحدة في وجوه الجند، بعد أن كانوا منذ لحظات يملأون الرصيف صخبا وضحكا. صدر الآن أمر القائد بالتحرك، فانحنى كل جندي على أدباشه بصمت، وعاد ليقف في الصّفّ الطويل الصاعد إلى المركب.

أفردت السفن أشرعتها البيضاء فانسدّ الأفق، واتجهت شرقا كالنوارس العملاقة، تدفعها نفس الريح التي ابتلعت صيحات المودّعين وآهاتهم، وأتلفتها في الفضاء المطلق.

عاد قائد الكتيبة ينبّه :

ـ لكل كتيبة موضع خاص في العنابر السّفلى. لا مكان على ظهر السفينة إلا للنّوتية وضاربي المدافع.

تنازع اثنان من صغار الجند على مكان قرب النافذة وهما يتضاحكان، ثم هدأ الجميع لما اقترب الليل، وهيّجت ساعة الغروب في النفوس همومها وذكرياتها القريبة والبعيدة. عندها خلع بدرو الخوذة النحاسية وشبك يديه خلف رأسه وهو يتمدّد

جنب سلاحه. أتته أصوات الريح والموج فغمرت قلبه بالوحشة وأسلمته إلى هواجس مختلفة، بعضها اجترار لما مضى، وبعضها الآخر خوف من نتائج هذه الحملة الذاهبة لغزو إفريقية.

بدرو ليس جنديا محترفا، لكن له خبرة باستعمال السلاح، شأن جميع شبان ذلك العهد، يحتاجونه للدفاع عن أنفسهم، وأحيانا للتباهي وإغواء الحسان. أما مهنته الحقيقية فهي نحت الحجارة وبناء الأبراج والحصون.

كان قد نزح من قريته إلى المدينة أيام نشطت حركة بناء الحصون فربح ببراعته في الصنعة ونشاطه نصيبا وافيا من المال، لكن هذا لم يكف لتطمئن نفسه فأهدافه في الحياة لم تتحقق بعد، وما تركه لقريته إلا خطوة أولى من طريق سطّره وبرنامج أعدّه، وجعله قضية حياة أو موت. يأتي بعدها الانخراط في الجيش، والمشاركة في حملاته على الشواطئ البربرية ومطارداته لقراصنة البحر وتلك الخطوة الثانية. ولما كان أهل قريته والقرى المجاورة ممنوعين من العمل في العسكر لشغبهم المتكرر فقد انتقل بدرو الى المدينة بعد أن تشاور طويلا مع عمه، وأخذ منه النصح والارشاد لتنفيذ خطته السرية مع حسن التخفّي وكتمان أمره عن كل حيّ.

وها هو بعد أن اتبع تلك التعليمات بدقة، وغيّر مسكنه مرّات حتى لا يتعرف عليه الجيران، يستقرّ به المقام في حظيرة لبناء برج دفاعي فوق مقر حاكم المدينة. وقد حرص منذ الأيام الأولى لالتحاقه بالعمل على التقرب إلى رئيس العملة وإلى قسّيس يداوم

الزيارة للحاكم. أما الأول فقد اكتسب ثقته بالتفاني في العمل وإتقان ما يكلفه به دون أن يتذمّر أو يحتسب الوقت، بل تعمّد أحيانا عدم المطالبة بأجره، الى أن يأتيه الرجل ليسخر من طيبته المشطّة:

ـ هيه! بدرو الأبله! هل تنوي هذا الأسبوع أن تشرب الهواء كالإوزّ عوض النبيذ؟ تعال استلم أجرك!

أما القسيس فكلما رآه داخلا ساحة القصر إلا وجرى نحوه ليقبّل الصليب المتدلّي من مسبحته بخشوع، فيضع الرجل يده على رأس الفتى ويدعو له بالخير. وفي إحدى المرّات مدّ الفتى يده بكيس نقود بعد أن تقبّل الدعاء الصالح، وقال لرجل الدين:

ـ هذه صدقة من أجل الأعمال الطيبة التي توفرها كنيستنا الرحيمة.

ردّ القسيس اليد الممتدة بلطف وأجاب:

ـ أنت أولى بالرحمة يا ابني! أنفق على نفسك وأهلك من أجرك الزهيد، وأكثر من الصلاة، فهذا يكفي منك.

ـ أنا بلا أهل يا أبتِ، ولا أعول أحدا، فاقبل مني هذا القليل الذي وفّرته من زاد الدنيا، ولتحفظه لي الكنيسة زادا للآخرة.

ـ أنت ابن صالح أيها الفتى، فتح الرب قلبك للرحمة فهنيئا لك. تعال يوم الأحد إلى الكنيسة وقابلني بعد القدّاس.

وكان ذلك الأحد يوما تاريخيا... ركع فيه بين يدي القسيس

بعد انصراف المصلين، شكا إليه مرارة الوحدة والتشرّد بعد موت والديه في عام الطاعون، وكيف أنّ جارا طيّبا ربّاه وعلّمه الفلاحة، لكنها لم تستهوه، فغادر العائلة الفقيرة في الشمال، وتنقّل بين مقاطع الحجارة ينحتها، وفيها تعلّم كيف يصنع تماثيل للصليب والعذراء، أهداها لأديرة وكنائس آوته وساعدته في أول شبابه.

سأله القسيس :

ـ هل أستطيع رؤية بعض ما صنعته من تماثيل في الكنائس القريبة؟

ـ أنا من قرى الشمال يا أبي، وكل ما أنجزته تركته هناك لصعوبة نقله. ثم هي أعمال بدائية لا ترقى إلى المستوى الفني الذي أشاهده في كنائسكم بهذه الناحية.

ـ وهل تعدني بمنحوتات جديدة؟

ـ لا أطمح أن تكون أعمالي فنّا يا أبتي، وسأخجل إن عُرضت في الكنيسة.

ـ لا بأس، سنعرضها في الحديقة ولن نذكر اسم صانعها.

وابتسم القسّ من عفوية الشاب وطيبة قلبه، وأنهضه لينصرف، لكنه استمرّ راكعا مطأطئ الرأس ،كمن يهمّ بكلام آخر فيغلبه التردّد. سأله الراهب :

ـ هل لديك كلام آخر تريد قوله ؟ تكلّم يا بنيّ!

ـ لم أعد أجد يا أبتي في الصلاة تلك الحرارة التي تعوّدت عليها عند ما كنت في القرية، فغوايات المدينة كثيرة، وأنا شاب قويّ البنية، ولا أجد ما أهتم به غير الشغل، لذا قدّمت لك تلك العطية البسيطة عساها تكفّر عن أفكار طائشة راودتني في اليقظة، أو خامرتني في المنام.

طرفت عينا القس وبانت في وجهه ملامح الرحمة وقال :

ـ كلنا مذنبون يا بنيّ، وليس فينا من بلا خطيئة. ولم لا تتزوّج؟

نهض الفتى واقفا، لكن دون أن يرفع بصره عن الأرض، وبقي صامتا.

ـ أجب يا ابني! أنت في سن الزواج، فلتبحث لك عن صبيّة تؤنسك، وتنجب منها نسلا يحب الله ويخدم الكنيسة.

ـ يجب أن أتعلم حبّ الله جيّدا قبل أن أعلمه لغيري، لم أعمل أعمالا طيبة بالقدر الكافي يا أبتي.

ـ وماذا تريد أن تفعل؟

ـ أن أقاتل الكفّار بهذا البدن القوي قبل أن يضعف بالزواج وتقدّم العمر. أن أنال رضا الرب بالدفاع عن ديننا وحمايته من الكفّار. أليس هذا ما سمعتك تدعو إليه في الصلاة هذا الصباح؟

فتح القس فمه مندهشا من حماس الفتى وقوّة عاطفته و قال :

ـ طريق الجنة مفتوح أمامك يا بنيّ فما عليك إلا أن تتقدم،

فالملك يستعد لغزو الشواطئ البربرية ويمكنك الذهاب مع الذاهبين، فالاستعداد هذه الأيام على أشده.

ـ رأيت المجنّدين يحتشدون في القلعة منذ أيام، فلعلهم يتدربون قبل السفر.

ـ لا وقت للتدريب، وإنما يجري تسليحهم وتفقد صحة أبدانهم ومدى تحملهم ركوب البحر، وأول شروط الاختيار هي أن يكونوا مدربين وأشداء في القتال، لأنهم سيواجهون هذه المرة أتراكا من عتاة المقاتلين، حاصروا جندنا في قلاعهم بتونس وما جاورها، ولا بد من طردهم، بل وإعطائهم درسا حتى لا يعودوا الى تلك النواحي.

بدت على وجه الشاب علائم الأسف وبقي واجما، فسأله القسّ عما به:

ـ كنت قبل هذه اللحظة تتكلم بحماس، فما بك فترت مرة واحدة كأنّ وصفي للمعركة القادمة قد أذهب حماسك؟

ـ لا يا أبتي لم يذهب عني الحماس، ولم يُرهبني وصفك للعدوّ، ولكنّ مهاراتي العسكرية محدودة، لأنني لم أتدرب بصورة نظامية.

ـ ألا تعرف الضرب بالسيف؟ وهل يوجد شاب في مثل سنّك لا يحسن الدفاع عن نفسه؟

ـ بلى، بلى، أحسن استعمال السيف والرمح والرشق بالسهام، أما هذه الأسلحة النارية والمدافع فلم أتعلمها.

ـ سأكلم الحاكم في أمرك ولعلهم سيجدون لك مكانا في فرقة تناسب ما تحذقه. ألم تقل أنك ماهر في بناء الحصون؟! إذن هذا يكفي.

ارتمى الشاب على يد القسيس يقبلها بحرارة وهو يردد كلمات الشكر والامتنان، قبل أن ينسحب وهو يكاد يرقص فرحا.

في آخر الأسبوع أتاه رئيس العملة وناداه بغير الوصف المعتاد:

ـ هيه بدرو!... أيها الضابط السامي في جيش الامبراطور، هل تتفضل بالنزول لاستلام أجرك؟

فتح الشاب فمه ليقول شيئا ثم ضمّ شفتيه جيّدا لكي لا يصرخ فرحا، ونزل درج الحصن قفزا إلى حيث وقف رئيس العملة، ومدّ إليه يده مصافحا بحرارة، ولم يكن متعوّدا من قبل على ذلك. أمسك رئيس العملة بكلتا يديه كفّ الشاب الخشنة وهزّها وهو يردد متأثرا:

ـ بدأت أتعوّد على بلاهتك يا بدرو، وإن كنت تبدو لي أحيانا أذكى مما أعتقد. المهم أنك أمهر من جمعتهم هذه الحظيرة، وسألعنك وألعن المكان الذي تركته شاغرا إلى أن أجد من يعوّضك.

ـ إذا قبلوني في الجندية سأؤدي مهمة نبيلة يا سيدي، بل مقدّسة!

ـ احذر أن تعود إلينا راهبا بعد هذه الحرب، ألسنا نقوم هنا بمهمات نبيلة في رأيك؟

- نعم يا سيدي، لكننا هنا نقتصر على الدفاع، أما هناك فإننا نغزو، نفتح بلادا جديدة. وإنني متعطش للغزو، متحمّس للانتقام من الترك الأشرار.

- لا تفكّر كثيرا فيما هو أكبر من رأسك وإلا صرت مستشاراً لقائد الحملة. أو ربما عيّنوك واليا على إفريقية... أما الآن فاعلم أن الحاكم سعى بوجاهته إلى إلحاقك بالمجنّدين، لكن ضمن فرقة خاصة تضم حرفيّين وصُنّاعا ممن مهروا في بناء الأسوار والتحصينات والحدادة والصناعات الأخرى، أما قائد الفرقة فهو القبطان أنسارت وتربطني به صداقة قديمة.

- أرجوك أن توصيه بي خيرا فأنا غير متعوّد على الحروب.

- هذه نقطة الضعف فيك، وعليك تعويضها ببناء حصون متينة.

- فأنا أترك البناء هنا لأتولى البناء هناك؟

- هذا إذا وصلت سالما.

قهقه رئيس الحظيرة بصوت عال وهو يرى خيبة الظن مرتسمة على وجه بدرو ثم أضاف :

- ستحارب حتى تشبع، وتبني في أوقات الهدوء، ولن تكون كثيرة على ما يظهر، فالأتراك شرسون ولن ترتاحوا بجوارهم. سوف تكون أنفع من باقي الجنود يا بدرو، لأنك ستحارب بيد وتبني باليد الأخرى. هذه بقايا حسابك عندنا وسيأخذك حرس الحاكم إلى القلعة في صباح الغد. هل لديك ما توصي به إلى أهلك، أو ما تودعه عندي من أثاث؟

- ليس عندي ما أوصي به، ولا ما أودعه عند الغير، فأهلي قد غادروا هذا العالم وسبقوني إلى جوار الله.

رسم الرجل الكهل الصليب بيد ووضع اليد الأخرى على كتف بدرو :

- اذهب يا ابني مباركا، ولا تنس أن تزورني بعد عودتك.

تذكّر الجندي الشاب كل هذه المواقف عندما تمدّد في جوف السفينة واستعدّ لقضاء ليلته الأولى، وطفت على شفتيه ابتسامة غامضة المعنى عندما تذكّر حواره مع القسيس عن تماثيل تصدّق بها على الكنائس، وحواره مع رئيس العمال الذي ختمه بالمباركة ورسم علامة الصليب بعد أن قال له : ان أهلي غادروا هذا العالم وسبقوني إلى جوار الله.

ولما أوشك النوم أن يسحبه من أفكاره سرت حركة بين الجند وعلت أصواتهم بالغناء، فرافقهم أصحابهم بالتصفيق لمن وقف متبرّعا بالرقص، وقد نسي الجميع أنهم ذاهبون للحرب لا للتنزّه، وطغت جلبتهم على رفيف القلاع واصطفاق الموج الهائج.

وفيما كان المجندون يلهون في جوف السفينة كان الحرّاس على ظهرها في أتم أهبة واستعداد، والمراقبون تسلقوا الصاري لاستشراف كل حركة تعلو سطح البحر وخاصة من ناحية الجنوب والشرق، حيث يتوقع الجميع مداهمة مباغتة في أي وقت من

أوقات النهار أو الليل. ربض بعض الجند وراء مدافعهم الثقيلة متنبهين، فمن يدري متى تصدر الأوامر بالضرب. كانت آذانهم تلتقط كلّ نبرة في الهواء، فلم يسمعوا في ليلتهم تلك غير أصوات الغناء الصاعدة في خفوت، وإلا صوت الحارس من مرقبه العالي وهو يعلن بصوته الأجش من حين لآخر أن لا شيء في الأفق.

لكن هذا اللاّشيء في الأفق قد يتغير من لحظة إلى أخرى، بظهور أعلام أو قلاع أو قوافل سفن أو حرّاقات سريعة للتجسس، إذ بحر الروم يعيش فترة هيجان لم يعرف لها مثيلا في تاريخه الطويل الحافل بالحروب والصدامات. فإلى جانب الأسطول التركي الضخم البطيء الحركة، كانت أغربة الغزاة المجاهدين تقفز من كل الموانيء الجنوبية : من الجزائر أو تونس أو بنزرت أو طنجة، فتظهر سريعة خاطفة وتنقضّ على أعدائها ثم تعود الى موانيها بأسرع مما قدمت، وليس أمهر ولا أخفّ من بحارتها ومقاتليها في المباغتة واستغلال كل ظرف متاح.

ومهما تكتّل النصارى لمقاومة تلك القوى المناوئة وحاولوا كسر شوكتها فإنهم لم يقدروا، وهاهم يجمعون تحت قيادة محارب بارع هو دون خوان النمساوي عددا هائلا من السفن، بها ذخيرة ومدافع ومؤن وخيل وعلف تكفي لحرب طويلة أو لضرب حصار ربما يمتدّ شهورا. لقد فهم الأسبان أن الأتراك لا يستسلمون بسهولة وجربوا ذلك منذ حاربوهم أول مرّة، ولذا فهم لا ينوون إعادة نفس الأخطاء السابقة، واستعدوا الاستعداد الكامل والأتم لتكون هذه معركتهم الفاصلة.

وصلت الحملة الإسبانية الى ميناء تونس في ساعة متأخرة من الليل دون أن يتفطن لها حراس الأبراج، وانقض عساكرها على مراكز الحراسة وكانوا يعرفون أماكنها بالتحديد فقتلوا من وجدوه، ولم ينزل جند الينشرية من القصبة إلا وقد تقدم الإسبان على الأرض أشواطا، واحتلوا أغلب الأحياء الجنوبية والغربية من المدينة. ومنذ طلوع النهار بدأ الاقتتال بين الطرفين عنيفا دمويا، فلم يسع أهل المدينة إلا الفرار إلى البوادي المجاورة والجبال.

لم يغادر بدرو المركب، إذ أمر فريقه بالإمداد وإصلاح ما يحدث من عطب بالمراكب، وإلى جنبهم بقي فريق للاسعاف ومداواة الجرحى، لكنه لم ينفك منذ انتشر الضوء يدور في جوانب السفينة، مشرئبا بعنقه نحو الشاطئ، مستكشفا منظر هذه المدينة المشرقة البياض. ترسم قبابها ومآذنها على صفحة سماء زرقاء صافية، غير عابئة بما يدور بين أحيائها من قتال محموم يرتفع غباره الى السماء، وتصل أصداؤه إلى سمع من بقي في السفن.

أخذ بدرو منظارا مكبّرا من أحد ضاربي المدفع، وسأله إن كان رأى بوادر انهزام الأتراك من خلال المعركة الدائرة فوق الربوة المواجهة، فردّ عليه بغضب :

ـ بؤسا لأولئك المعمّمين والمطربشين! تحصّنوا بالقصبة الكبيرة هناك وأمطروا عساكرنا بالكور والبارود.

- وهل هذا بسبب كثرة المدافع أو لعلوّ المكان؟

- الأمران معا.

- هذه فلوكة غادرت الشاطئ وأخذت في الاقتراب من مكاننا مدفوعة بالتيار القوي.

- هل لها قلاع أم هي بالمجاذيف؟

- بالمجاذيف.. هاك المنظار لتتأكّد.

أخذ صاحب المدفع المنظار وما لبث أن صاح مفزوعا :

- أتراك يا ابن العاهرة.. ألم تتعرّف عليهم؟

- أنت أكثر تجربة مني... أنا لم أشاهد منظرهم الى اليوم!

- لا تضع وقتا. اقدحوا النار وسنضربهم، لا تقفوا هكذا، ساعدوني ماداموا على مرمى مناسب.

تحرك رجال الفريق للمساعدة وكلهم حماس لاقتناص غنيمة سهلة رماها القدر في طريقهم. قال البعض :

- لا يبدو أن في الفلك جندا... وليس إلا رؤوس المجدّفين تتحرك.

قال المدفعي :

- الآخرون ممددون على أرض الفلوكة... يبدو أنهم جرحى أبعدوا عن المعركة.

- وهل تنوي ضرب الجرحى.. ماذا تستفيد من ذلك؟

التفت إليه المدفعي وخاطبه بغضب :

- هذه حرب وليست تكسير حجارة. لا تهتمّ بما لا يعنيك!

كظم بدرو غيظه ولم يناقش رفاقه لأنهم شجعوا المدفعي على ضرب الفلوكة، ولقد أصابها بعد محاولتين فأغرقها، ووقف يتفرّج على الجثث الطافية فوق ماء كدر يعلوه زبد وبقع حمراء. أما بدرو فجرّ رجليه ناحية السلّم منقبض القلب، ونزل الى قاع السفينة وهو يعابث من يقابله من الحراس حتى لا يشي مظهره بما في نفسه من الألم والحزن، وارتكن زاوية بعيدة عن الأنظار مستسلما لهواجس نفسه.

في أول الأمر تذكّر آمنة العجوز وخوفها الدائم...

- ما بال يديك ترتعشان يا آمنة؟

ازداد اضطراب العجوز وكاد الإبريق يسقط من يدها. التفتت يمنة ويسرة وتركزت نظراتها على باب الغرفة المفتوحة.

- زيدي قليلا من الماء عافاك الله وبارك فيك!

عادت تنظر الى الباب، ثم أسرعت تغلقه بمجرّد أن انتهت من

صبَّ الماء على يدي سيّدها.

ـ ما بالك أيتها العجوز الخرقاء تفزعين لأقلّ الدواعي؟ نحن الآن في بيتنا، وفي غرفة داخلية لا يصل منها الصوت إلى الفناء، فما بالك بالسطوح.

لاذت المرأة بالصمت وهي تجمع أواني الطعام وتنظف المائدة بسحنة غائمة متجهّمة، أما الصبي الجالس بقرب عمه فحاول أن يجيب عوضا عنها:

ـ آنا خائفة بسبب الحكايات التي نسمعها كل يوم.

ـ اسمها آمنة. لما نكون وحدنا لا تدعها بغير هذا الاسم، فهو اسم مبارك لأنه مشتق من الأمان والطمأنينة، ولأنه اسم والدة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم... هل فهمت أيها الرجل؟.

نطقت العجوز أخيرا:

ـ وأين الأمان والاطمئنان يا سيدي؟

ـ قصّي عليّ آخر حكاياتك. ما الذي أرعبك اليوم أكثر مما مضى من الأيام؟ ألسنا نعيش فترة الغرائب المتواترة، فما الجديد؟

ـ أعرف يا سيدي. ولست أتعجب وإنما خائفة، إنه الخوف يتلف أعصابي ويمنعني من النوم ليلا، فأبقى كامل اليوم متوترة أفزع من حركة عصفور.

ـ ثقي بالله، وأكثري من طلب اللطف في سرك حتى ينفرج الكرب.

قال الفتى:

ـ سمعت آنا صباح اليوم... أقصد آمنة سمعت عندما خرجت إلى السوق... بل أقصد أنها رأت ضجيجا وجمهرة من الناس يقتادون تلك الأرملة التي تغسل الثياب عند النهر.

ـ تقصد خوانا البلهاء؟

ـ نعم هي نفسها، كانوا يقتادونها الى الكنيسة ليستنطقها القس ويفهم منها سبب ما قالته وفعلته.

ـ وماذا فعلت المسكينة؟ إنها لا تكاد تغادر المغسل الا لتأوي الى كوخها القريب منه.

تدخلت آمنة لتوضح لسيدها تفاصيل ما رأت:

ـ كانوا يجرّونها الى الحرّاقين، وستراها ممدّدة فوق كوم الحطب بعد أيام... تذكّرا كلامي عندما يحدث ذلك.

ـ كل ما أعلمه عنها هو ادعاؤها إزالة الصداع من رؤوس النساء والأطفال، تضع يدها على رأس أحدهم وتحرك شفتيها بطريقة مضحكة دون صوت أو كلام.

قال الفتى:

ـ أظنها كانت تضحكهم أكثر مما كانت تداويهم.

عقب العم على كلام ابن أخيه:

ـ وكيف تداويهم يا فتى، هل هي طبيب؟ وانما هي امرأة

خرقاء ترسل الكلام دون ضوابط، فتوهّم القرويون من غفلتهم أنها من طيبتها تقدر على إزالة الآلام ومنح الراحة.

قالت آمنة :

ـ لقد تفطّن بعض خبثاء النصارى أن شفتيها تطلقان أدعية وكلمات بالعربية. وقد تكون انفلتت منها بعض الكلمات دون أن تنتبه. ربما حصل هذا. لذا كان القساوسة يبعثون من يتجسس عليها الى أن وقعت في الأحبولة ذات يوم، وها هي تساق الى مصيرها المحتوم.

ـ هذا طبيعي، ذهبت لتضع يدها على بطن الحامل وتزمّ شفتيها بطريقة تضحك الحاضرين كالعادة.

ـ لا يا سيدي! هذه المرة وقعت في الحفير، وضعت يدها كما قلت على بطن المرأة لكن لا شيء حدث، وفي الليل لما أوشكت المرأة على الموت أخرجت خوانا من بين ثدييها حجابا مخيطا في قماش أحمر مثلث الشكل، ودسّته تحت رأس النفساء، ثم خرجت إلى كوخها وهي تبكي.

ـ ألم تنته الحكاية بهذا؟ ألم ينفع الحجاب؟

ـ لم تنته الحكاية وإنما بدأت. فالحجاب الذي نجت بفضله النفساء وقع بين يدي زوجها. أخبرته امرأته بأنه سبب خلاصها ونجاة وليدها من موت محقق، وأنها تنوي إكرام خوانا بجائزة هامة. بلغ الخبر الى القسيس فطلب رؤية الحجاب. وبعد أن فتحه وجد فيه كلاما عربيا تعرّف عليه أحد الحراقين بأنه آيات قرآنية وأسماء من التي يطلقها المسلمون على ذات الرب.

ـ آمنة. . . هل حصل كل ذلك فعلا؟

ـ حصل وألف حصل! قل لي الآن. . . هل تنفع الشفاعة لإنقاذها من أيدي قساوسة الحرق؟ إنهم أشد من جند السلطان.

ـ ألم يشهد الناس بأنهم رأوها في الكنيسة. . . أو ربما شهدوا أنها جاهلة لا تعرف شيئا مما هو مكتوب في الحجاب؟

ـ قالت ذلك. . وقالت أنها وجدته بين أثاث أمها المتوفّاة من ثلاثين عاما، فحملته تعلقا بذكرى أمها دون أن تعرف محتواه.

ـ إنها تتحامق. . . رمت نفسها بداهية لن تنجو منها أبدا. . . ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ران صمت ثقيل على ثلاثتهم ولم يجد أيّ منهم رغبة في مواصلة الحوار، فهام كلّ واحد بخياله في هواجس مرعبة. وبعد فترة تعوّذ الرجل الكهل، وأمر الصبيّ بإخراج لوحته من مخبئها، كي يراجع ما حفظ من آيات دوّنها فيها.

صعد الصبيّ إلى المسترق بخفّة فأخرج اللوحة من بين جرار المؤونة، وظهر في أعلى السلم واللوحة تحت إبطه ليبدأ النزول، وعمه ينبّهه إلى موضع قدميه حتى لا تزلاّ فيهوي... في نفس الوقت كانت آمنة تفرج الباب لتخرج ببقايا المائدة، وإذا صوت يعبر الفضاء مناديا بشكل ممطّط :

ـ آنّا ماريا ... أين أنت؟

ـ نعم .. من ينادي؟

ردّت على النداء وفرائصها ترتعد من المفاجأة، وأغلقت دفة الباب بضربة من مرفقها. بحركة أخرى سدّت الباب بظهرها واضعة يدها على صدرها. وفي نفس اللحظة أشار العم الى الصبي كي يعود إلى المسترق بحركة عصبية من يده، بينما كمّمت اليد الأخرى فمه دون إرادة منه. عاد الصوت :

ـ آنّا ماريا.. هل لديك عود حطب لأعشّي زوجي؟ سرق الرعاة كل الحطب الذي جمعناه وراء البيت.

خرجت الخادم تجري بعد أن استردت أنفاسها، وسمعها الصبيّ وعمه من خلال الباب المغلق بإحكام وهي ترد على الجارة بسماحة وتودّد :

ـ لا تقلقي أيتها العزيزة، لديّ حطب كاف، فخذي ما شئت ليتمتع زوجك بعشاء ساخن. اطلبي منه فقط أن يذكر العجوز آنّاماريا في صلواته.

ثم سمعت قرقعة أغصان تتكسر، وبعدها عمّ السكون،

ورجعت آمنة الى الغرفة لاهثة. وانتظر العم حتى أشارت برأسها، إيماء بابتعاد الخطر. عندها نادى الصبيّ طالبا منه النزول.

قبل أن يشرع في التلاوة قصّ الفتى على عمه ماسمع من أطفال البلدة عن نجّار عشر القساوسة عنده على لوح شبيه بهذا الذي بين يديه :

ـ لقد أقسم لهم بكل مقدّس أنه وجده بالصدفة وسط أخشاب قديمة باعها له أندلسي مهاجر، وأنه لا يعرف الى تلك الساعة لأي غرض كان يستعمله.. وأنه لم يدرك أنه خطير ومحرّم إلا عند زيارة آباء الكنيسة المحترمين.

ـ هل علمت بأمر هذا النجار يا آمنة؟

ـ نعم سمعت الناس يتحدّثون بأمره ويتعجبون لأنه من قدماء النصارى وليس فيه أية شبهة.

ـ وهل حاكموه وأحرقوه؟

تدخل الصبيّ ليختم القصة التي بدأها :

ـ نعم حاكموه وأحرقوه.

قاطعته آمنة لتغيّر مجرى الحكاية :

ـ لا تتسرّع يا بنيّ.. فنحن لم نره على كومة الحطب كما رأينا غيره... وقد جرت العادة أن يُعلن الحكم ويحضر الناس تنفيذه.

قال الصبيّ محتجّا :

- فلماذا دكّانه فارغ ومغلق منذ قبض عليه؟ أين ذهب إن لم يحرق؟

تدخّل العم ليهدّئ من حماس الطفل :

- دعنا نسمع بقية القصة . . . يظهر أن آمنة سمعتها من مخبري البلدة.

احتجت آمنة :

- لا علاقة لي بالمخبرين ولا بالحراقين . . . وإنما هن جاراتي أحسن معاملتهنّ فيخبرنني بكل جديد يحدث مع ما يلزم من حواش وتعليق، ومن بين ما سمعت أن النجّار لم تتأكد عليه تهمة صنع الألواح، وهو وإن نجا من الموت فقد حجزت بضاعته، ونُفي الى الشمال، فغادر هو وأسرته البلدة من ليلته.

كان العم يسمع نهاية الحكاية وهو يمشط لحيته بأصابعه متأمّلا مزلاج الباب بإمعان، حتى ظنت آمنة أنها لم تحكم إغلاقه فوقفت تتلمّسه، عند ذلك أدار رأسه نحو الصّبي وطلب منه التلاوة، فتحرّك الصبي لتوّه وبدأ يقرأ ما كتب في اللوح : « بسم الله الرحمان الرحيم . القارعة، ما القارعة، وما أدراك ما القارعة».

ثم تذكر بدرو عمّه أحمد وتنقله الدائم بين المدينة والحجر الأحمر . . . لذا فهو يجهل تفاصيل كثيرة عمّا يحدث في البلدة.

يضطره العمل الى البقاء في المدينة الكبيرة الشهرين وأكثر، ثم يعود ليتفقد الأمور، ويشتري ما يلزم من مؤونة، وبعدها ينصرف لقضاء مهامّه، وتتعلق بأعمال الترجمة في دواوين الدولة وبعض المؤسسات وهي مرخّصة و مأذون بها من الامبراطور أو حكام الأقاليم القريبة من بلدته.

ولم تكن الأسرة كبيرة فترهقه طلباتها، بل هي لا تحتاج لغير الإشراف والرعاية من حين لآخر، أما شؤون الحياة اليومية فهي سائرة على عادة ما يجري في البلدات الصغيرة، شطر في العمل وشطر في الكسل، تقطعهما أيام الآحاد حيث يجتمع الناس في الكنيسة لقليل من الصلاة وكثير من الوشايا والنميمة.

كل أفراد الأسرة هم العم وذلك الصبيّ الصغير الذي وضعه تحت جناحه، وربط مستقبله ومصيره بنفس مستقبله ومصيره. فلأجله ولتأمين سلامته أبقى بيت العائلة مفتوحا وظلّ يتردّد عليه بين فينة وأخرى. ورغم أن الجميع تشردوا اليوم، إلا أن ظروفا غريبة وصدفا لم يكتشف سرّ حبكتها أبقت على وجوده هو والصبيّ.

أما العجوز آمنة فإنها خالة زوجته، ترمّلت منذ زمن بعيد دون أن تنجب، وبقيت بلا عائل، فارتبطت بالعائلة وأخلصت في خدمتها، فبادلها الجميع الحب والإخلاص، الى أن تفرّق الشمل ولم يبق إلا عنصران على أرض المنبت، أحدهما صبيّ صغير حدبت عليه حدب الأم الرؤوم، وثانيهما عمه الغائب الحاضر.

هكذا ربط الرجل حياته المتقشّفة وغير المستقرّة بحياة الصبيّ.

وبذل من أجل استبقائه عنده جهداً جبّارا، واستعان بسلطة وجهاء وقساوسة كبار حتى لا يودع عند أسرة نصرانية، مثل أطفال آخرين سلخوا من أهاليهم عند حملة التهجير الكبرى. كان عليه الاستظهار بشهادة التعميد وبرخصة بقائه للعمل في الترجمة، كما هو مسموح به لذوي الاختصاص، وكان عليه الإدلاء بما يثبت ثروته وقدرته على الإنفاق على الصبيّ إلى بلوغه سنّ الرشد. ثم لا بد أن يمضي إقراراً يسمح للطفل بمتابعة دروس الكنيسة، وإقرارا آخر بأن لا يتدخل أو يعترض إذا اختار الصبيّ في المستقبل خدمة الكنيسة بصورة تلقائية. وقد أمضى على جميع الوثائق المطلوبة، وأظهر من الانسجام مع القرارات والقوانين ما دفع الحاكم والقساوسة الى اعتباره محلّ ثقة واطمئنان، وإيكال أمر الطفل إليه.

وهو قد أنشأ الى جانب هذه الهيئة الخارجية للعائلة حياة خاصة لا اطلاع عليها إلا لضميره وضمير الصبيّ، قوامها الحفاظ على تعاليم الأجداد وسنن الدين الإسلامي الذي نشأ عليه، حتى وإن كان الصبيّ مازال بعيدا عن فهمه كل الفهم، لأن القطيعة بينه وبين أهله جاءت مبكرة وباترة، فلم تترك في نفسه سوى الحزن والفراغ. لذا انصبّ اهتمام العمّ على تربية الصبي وبناء روحه الخاوية قبل أن تسبقه إليها تعاليم جديدة.

بادر قبل كل شيء بتعليمه شدة الحذر وأساليب التقيّة في كل أمر، وأن يعيش حياته خارج البيت كما يراد منه أن يعيشها، وأن يترك للبيت حياة خاصة بالإشباع الروحي واستيعاب أصول حضارته ودينه ولغته المهددة جميعها بالتحطيم، بل هي قد تحطمت بعدُ.

كان الطفل في السابعة من عمره، تهيأت مداركه واستعدت لاستقبال المعارف، فأعطاه عمه دروسا متتالية على امتداد ليال طوال لا تنتهي إلا مع طلوع الفجر. حتى إذا غطّه النوم في الغداة عند دروس القسيس وضحك منه الأطفال، افتعل الاعتذار، ولعن كل أنواع البعوض الذي يمنعه من النوم، لأن مسكنهم بجانب النهر.

أنهى الصبيّ حفظ لوحته وذهب ليمحوها، وتوقف لحظة بجانب عمه ليسأله عن شيء، فتأمله الرجل معجبا بطول قامته وابتسم قائلا :

ـ عرفت الآن أنك لست سريع الحفظ فقط بل وسريع التمطط أيضا، انظر ما شاء الله كم طالت قامتك، إنها تساوي ثلثي طول الباب. اذهب وقف بجانبه لأرى.

قفز الطفل جريا ناحية الباب وفي عينيه زهو واعتداد فقال العم:

ـ بالفعل، وكما ظننت، فأنت الآن بطول الثلثين، وبعد سبع أخرى تصير في طول الباب بكامله.

احتج الفتى وبدا عليه التأسف وهو يرد على عمّه :

ـ إذا أنا بلغت الثلثين في سبع سنوات فكيف أحتاج إلى سبع أخرى لأبلغ الثلث الباقي؟ نصف السبعة يكفي يا عمي... كن عادلا معي.

ضحك العم لفطنة الطفل وبداهته وأجابه :

ـ لكننا لم نحسب الشبرين اللذين هبطت بهما من بطن أمّك، كان علينا حذفهما من السبع الأولى!

وضحك العم مرة أخرى، ولكن الفتى أنزل عينيه الى الأرض وفاجأه وجوم وحزن، فوضع اللوحة جانبا، والتصق بجانب آمنة كأنما يطلب أن تهدهده لينام.

توقف العم عن الضحك فجأة لما رأى ما ألم بالصبيّ عند تذكيره بأمه وبمولده، فهذه أشد الأمور إيلاما لأحاسيسه التي زلزلها فراق الوالدين منذ عام مضى، وترك فيها جرحا لم يندمل بعد، وربما لن يندمل أبدا.

مد العم يده فجذب ابن أخيه إليه، ومسح بيده الأخرى شعره، وشفتاه تتحركان بقراءة غير مسموعة، ثم وضع رأس الصغير على حجره وهو يربت كتفه بإيقاع خفيف، ويحدثه مهدئا طاردا نوبة نشيج بدأت ترجّ الجسم النّحيل، ولكن النوم غلب الصبيّ فما وجدت الدموع فرصة جديدة لتفريج ما في نفسه من كرب مكتوم.

وإنما أنقذته الأحلام إذ رفعته عاليا، قربته من قبّه السّماء حتى كاد يلمس النجوم، رأى جسمه يستطيل ويتمطط كأن قوّة جاذبة تسحبه إلى فوق، تحاول تخليصه من الأرض وهمومها، تزيل عنه الثقل الممسك بقدميه يمنعه من اقتلاعهما، فهو مشدود إلى أرض هذه القرية الظالمة غير قادر على الخلاص منها.

لوى رأسه عن الكواكب ونظر أسفل، حيث خوانا غاسلة الثياب المسكينة قد التهبت ثيابها وأطرافها، وأحاطت ألسنة النار بها هالة حمراء مخيفة، وحيث العجوز آمنة ترتعد من خوف، وتستحلفه دامعة العينين، أن يأخذها هي والأرملة إلى مرافئ النجوم القريبة من يده، حتى لا يغذي الحرّاقون بلحمهما نيران أحقادهم.

يفتح الصبي فمه يريد القول :«لا طاقة لي بحملكما أيتها العجوزان، جسمي نحيل، ولا قدرة لي على إيصالكما حيث النجوم"، لكن لا يصدر منه صوت، فهو كالأبكم أو المشلول، فيغلق فمه وينظر إلى ساحة القرية بقلب جريح.

يرى هناك رجلا يمسك بلوح الكتابة ويجري لاهثا من مكان الى مكان كالباحث عن مهرب. انه النجار وخلفه أشباح سوداء بلا وجوه، وانما لها أذرع طويلة تمسك أغصانا ملتهبة يزيدها الجري اتقادا واستعاراً. يصيح الرجل ويستنجد لكن لا مجيب. فتح بدرو فمه ثانية ليعيد محاولته الأولى لكن الأصوات تجمّدت في حلقه، وبقي رأسه قريبا من قبة السماء، ورجلاه ملتصقتين بالأرض.

شفّت نفسه من حزنها وشفّت، حتى تصوّرت الجسم غدا عمود ضباب أو دخان، ترفعه الريح الى أعلى وتمنحه حرية الانتقال إلى حيث يشاء. وماذا يشاء لو سألناه؟ يشاء العثور على أبويه أوّلا وأخيرا، وليذهب الحجر الأحمر وأهله إلى الجحيم، وليحرق قساوسته لحم الناس ليتقربوا به إلى آلهتهم شواء طريا طازجا. سيترك مصيره بيد الريح تأخذه الى مستقر آمن بعيد عن الفتن، حيث لا تستجير به أرمل تشتعل كأنها فتيل زيت، ولا

نجّار مذعور تهدّده أشباح سود بالأغصان الملتهبة.

وماذا يشاء بدرو لو سألناه؟ يشاء أن يكون في مدينة عالية الأسوار محصّنة الأبراج، تهدأ فيها النفس الخائفة، والقلب المهدّد بالرعب في كل حين. وتذكّر العجوز آمنة وارتعادها عند كل حركة، وتذكّر قول عمه أحمد :

ـ لا تدعها آنا. . . اسمها آمنة. لما نكون وحدنا لا أحب سماع غير هذا الاسم، فهو اسم مبارك لأنه مشتق من الأمان والطمأنينة.

فتردّ المسكينة :

ـ وأين الأمان والاطمئنان يا سيدي؟

قال بدرو في نفسه التي شفّت حتى صارت كالضباب أو الدخان :

ـ سأجدهما أيتها العجوز الطيبة في مدينة من صنع أحلامي، نأت بنفسها عن مواطن الكراهية والبغضاء، وشقت بنفسها طريقا لا يعرفه منتقم أو حقود، فهي مصطفاة لإيواء الأجناس والألوان والطوائف مهما كانت، ملهمة لإسعادهم وتنقية نفوسهم من أدران البغضاء، هي كنف للفقراء والأغنياء معا، ومؤتلف لأهل الملل والنحل والأهواء، يستظلون بظلها، وينتشر العدل بينهم انتشار الهواء، كما يجري الإنصاف والتفاهم بينهم مجرى العادة والطبع، فلا قهر قاهر، ولا سطوة سلطان. هذه هي مدينتي، أطفالها أصحابي، وأهلها أهلي، أدخل بيوتهم فلا أرى ملّة تعتزل

بنفسها أو تعلو على غيرها، ولا أعثر فيها على مسلمي بلدي المذعورين، ولا رهبانه القساة الظالمين. فالكل مختلط بالكل، متمازج معه، ذائب فيه.

هذا العم كارلوس الحطاب يناديه :

ـ تعال ساعدني يا بدرو. . . فقد غدوت شيخا أعجز عن ربط حماري بهذا العمود.

ـ سي سنيور كارلوس. . . برفافوري!

وهذا الشيخ عامر تاجر الدوابْ يسأله ممازحا :

ـ متى أبيعك فرسًا أيها الرجل القصير؟ أمازلت تخاف ركوب الخيل؟

يرد عليه بدرو :

ـ أنا لا أخاف. . . هات فرسا على مقاسي وسأشتريه.

ويتركه الرجل ضاحكا من بديهته الطفولية وحسن تخلّصه. أما في هذه الأيام، فالشيخ عامر مفلس، مغلق على نفسه باب البيت، لأن العساكر أخذوا دوابه كلها، حتى لا يزوّد بها بني عمومته المتمردين. وذاك العم كارلوس الحطاب صار ينظر الى الجميع بحذر وريبة، ولا يكلم أحداً يُسلم عليه في دروب الغابة، بل يهمز حماره بمسمار ويجري. ينظر القساوسة الى بدرو من طرف أعينهم، ويراقبونه سراً في قداس الأحد. يضحك الأطفال من لكنته ويرصدون أخطاءه في الأدعية والصلوات. هل هو أكثر

غباء من أطفال النصارى؟ لماذا لا ينتهرهم الرهبان، ولا يرصدون حركاتهم؟

قال بدرو في نفسه الشفّافة كالضباب أو كالدخان :

ـ ليتني أستطيع أخذك معي يا خوانا إلى مرافئ النجاة. لقد وجدت مدينة جديدة لا تصل إليها نيران المنتقمين. طيري بها إلى هناك أيها الرياح. خذيها الى مدينة الرحمة حيث لا ضيم ولا ضرار، فكل الأطفال سواء، وكل الرجال سواء، وكل النساء سواء. وليتني أستطيع أخذك معي يا آمنة العجوز الى مدينتي الجديدة، إنني أراها الآن أبوابا عالية كتب عليها : ادخلوها بسلام آمنين، وساحات فسيحة يعمرها التجّار والبضائع من كل بلد وصقع، برك ومسابح وغدران يلمع فيها الماء النمير، ويرفرف عليها الحمام وطير الجنّة، وقصور بهيجة تعمرها نساء جميلات، إذا خالطتهنّ انقلبت صبيّة بهيّة ترشق في شعرها الأسود مشطا طويل الأسنان وزهرة جلّنار، ولك إن شئت الانتقال بين سوق العطارين حيث طيب الشرق والغرب، أتى به حذّاق التجار خصيصا لجميلات هذه المدينة، ولك أن تطوفي بمحلات الأزياء والملابس فتختارين منها ما يعيد إليك نضارة وجهك ورواء عودك. ولك برك المياه لتتبرّدي وتسبحي كحوريات البحر بين الأسماك الذهبية وزهرات النيلوفر. ولك الحمامات الساخنة بمهرجاناتها وعروضها الفريدة يلفّك فيها البخار الدافئ، وتدلك أعضاءك الجواري بلطف يزرع الحياة في الشرايين والفرح في النفس. ولك أن ترقصي الفلامنكو مع حلقات الغجر في ساحة «المركنتي» أو الصطمبالي في ساحة بوسعدية، أو الرقص الشرقي في ساحة «شهرزاد».

ستنسين ذكرى عجوز ضعيفة اسمها آنّا تتملق الجيران، فتهبهم الحطب في منتصف الليل لكي يحترموها إذا ما لاقوها في النهار. في المدينة الجديدة لك الخيار أن تحملي اسم آنّا أو اسم آمنة أو اسم مريم العذراء، وقد يخطبك بعض الشبان فلا أعترض ولا يعترض عمي أحمد، فلك الحق أن تحبّي، وأن تجدّدي الحبّ بقدرما يحتمل فؤادك. فمدينتي هذه تجدّد الروح وتدفعها الى الحركة كلما أرادت التوقّف إعياء أو مللا. عليك التزحلق في «الزرزاحة» منذ الوصول ليأتيك العرسان ركضا، فتختارين أجمل شاب تطيب له نفسك، وتساكنيه في حي العرائس حيث يعشّش الحبّ وتحوم ملائكته حول كل النوافذ، ويعزف أجمل الفتيان تحت شرفاتها أنغام حنينهم، فترتمي زهرات الياسمين بين أقدامهم منتحرة، قبل أن تلين قلوب العذارى فتسمح بنظرة أو ابتسامة.

قبل أن يأوي العم إلى فراشه سأل آمنة وقد بقيا وحيدين :

ـ هل تأتيه نوبات البكاء بكثرة في غيابي؟ أقصد ألم يبادئه النسيان؟

تنهدت الخادم وهي تضع يدها على صدرها :

ـ ويلي عليه المسكين! كيف ينسى ولم يمض على الحادثة غير عام وبعض العام؟ من أين له قوة الكبار ورباطة جأش من جرب صروف الدّهر؟ إنه مازال في عزّ الغضارة والنضارة!

ـ اتركي الأمر للزمن فهو وحده الكفيل بذلك، وما عليك إلاّ إلهاءه كيفما تستطعين... أشركيه معك في شغل المطبخ وتنظيف البيت، مع تحذيره دوما من زلات اللسان وكشف ما يدور بيننا في

البيت ولو أثناء اللعب مع الأطفال.

طأطأت العجوز رأسها وهي تهمهم :

ـ بستر الرحمان يا سيد بيجارانو . . . بستر الرحمان.

ـ أنا عائد الى غرناطة في الصباح الباكر، فاهتمّي بالصغير كما أوصيتك، ودسّي جميع كتبي وأوراقي خلف الجرار، ولا تسمحي للجيران بالدخول الى هنا ولا لصبيانهم. خذي كيس النقود ودسيه أيضا في مكان آمن، ولا حاجة لي بعد الآن بالمصباح فاطمسيه.

عمت الظلمة المكان، ولكن النوم لم يراود عيني المترجم الكبير والفقيه العالم أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الذي صار يعرف في بلدته باسم جديد هو فلّش بيجارانو بحكم قوانين التنصير، فلا مناص إلا أن يعيش باسمين وهويّتين ومظهرين، أحدهما لاستعماله مع مجتمع بلدته الضيّق، والثاني لاستعماله في غرناطة عند اجتماعه بعلمائها وكبار رجالها وحيث يتمتع بحرية أوسع.

وهو يرى أن هذه الحرية إنما أتيحت له دون غيره لغرض وقصد، فكثيرا ما يُحتاج إليه ويُستعان به على ترجمة وثائق إدارية أو قانونية أو دينية مما يتداوله الحكام والقساوسة، كما أنه يدعى الى بعض المدارس والمكتبات سواء في بلنسية أو طليطلة إضافة الى قرطبة وغرناطة ليحقق أو يترجم بعض كتبها العلمية مما خلفه الأندلس الراحلون، حتى غدا هذا العمل معدن رزقه وسبب وجاهته وعلو قدره بين سادة البلاد الجدد.

ولم يكن هو الوحيد المزاول لهذه المهنة فهناك علماء آخرون، مشهود لهم بالدراية والتجربة، وقع استثناؤهم من قرار الطرد ليخدموا الدّوائر الرسمية، ولكن بالخصوص ليعينوا مواطنيهم ممن بقوا على جهلهم للّغة القشتالية حتى بعد أن تنصّروا، وفيهم من ابتدع رطانات مخلوطة من عدة لغات، وقد شاهد منها الشيخ أحمد أمثلة عجيبة، خاصة في الأرياف عندما يطلب منه التوسط في قضايا استحقاق إرثيّة بين الفلاحين، وهؤلاء كانوا يعانون من مزالق لغتهم الأم، فإذا بهم يواجهون اليوم تلك المزالق مضاعفة.

تمتع المترجمون برعاية خاصة، وكذلك أصحاب المهن المستثناة من قرار الطرد، كخبراء الرّيّ وعصر السكر وفلاحة الأرز، إلا أن الضوابط القهرية الجديدة التي أكرهت الناس على غير ما يريدون، واندست في شؤون حياتهم الخاصة، لم تترك لأحد سبيلا إلى هدوء النفس وراحة البال، ـ بما في ذلك من استثناهم القانون الجديد ـ فالشعور بالمهانة والإذلال ينخر النفس ويفتتها من الداخل حتى تحسّ ذاتها هباءً في تيار الريح قبل أن ترى أنها في عيون الآخرين أقل من ذلك.

والشيخ أحمد وسط هذا الجوّ المليء بالعواصف، قاهر لنفسه ضاغط على نوازعها، وليس الا أن يقوم بواجبه دون التفات إلى ما حوله. وإنما يفعل ذلك تحاشيا لأي صدام، وخوفا من أية هزّة يكون الصبيّ بدر الدين ابن أخيه محمد أولى ضحاياها. فمن يعوله من بعده ومن يحميه؟ لقد رأى بعينه المصير الذي لاقاه ألف أو تزيد من صبيان وفتيات لا تزيد أعمارهم عن السبعة أعوام، أخرج العساكر آباءهم وأمهاتهم من ديارهم، ورحّلوهم في ظرف

ثلاثة أيام، واحتازوا الأطفال عندهم ثم وزعوهم فيما بعد على عائلات النصارى. هذا ما حدث في جهة الحجر الأحمر منشإ أسرته ومرقد أجداده منذ سنين، ومثله حدث بسائر المناطق الجنوبية في البلاد، وقد اقتلعت هذه العاصفة العنيفة فيمن اقتلعت زوجة الشيخ وكانت حاملا، وأخاه محمد وامرأته اللذين تركا ابنيهما محجوزا مع باقي أطفال القرية وهُجِّرا من دونه. وقد روت آمنة للشيخ أحمد أن محمد صعد الى المركب حاملا امرأته بين يديه من إغماء أصابها فانطرحت على الأرض وجرها الجند قبل أن يتدخل ويفتكّها من أيديهم.

رفع الشيخ الغطاء فوق رأسه وبدأ التسبيح عساه ينسى... وعساه ينام.

وما إن أغمض عينيه حتى أخذه الحلم إلى أرض يباب، يشقها في إعياء وعطش فتوصله إلى باب كبير بقوس مزدوج تعلوه عبارة السكينة الدائمة : ادخلوها بسلام آمنين. ويفرح من كلمة السلام، فيدخل باب «الديوان» مستبشرا ليجد نفسه وسط سوق تعجّ بالحرفيّين، وأهل صناعات الفخار والزجاج والنسيج والنحاس والجلود، ينهمك جميعهم في إتقان ما بين أيديهم، لا همّ لهم غير ذلك، وغير استمالة الزبائن بابتسامة فيها شيء من الزهو وكثير من الرضا.

في الجوّ رفيف رقيق لأجنحة السعادة والهناء، من كل ناحية تأتيك الدلائل : ضحكة من هنا، نغمة موسيقى من هناك، تعابث أطفال حول بركة ماء، أو زغاريد نسوة يصحبن عروسا الى

الحمّام في نهج «حمام العرايس» فيما يصحب «العرّاسة» العريس الى حمّام الرجال، وكلاهما يعيشان أجواء نشيطة من الرقص والغناء. هي شبيهة بغرناطة ولكنها ليست منها، فيها ملامح أخرى لم ترها العين من قبل، يستشعر الذهن أنها ملامح إفريقية مغربية، بحريّة بالأساس، فتلك رائحة البحر توحي بقربه من المكان، حتى تظنّ أن منظره سيفاجئك من أحد الأركان.

ويرى الشيخ أحمد، وهو مستند إلى حوض «الساروط» في ساحة محاطة بمقاصير القيافة والألعاب، رجالا ونساء يخرجون إليه بمسوخ وأقنعة وألبسة لا حدّ لألوانها وأشكالها، فيرقصون حوله ويأخذونه في تجوالهم من باب «المدينة»، حيث فرق القادرية والسلامية والعيساوية بألويتهم ودفوفهم وسناجقهم، إلى باب «البحر» حيث فرقة التيجانية ومدائحها النسوية الرقيقة.

ويقول الشيخ أحمد : أنا رجل كتب وعلم، فأين متاحفكم ومعابدكم ودور العلم؟ فتأخذه حلقة السرور الى رواق الفنون، «شيم» ليرى ما فيه من لوحات ورسوم ومنحوتات لأشهر من نبت في البلد أو مرّ به من فنانين ونحاتين على مرّ العصور، فإذا هو مبهور بما يرى من آيات الإبداع الحر الخلاق.

ويأخذونه إلى دار الزربيّة ومعرض الخزف والجليز وفيها عرض دائم لمجموعات زاهية الألوان متنوعة المواد، تشتهر هذه المدينة بإجادة صنعها، وينطلق على مساحاتها إبداع فتيانها وفتياتها ليقدم أنبل المعاني في رشيق الصور والأشكال. وفي متحف العادات والتقاليد يرى الشيخ أحمد، في فضاء كبير تعلوه القباب، صورا

ومجسمات وأمثلة تحكي تاريخ قرطاج وتاريخ الحضارة العربية، سواء بتقاليدها العريقة أو بما رسخته من عادات جديدة في هذه المدينة.

ويأخذونه إلى المسرح حيث تقدم مسرحيات تبعث الحياة في مسار الماضي، استيحاء من الأساطير ومن قصص التاريخ وأحداثه. والناس هنا بين اللعب واللهو يحتفون ببطولات أجدادهم الأولين، ويقدمونها دون تمييز أو مفاضلة، على أنهم حصيلة ذلك الجهد الانساني الذي أفرزته حضارات اتفقت واختلفت، تناحرت وائتلفت، فمنها جميعا هؤلاء الناس الذين يعمرون المدينة فرحين بما أوتوا، مقبلين بتفاؤل على ما سيأتي.

وتذهب الحلقة بالشيخ أحمد الى «متحف الخبز»، ومتاحف أخرى متنوعة، ثم ينتهون به إلى «متحف الأديان» وفوقه مئذنة شبيهة بصومعة جامع الزيتونة، تشير إلى المكانة المرموقة للدين الاسلامي في هذه الأرض المشتهرة بتسامحها واقتبالها لعدة أديان في مجرى تاريخها العريق. يجسّم «متحف الحضارات» هذا المعنى، ويقدمه في مجسّمات ومحفورات وقطع أثرية نادرة، وفي رموز وتعبيرات تجسّدها أمثلة لتلك المعالم، مساجد كانت أو هياكل أو كنائس أو بيعا. تقدم صورة عن أجواء الطقوس وأماكن العبادة مهما كان المعبود.

ويندهش الشيخ أحمد بجوّ المودّة السائد، ويعجب أن مدينة شبيهة بمدينته تسمح بالحوار وتعايش الأديان، لا مكان فيها للتعصّب، أو مكايد الربّيّين، أو نيران الكنيسة. ونادى صاحبه ابن

الأكيحل لينظر معه كيف يستطيع الناس العيش بتفاهم وسعادة إذا أعملوا العقل وتركوا الشقاق. ووجد نفسه يقول بعد هذا النداء:

ـ يا صديقي ليس كالظلم لايقاظ مردة الشر النائمين. الظلم يا صاحبي هو سيد الفتن. ولاأظنه وصل إلى هذه المدينة.

تلك آخر كلمة تصوّر نفسه يقولها عندما أفاق فجأة من حلمه على صياح الديكة تعلن طلوع يوم جديد.

وضع الجندي بدرو رأسه بين يديه وهو يردد في داخله مغتاظا من حادثة قتل الجرحى: «وهل الحرب أشرف من تكسير الحجارة؟ هل الحرب أشرف من كلّ شيء؟ يا للجهلة... يا للطغاة!». يتمنى الآن لو أنّه لم يشارك في الحملة، ولكن كيف يضيع فرصة كهذه انتظرها دهرًا وعلق بها آماله واستمساكه بالحياة؟ لا بد أن يتحمل الصعوبات والإهانات والأخطار مهما ثقلت، المهم في النهاية هو أن يصل إلى مبتغاه.

وتذكر نصائح عمه، ذلك الرجل الجلد الشامخ الذي علمه كيف يصبر على المكاره، ويذلل الصّعاب بالأناة والحكمة، وكيف يخاطب الناس بما يرضيهم دون أن يغضب الله أو يذلّ نفسه، كما درّبه على التقيّة وكتمان السرّ منذ أن كان صبيا لاهيا إلى أن بلغ الآن الثالثة والعشرين، حتى أنه ليتخيل أحيانا شرايين جسمه وأعصابه قد حاكت منها الظروف القاسية والخوف الدائم جهازا

صلبا غامضا يعسر فهمه أو قهره .

وبذكر عمه وردت على ذهنه العجوز آمنة، راعية صباه ومؤمّنة خوفه، ومن ذكرى الاثنين أتته قوة روحية اعتاد استمدادها منهما ليظل متوازنا مواصلا طريقه الى الهدف بهدوء، وهي القوة التي أعانته في كامل مراحل حياته حين كان يلعب مع صغار البلدة ويتعلم على قساوستها، ثم حين اشتغل وهو شاب في مقطع الحجارة القريب، وحتى في علاقته بعد ذلك بماركو شيخ البناءين في منطقة الحجر الأحمر، وهي علاقة توطدت وجعلته محلّ ثقته، يكلفه بالاشراف كليا على حظائر خارج المنطقة فأدى واجبه فيها بحذق وعناية. في كل علاقاته بهؤلاء لم ينضح شيء مما يدور في بيته أو بينه وبين عمه، ولا أفصح مرة عن مكنون سره وما يعتمل به جنانه، بل تصرف في حياته العامة كسائر الناس، بينما هو إذا اختلى بنفسه مخلوق مغاير لكل أولئك الناس.

أدى الشيخ أحمد صلاة العصر صحبة ابن أخيه، ثم قام إلى بعض كتاباته، ولا حركة في البيت سوى خطوات آمنة الهادئة، حتى إذا حانت صلاة المغرب عاد العم إلى نفس البقعة فوجد بدر الدين حيث تركه، متربّعا وراحتاه على ركبتيه وهو في حال سكون تام. نظر إليه مليا، ثم دعاه إلى القيام للصلاة وفي نفسه قلق وحيرة. بعد أن انتهيا اقترب العم من الفتى بلطف وسأله :

- هل يزعجك شيء يا ابن أخي؟

- أنت تعرف ما بي، وهل يحتاج الأمر إلى مزيد شرح؟

- أعرفه يا بدر الدين، وأعرف أنه حمل ثقيل، لكننا لا نملك

إلا أحد أمرين، إما أن نغيّر ماهو كائن، وهذا في حكم الاستحالة، وإما أن نصبر عليه في انتظار الفرج.

- وإني لكاتم وصابر يا عمّي . . . في انتظار هذا الفرج!

- أعرف، وأشجعك على ذلك. لكن نوبات حزنك ووجومك تحيّرني، وأرجو أن تشغل نفسك عنها بالذكر والصلاة.

- إنني أبذل جهدا كبيرا خارج البيت لأبدو في مظهر الفتى اللاهي اللامبالي، لكنّ في النفس رغبة جامحة لأصرخ في الجميع شاكيا ألمي ومعرّيا جروحي.

- إياك يا ابن أخي أن تفعل، ففي هذا هلاكنا جميعا.

- أعرف . . . وهذا ما يزيد كآبتي.

- الأمر أقوى من سنك الصغيرة يا بنيّ، ولكن صروف الأيام تعجّلت عليك وسرقت طفولتك بأن نكبتك في والديك.

- وأنت يا عمّي . . أليس بك مثل ما بي؟

- بلى يا بنيّ . . . بلى!

ولمح في عيني الشاب حدّة وتصميما لم يشاهدهما من قبل، فحدث نفسه : «ما أبعدهما الآن عن العينين الباكيتين، وعن ذلك الصبي ابن السابعة، يحزن فينكفيء على نفسه كالأرنب الصغير! وينام على ركبة عمه أو في حضن آمنة لقد نضج الفتى ولا بدّ أن أدخل به المرحلة الحاسمة، وأن نبدأ معا تنفيذ الخطة السرية».

قرّب فمه من أذن الشاب وأسرّ إليه حديثا جدّيا طويلا،

والسامع إما واجم تائه النظرات، أو محرك رأسه حركات موافقة واستيعاب، وفي كلتا الحالتين لم يُفارق سحنته التقطيب والصرامة. استغرق حديث الشيخ إلى الفتى كل سهرتهما، وكان أغلبه مساررة وهمسا، حتى إذا قاما ليقصدا الفراش وضع الشيخ أحمد يده على كتف بدر الدين وقال بلهجة حازمة :

ـ إذا افترقنا هذه المرة فربّما لن نتقابل إلا بين يدي الله، وقد يشاء العلي القدير ان يجمعنا ثانية مع الأحباب وقرّة الأعين فتصفو الحياة من جديد. من يدري يا ابن أخي. . . من يدري؟

لم يَزُل عن بدر الدين تجهّمه، بل ازدادت ملامحه قساوة، شعورا منه بمأسوية الموقف، إذ بعد فقدان أبويه ها هو يهم بفقدان سنده ووليّه ورفيق آلامه وكفاحه، فعلى من سيتوكل وبمن سيستعين في بحر الظلمات الذي ينتظره؟ ومع ذلك تشجع وقال لعمه :

ـ سأحزم أشيائي منذ الغد، ثم أبدأ الترحلّ بعيدا عن الحجر الأحمر. سأتنقّل ما بين إشبيلية غربا وركّانة شرقا وأقليش شمالا والمريّة جنوبا إلى ان يستقر بي المقام في غرناطة مجهولا ابن مجهول. لا يعرف أحد أصلي ولا من أي أرض أتيت.

ـ واطلب رزقك بالعمل الذي صرت تحذقه الآن ومهرت فيه، واسلك سلوك من حولك، حتى تبدو عاديا ليس فيما تفعله أو تقوله ما يُريب.

ـ سأفعل يا عمي والله المعين.

ـ أما أنا فسأواصل حياتي وعملي بصورة عادية، إلى أن تؤاتي الفرصة وأنفذ الخطة كما شرحت لك، وليس المهم متى ولا كيف وإنما العمل بخواتمه، وأن يكون ميعادنا في الأرض التي يهدينا الله إليها، كما هدى إليها من سبقونا.

ـ قد تراني غدا، وقد تدعوني بعد غد فلا أجيب.

استدار الشيخ بسرعة كي لا يظهر لابن أخيه مقدار تأثره بهذا الكلام، وقصد فراشه دون كلمة أخرى.

التقى أحمد الحجري عند باب المكتبة بابن الأكيحل الأندلسي، فسرّ برؤيته وسأله عن أحواله وأعماله، لأنهما لم يلتقيا منذ أكثر من عام.

ـ هيا نأخذ كمّا من هواء الجنينة قبل الاندساس بين الرفوف وفي غبار الكتب.

اقترح أحمد على صاحبه تلك الجولة القصيرة وأخذه من ذراعه ليمضيا بخطى بطيئة بين سرو الحديقة وأحواض زهورها.

ـ خامرتني شكوك كثيرة لما انقطع عني العلم بأمرك، وبحثت عنك فلم أعثر على أثرك في أي مكان اعتدت رؤيتك فيه، حتى أني سألت غير واحد فما وجدت جوابا، فأين كنت يا رجل؟

امتنّ الشيخ أحمد لصاحبه على ما أبداه من اهتمام بأمره

واشتياق إلى أخباره في زمن تقلبت فيه الأحوال وانعدم الأمان، واعتذر بأن غيبته طالت في بلدته بالحجر الأحمر، حيث بيت الأسرة وما بقي من مصالح تدعو الضرورة إلى تفقدها حينا بعد حين، وأضاف بلهجة مثقلة حزنا:

- دعت الحاجة هذه المرة أن أبيع البيت وحقل العنب، فمن سيقوم عليها بعد خروج أخي وزوجته؟ لقد خرب البيت وتلف الحقل ولم يعد منهما نفع.

- حسنا فعلت، ولو غبت عنهما سنة لافتكوهما وأعطوهما لغيرك.

- بعتُ كل شيء بأبخس الأثمان، وعدت إليكم يا أهل غرناطة بهذا الثوب وبهذا الرأس فقط لا غير.

- سلامة الدين والبدن أفضل أنواع السلامة.

وكأنما انطلقت منه العبارة دون أن يشعر، وإذا بالرفيقين يلتفتان يمنة ويسرة بحركة لا إرادية، لعلّ العبارة بلغت أذنا تتلصّص أو عدوًا يترصّد. ولما اطمأنّا الى انفرادهما بالمكان جلسا على مقعد حجريّ واستمرا يتحاوران في شتى الشؤون.

- كنت أقرأ منذ أيام في كتاب أشياء تدفع الى العجب دفعا وكيف أن أمراء الأندلس السابقين ما انتبهوا الى هفوات خطيرة ارتكبوها.

- لو انتبهوا الى هفواتهم لما عانينا آثارها اليوم.

- ولما دفعنا ثمنها غاليا كما ندفع الآن.

- وما الذي أثار اهتمامك بصورة خاصة؟

قال ابن الأكيحل متنهدا :

- لا أظنك نسيت امتيازات وإنزالات كور الجنوب التي منحها الخلفاء للجماعات العربية المستقرة هناك منذ بداية الفتح الإسلامي.

- لا... لم أنس، إنه أمر معروف استرضوا به القبائل الموالية.

- نعم... ولكنها حظوة خاصة لم ترق للمولدين وأهل الذمّة بتلك الجهات وبدأت بذلك الثورات على أمراء قرطبة.

- أتذكّر من بينها ثورة عمر بن حفصون الذي جمع سكّان ريّه وما جاورها، وقال لهم : أذلتكم العرب واستعبدتكم!

- قالوا عنه قاطع طريق، وقالوا أنه مرتدّ ولكن دعوته كم تعلم أثرت في الناس، لأنهم رأوا الظلم عيانا وتجرّعوه ألوانا. كان يخطب فيهم : «طالما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم».

- ها قد مضت على تلك الأحداث قرون طوال. ولكن الرجل احتجّ بما رأى لذا فهو محقّ في كلامه... والدليل على ذلك أننا ندفع اليوم الثمن... ونؤاخذ بجريرة ما فعل أجدادنا.

- وتلك عاقبة الظلم والبغي.

- والعجيب أنهم ظنّوا الله في جانبهم وأنه سينصرهم لكونهم مسلمين... حتى وإن ظلموا واعتدوا.

- حدثني أحد القساوسة منذ أيام عما يقاسيه أهل الممالك البيزنطية على يد السلطان التركي، وبعد أن أشار إلى بطش هذه القوة الوليدة المهدّدة لأهل النصرانية جمعاء، قال متنهدا: «ان الله يعاقبنا بتسليط الترك علينا لكثرة ما ظلمنا وبدّلنا في حكمه تبديلا... فبعد ظلم ملوكنا، وانشقاقات كنيستنا، هل ننتظر من الله أن يساعدنا ويأخذ بيدنا؟» إنها نفس عبارتك التي قلتها عن المسلمين.

- هي ليست عبارتي بقدر ما هي حكم التاريخ... من فسد يمضي ويخلي محلّه لمن أصلح منه... وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وسكت الرجلان عند اقتراب فوج قساوسة، ونهضا لتحيتهما برفع القبعة، ثم عادا الى الجلوس وهما يتنهّدان.

يعتبر أحمد الحجري هذا الرجل الجالس الى جانبه أحد العلماء المتضلعين في اللغات المعروفة على أرض الأندلس، فهو إلى جانب الشيخ صالح الجبّاس واثنين آخرين، قد حصلوا من دائرة الملك، وبموافقة رجال الكنيسة على براءات خاصة للإقامة والتنقل الحرّ، دون اعتراض من حكام الأقاليم، كما هي تجعلهم معتمدين في ترجمة النصوص القانونية، وقد كثر الاحتياج إليها بسبب هجرة المسلمين، أو انتقال نصارى الشمال لتعويض من أخرجوا

من الأندلس، وانجرّ عن ذلك حركة بيع وشراء وتجديد عقود، وتوثيق استحقاقات، أو تعويض واحدة بأخرى، مما دعا الى أعمال توثيق نشيطة لا بد أن تضبط نصوصها من طرف متضلعين في اللغات المستعملة آنذاك، خصوصا وقد اختلط بعضها ببعض، بل ونشأ من ذلك الخليط لغات ولهجات أخرى لا بد من خبراء لفك رموزها وفهم معانيها.

وقد لازم الشيخ أحمد الحجري صديقه الأكحيل زمنا غير قليل، ليتعلّم أسلوبه في سرعة الترجمة، وتدرّب على آخرين أكبر سنا وتجربة ليزداد حذقه لهذا الفنّ، أما الفقه واللغة العربية فقد بزّ فيهما أقرانه وفات خلانه، حتى صاروا يحتاجونه فيما يرجع الى هذين الفرعين، أكثر مما يحتاجهم في سرعة العثور على معنى ملتبس من الخميادية أو القشتالية.

إضافة إلى هذا كان للشيخ أحمد الحجري نباهة وبداهة يعترف بهما له إخوانه وزملاؤه، ويجلّونه من أجلهما رغم شبابه الظاهر، مقارنة بالشيوخ المتجاوزين له سنا وتجربة، إلا أنه لا ينفك يظهر للجميع التواضع، والرضا بالعمل تحت إمرتهم، في انتظار أن ينال إجازة رسمية تسمح له بالعمل في حرية واطمئنان. وفي الأثناء لم ينقطع الشيخ أحمد عن زياراته للمكتبة الكبرى والمكتبات الخاصة، يبحث ويترجم ويحقق المخطوطات، مستزيدا من العلم متلهفا عليه، وكأنه سبب وجوده الوحيد.

وبسبب ذلك قضى شبابه متنقّلا بين مراكز العلم المختلفة، آخذا عن علماء زمانه، لا يستقر إلى جوار الأسرة إلاّ أوقاتا قليلة

متقطعة، يعاوده إثرها الشوق الى طليطلة أو قرطبة أو غيرهما من مراكز البحث والتعليم. حتى أنهم لما زوّجوه طمعوا في أن يستقر بالحجر الأحمر وقتا أطول مما اعتاد، فما بقي بجوار عروسه إلا عامًا وبعض عام، ثم ترك أسرته في رعاية أخيه الأكبر، ورحل الى جوار كتب بدأ ترجمتها وتركها تنتظر. واستمر أخوه محمد يعتني بالضيعة والأسرة كالمعتاد، كما استمر هو يغيب السنة وأكثر، ثم يلمّ بهم ضيفا لبضعة شهور ينصرف، إلى أن وقعت الكارثة الكبرى في إحدى غيباته تلك، فما استطاع أن يصل إلا بعد أن حُمّ القضاء وهُجّر الأخ الأكبر وزوجته، ودُفعت معهما امرأته الحامل دفعا، رغم احتجاجها بغياب زوجها في السفر، وبكونها حاملا على وشك الولادة، وقيل له أنها أوشكت أن تُجهض خلال الترحيل.

كان عليه أن يتجلد ويظهر الصلابة يوم عاد الى بيت الأسرة ليجده خاويا إلا من آمنة النائحة طول الوقت، ومن الصّبيّ بدر الدين الذي افتكه الجند من يد أمه ومنعوه من السفر. ولقد بقي الصغير تائه النظرات، غير مستوعب لما حدث ولا لأسبابه، وإنما يأخذ في البكاء كلما رأى آمنة تبكي، وقد يلزم أحد الأركان مرتعدا منتظرا أن يأتي الجند ثانية لأخذه من البيت، كما أتوا أول مرة لإخراج الأسرة تهديدا بالسلاح.

تظاهر الشيخ أحمد بالشجاعة، وأمّن العجوز والصبيّ واعدا أن لا يتركهما عرضة للخطر، ومن يوم الغد بدأ يسعى لاستثناء الصبيّ من قرار الضمّ الى عائلات النصارى كما جرى لباقي الشبان والفتيات.

مع حلول المساء ارتفعت الضوضاء على ظهر السفينة، وقرقعت جنباتها باصطدام الشّواني الصغيرة العائدة من البر بأفواج الجند ومعهم جرحى ومعطوبون، وآخرون يحملون أسلحة مكسورة وقطعا مفتتة مما ترك الأعداء عند تخليهم عن بعض المواقع.

خرج بدرو للمشاركة في مد الحبال وسحب الأحمال الى سطح السفينة وهو يسأل مع جملة السائلين عن نتيجة المعركة وما جسمته من أخطار حقيقية أو وهمية، عن عدد الخسائر وفي أي المعسكرين كانت أكثر، سأل عن قوة العدو والى أي مدى يمكنه أن يصمد، فلم تجد الأسئلة جوابا شافيا من الجند العائدين لأن الإنهاك والجوع قد أخذا منهم كل مأخذ، بل إن بعضهم ارتمى على أرضية السفينة طالبا أن لا يقترب منه أحد، والبعض جروا نحو عنابرهم للتخلّص من آثار المعركة. اقترب بدرو من أحد المجدفين، بعد أن ساعده على رفع قاربه الى فوق وربطه جيدا بالحبال، وسأله إن كانت المعركة قد انتهت، فأجابه بسخط :

- كيف تنتهي وقد تحصن الأتراك الملاعين بتلك القصبة العالية، وأمطروا كل من اقترب منها بالبارود والسهام؟

- وباقي المدينة هل مازال يقاوم أيضا؟

- لا يوجد أحد بالمدينة الآن، فأهلها فرّوا إلى الأرياف

المجاورة، مخافة أن يقعوا بين نارين، وليس إلا أولئك الشياطين ومدافعهم تمنع تقدمنا ناحية الشمال.

ـ فأنتم عائدون غدا لمواصلة المعركة؟

ـ بالطبع.. سوف يقع إنزال بقية المدافع الى البر، وضرب القصبة من الجهات الأربع إلى أن يخرج منها الأتراك، وإلا ردمناهم فيها.

ـ ألا يستطيعون الاستنجاد بقوة تفاجئنا من خلف؟

ـ أكبر خطر نخافه هو قدوم الأسطول التركي، من الآستانة وهو لن يصل للنجدة إلا ونكون وقد أنهينا المعركة. ويوجد خطر أصغر منه هو أسطول أتراك الجزائر وقد تركنا أغربة تترصّده في بحر بنزرت لتعترض طريقه قبل أن يتدخّل.

صار عند بدرو شبه يقين بأن المعركة قد حسمت لصالح الاسبان، وأنهم سيدخلون المدينة بعد يوم أو يومين، فعاد الأمل يراوده، ومنّى النفس بأن تطأ رجلاه في القريب العاجل ذلك الشاطئ الذي يلوح له الآن أفقا ضبابيا يلفه الغسق الأزرق حتى لا يكاد يبين.

لم يطل انتظاره إذ جاء قائد الفيلق ينبّه بالاستعداد للنزول صباح غد الباكر، وطلب بصفة خاصة من الحرفيين أن يأخذوا الأدوات اللازمة لبناء حواجز حجرية على مداخل الأحياء الهامة، وإقامة متاريس خشبية حول القصبة. هذا دليل على أن المعركة قد تطول، اقتنع بذلك بدرو وعرف أن له مهمات كثيرة قد تستغرق أياما وربما أسابيع، قبل أن يهدأ الوضع ويتاح له التفكير في خططه الخاصة. أما الآن فليس عليه إلا الانخراط في المعركة سامعا مطيعا لأوامر القادة، وفي انسجام تام مع أفراد الكتيبة. وقبل أن تبزغ شمس الغد كان بدرو يضع قدمه لأول مرة فوق الأرض الافريقية، ويحاول أن يتبين في العتمة ما تحتويه من أسرار يجهلها، رغم ما سمع من روايات رفاقه، وفيهم من سبقه في النزول إليها، أو سمع عنها من أقارب له شاركوا في الحملة القديمة أيام الامبراطور شارل الخامس.

بقي جماعة قرب الميناء لبناء متاريس تكون رأس جسر يحميهم إذا ما أجبروا على الانسحاب نحو المراكب، وربما الهرب إذا دارت عليهم الدوائر، ورافق آخرون عربات المدافع المربوطة إلى خيول قوية بدأت تسحبها بمشقة نحو مرتفع القصبة. أما المشاة فشقوا أسواق المدينة الخاوية، لا يسمع في أرجائها غير صدى خطاهم وصليل أسلحتهم. كانوا يصعدون على مهل متوجّسين عند كل منعطف أن يداهمهم مقاومون من أهل المدينة أو فلول عساكر الترك. ولم يكونوا في عجلة من أمرهم، لأن رغبتهم هي أن يصلوا أعلى الهضبة في نفس الوقت مع الطوبجية والخيالة الذين صعدوا بمحاذاة السور عن يمين وعن شمال في شكل هلال يلتحم طرفاه خلف القلعة بالقادمين من جهة باب سعدون والقادمين من جهة باب سيدي قاسم الجليزي.

ما أن ما برزت كتيبة بدرو من مدخل الأسواق حتى قابلتها نيران البنادق من شرفات القصبة، فصدرت الأوامر للجميع بالاختفاء خلف الجدران أو التوزّع بين الأحراش المحيطة بالسور،

لتبدأ المعركة الحقيقية بعد أن يحتل كل فرد مكانه. في أوج تلك الاستعدادات طلب من الكتيبة الفنية البدء في إقامة الحواجز على مداخل الأسواق المحيطة بالقصبة، فتحرك أفرادها في كل اتجاه يجلبون الحجارة والرمل والحصى وكل ما يقع تحت أيديهم، ويبنون بجميعها جدرانا صغيرة يمكن للجند المداهم أن يتخفى وراءها، أو يتنقل بيسر دون أن تراه العيون.

وفي نفس المكان قضى بدرو أياما ثلاثة دون أن تنشب معركة حقيقية، وانما هي مناوشات صغيرة لا خطر منها، ومع ذلك لم يطلق سراحه ليستكشف المدينة وأحياءها وأرباضها، فبقيت تحتفظ بأسرارها، وبقي هو يأمل أن ينطلق في أحشائها ذات يوم. وكم ينقبض قلبه كلما وردت على ذهنه احتمالات هزيمة جيشه، إذ لا أحد يمكنه التنبؤ بمصير معركة لم تبدأ بعد. هذه الخواطر توجع بدرو وتطرد النوم من عينيه، لأن إخفاق الحملة هي إخفاق كل ما سعى إليه في حياته، وفقدان وجوده بعد ذلك لكل معنى.

اقتصرت حياة الشيخ أحمد الحجري في غرناطة على حضور يومي في المكتبة الكبرى، يطالع أو يقتبس من بعض المراجع، أو ينسخ ما يحتاجه في أعمال يوكلها إليه بعض زملائه المترجمين، أو في ترجماته الخاصة لبعض الكتب. وقد بذل الكثير من السعي والاجتهاد لمساعدة أصحابه الى أن استوثق له الأمر مع بعض القساوسة، فاستخرجوا له براءة من الحاكم تؤمّنه على نفسه وماله، وتتيح له فرصة العمل مع الدوائر الرسمية، دون مجلبة للشك والاتهام، كل هذا وهو مظهر تنصّره في القيافة والسلوك، مخف إسلامه عن الجميع.

كان العصر مليئا بالريبة والشك، اختلطت فيه سبل الحق وسبل الباطل، وكثر الوشاة وأهل النميمة حتى صارت الأحكام تصدر بمجرّد الشبهة أو الظن، لذا أكثر الشيخ من الحيطة والحذر، وانزوى غالب الأوقات في المكتبة أو البيت، مدمنا على القراءة والكتابة، مقلّلا من زيارة الأصدقاء إلا لحاجة ماسّة، مختصرا عدد المعارف تحسّبا مما عسى أن يفسد عليه ما اتفق عليه مع ابن أخيه، ليلة قرّرا الافتراق كل في طريق.

ومع أنهما انقطعا عن التواصل لإبعاد الشبهات، إلا أنهما اتفقا على صيغة بسيطة يبلغ بها أحدهما صاحبه أنه موجود في غرناطة أو أنه غادرها، وهي معلومة بتراء، لكنها تفيد في أدنى الأحوال أن التنفيذ متواصل، وأنّ كليهما حيّ يرزق وموجود في نفس المدينة. كان الشيخ أحمد يتقيّف عشية كل جمعة بقيافة متسوّل، ويجلس بجوار منزل خرب مادّا يده لتقبّل صدقات المارة، فيمدّ له بعضهم الفلس، ولايأبه به أكثر العابرين، وهكذا لفترة من الوقت، وعيناه لا تكفّان عن النظر يمنة ويسرة، فإذا اطمأن لخلوّ المكان مدّ يده إلى ركن قريب ونبش ترابه بعجلة ولهفة، كأنما ليتفقّد أشياء مردومة، حتى إذا بانت له حبّات فول أخذها في كفه ووضع مكانها حبّات حمص، ثم أهال التراب فسدّ الحفرة كما كانت، وعاد باسطا يده ثانية للسؤال. ولما اطمأن لخلوّ المكان فتح كفّه المضمومة على حبّات الفول وتأمّلها محدّثا نفسه : «هذه

حبّات فول جافة غير نابتة، أي وُضعت حديثا، لقد مضى أكثر من شهر والحفرة محافظة على حبات الحمص التي وضعتها، والآن جاء بدر الدين وعوّضها بحبات الفول كما اتفقنا... يا ليتني أعرف إلى أين وصلت مساعيه، وهل هيّأ الفرصة التي خططنا لها؟ المهم الآن أنه موجود بالقرب مني، وأن فرصة قريبة ستزيدني من أخباره.»

ثم قام الرجل يلملم ثوبه الممزّق، ويمشي الهوينا متظاهرا بالعرج، إلى أن وصل بيته والشمس موشكة على الغروب. وهو منذ بدأ طريق العودة والأسئلة تتوارد على ذهنه باستمرار متواترة ملحّة، فتارة يجد لها الجواب فتنفرج أساريره، وتارة يحتار في إيجاد الجواب المناسب، فيقطب الجبين ويستسلم للهواجس حتى يخشى القنوط، فيأخذ في التلاوة والدعاء الى أن تطمئن نفسه وتذهب عنه سود الأفكار. دخل البيت متخفيا عن الأجوار، كيلا تهيج شكوكهم، وهو يحدث نفسه: «الجيش خارج الى تونس لطرد الأتراك بالاتفاق مع ملوك بني حفص، وهذه هي فرصتك يا بدر الدين، ربّ اجعل الحفرة تحافظ على حبات الحمص دون تبديل!»

ترى من هو حاكمك الحقيقي يا تونس؟ أيتها المدينة البيضاء الصغيرة ذات الشوارع الملتوية والأزقة الضيقة!... بُوحي بما تحمّلت من تهشيم وتخريب، واذكري أي قوة تجعلك تنتفضين متمرّدة على الموت رافضة للهزيمة، فتلعقين جراحك بعد كل

معركة وتجمعين صغارك من جديد كالقطة الخائفة لتستمر الحياة وكأن شيئا لم يحدث. فمن أين تستمدين الشجاعة ومن أين تأتين بهذا الصبر؟

حدّث بدرو نفسه بهذا وهو يطوف بالسور رفقة كوكبة فرسان ليتفقدوا مواضع الكسر ويقيّموا ما يجب إصلاحه بعد انتهاء المعركة وفرار القوات التركية من القصبة. صعدوا الهضبة حيث البرج فوجدوه سالما، ومن هناك رأوا المدينة تحتهم كبرنس أبيض مبسوط على سهل يأخذ في الارتفاع انطلاقا من البحر، وتبدو في الوسط المدينة بأسواقها المسقوفة وعلى جانبيها باب سويقة مما يلي باردو، وباب الجزيرة مما يلي مقبرة الجلاز وبرج علي رايس، وفي الجميع ديار متلاصقة متلاحمة تبرز من بينها القباب والمآذن كأنها قطعة واحدة نازلة بتدرّج نحو البحيرة، وتتخللها أنهج ضيقة متعرّجة يعسر أن تمر الكتيبة بينها بالخيل أو العربات. يظهر على حدود تلك الرقعة البيضاء من ناحية الغرب سهل أخضر عامر بحدائق البرتقال والليمون، كما تبرز لامعة تحت ضوء الشمس ثلاث بقع فضية هي سبخة أريانة شمالا، وسبخة السيجومي غربا، والبحيرة جنوبا، وينغلق الأفق من بعيد بجبال أعلاها جبل زغوان المتعمم دوما بالسحاب.

تجوّل بدرو في بعض تلك الدور الصغيرة المتراصّة، وأدهشه أن يكون داخلها مناقضا تماما لمظهرها الخارجي المتقشف، فالجليز والرخام منتشران في كل مكان يضفيان ألوانا زاهية على الأفنية المعرشة بالياسمين، وعلى البرطال ذي القرميد الأخضر الزاهي وفي صحن الدار لا تغيب أعناق بئر أو ماجل وحوض فلّة

وريحانة أو شجرة نارنج، وحول الجميع غرف متناظرة ذات أبواب منقوشة بأناقة، وسقوف لها تخريم ونقش وتزاويق تعمرها الأغصان والعصافير والأزهار، وتجد فيها التعاريج الهندسية أوسع مجال.

في نهاية الجولة أخذ القائد كتيبته الى جامع كبير فخم البناء رائع الهندسة والاتساع. الصحن الفسيح مبلّط بحجارة منحوتة دقّق بدرو النظر فيها ليعرف نوعها وطريقة نحتها، وأطل برأسه وسط فتحتين لمواجل حفظ ماء المطر. إنه صحن يشغل نصف مساحة الجامع، أما النصف الثاني فلبيت الصلاة ذات الأبواب الأربعة والسقف المحمول على أربعة صفوف من أعمدة الرخام المرتّبة بشكل مدهش، إذ نصب العمود الأسود عقب العمود الأبيض، يليه آخر أحمر، وبعده رابع رمادي تتنافس جميعها في الاناقة والبهاء. لكن ما أفسد الشكل العام هو فقدان أربعة أعمدة في الركن الغربي وضعت مكانها أعواد سدراوي كيلا يتضرر السقف. وقد ظن بدرو أن أشغالا ترميمية دعت الى إزالة الأعمدة من مكانها، فأظهر الأسف وتساءل بحسن نية عن أسباب الترميم ولاشيء يدعو إليه. رمقه الضابط شزراً وقال:

ـ لقد نال الحظ السعيد تلك الأعمدة فانتقلت الى البلاد المسيحية على يد قائدنا المنتصر دون خوان. ألن تكون في بيته أجمل مما لو بقيت هنا؟ لا شك أنها ستجد نفسها بين أناس يستحقونها ويقدرونها حق قدرها. أليس هذا رأيك يا بدرو؟

ـ سي سنيور.. سي سنيور!

أحس بدرو بالألم يعتصر معدته، ولكنه تكتّم وخرج الى

الصحن بحثا عن هواء جديد، وتساءل: ماذا سيفعلون بهذه المدينة اللطيفة بعد أن بدأوا بسرقة الجامع؟ كيف تعفّ أيديهم عن الدكاكين والمخازن إذا لم تعفّ عن أماكن العبادة؟ بهذا كان الشاب يحدّث نفسه متشائما ممّا سينال مدينة تونس على أيدي غزاتها الجدد.. إلى أي حال تصير لو أطلقت فيها أيديهم... خاصة وقد خلت من أهلها وتركت مشرعة الأبواب نهبا لمن يريد. صعب عليه أن يتحمل ذلك وقد اقتربت المدينة من قلبه، ومازجه حبها من أول يوم دخلها.

ولم يمرّ وقت طويل حتى أذنت القيادة باحتلال الدور الفارغة وإسكان العساكر فيها، فكانت هذه فرصتهم للاستيلاء على ما خزّنه الأهالي من مؤونة يدخرونها سنويا في فصل الصيف ليكون بها معاشهم في فصل الشتاء، ولكن لما احتلوا الدّور والفصل خريف فقد وجدوا الجرار مملوءة زيتا وحبوبا وبقولا فأكلوها قبل أن يحل يوم واحد من فصل الشتاء. ثم راج بين المجنّدين أنّ أهل المدينة إذا اضطروا للهروب يدفنون عادة أشياءهم الثمينة ونقودهم في أماكن سرية قد تكون عتبة باب أو جدار مقصورة أو تحت شجرة غرست حديثا للتمويه.

ونقّب البعض في أماكن مختلفة فعثر على أشياء من ذهب أو فضة، وإذا بأطماع الجنود تهيج دفعة واحدة، فتركبهم حمّى تخريب جبارة حتى أن من لم يعثروا على شئ في أحد البيوت حطموا جدرانه انتقاما، أو كسّروا الجرار فأغرقوا الحي في برك الزيت والسمن والقديد. وقد أتاحت هذه الفوضى للضباط الطليان فرصة لينقلوا ما أعجبهم من خشب منقوش وأعمدة رخام

وأطر أبواب لتكون لبيوتهم المقبلة داخله.

وقد صاحب الجيش عدد من التجار السبنيول والطليان أخذوا يحرضون العساكر على زيادة البحث والتنقيب ويشترون منهم المسروقات مقايضة بسلع أخرى مما جلبوه معهم، ولكن بغبن كبير وإحجاف لا يوصف، فقد رأى بدرو كيف باع جندي كيس عود قرنفل مقابل منديل مطرز سيرسله الى حبيبته، وكيف اشترى تاجر سجادا ثمينا بما لا يساوي ثمن الحذاء الذي يلبسه.

خاطب بدرو نفسه وهو يرى صفّ التجار المتصبين عند باب البحر ينادون على مكنوزات أهل تونس وحلي بناتها: «ترى أين أنتم أيها المساكين، وماذا عساكم تجدون يوم عودتكم؟ سوف لن تتعرفوا على البيوت لأنها أضحت بلا جدران، وسوف لن تجدوا مدخلا إليها لأن أبوابها اقتلعت وتدفأ بخشبها جند الامبراطور».

نظر بدرو الى تحت، ونادى جماعة العمال ليرفعوا إليه مزيدا من الحجارة، فلبوا طلبه بسرعة قبل أن ينتبه الضابط المراقب الى تقاعسهم، ومع ذلك جاء الضابط يسأله عمّا به، فموّه عليه:

ـ كنت أناديك لأسألك عن اسم السلطان الذي تقرّر أن يحكم البلاد، أحمد أو محمد؟

اتخذ الناظر هيئة العالم بالخفايا، وأجاب:

ـ وماذا يهمك من اسم السلطان؟ السلطان الحقيقي هنا هو القائد سربلّوني، أما أنت أيها البنّاء فلا يهمك إلاّ عدد الحجارة اللازمة لإتمام السور، ومع ذلك أفيدك أيها الفضولي بأن أحمد سلطان الذي جاء به دون خوان معنا رفض شروط الملك فيليب لما اطلع عليها في حلق الوادي.

ـ وما معنى أن يرفض هذا النّذل أوامر الملك؟

ـ أرأيت نكران جميل كهذا؟

ـ الم يكن مجيئنا معه حسب اتفاق مسبق؟

ـ بلى.. كان هناك اتفاق قبل خروج الحملة، ولكن الرجل يدعي الآن، بعد أن جئنا لمساعدته وتكبّدنا الخسائر، أن اقتسام الحكم مع القائد سر بلوني لم يرد في الاتفاق ولم يسمع به.

ـ كيف يحدث هذا.. هل في الاتفاقيات بنود ظاهرة وأخرى خفية؟

ـ الأقرب عندي أن السلطان لم يأت معه بمترجم جيّد.

قهقه ناظر العمّال بأعلى صوته، وأتبع ضحكته بفرقعة السوط لتنشيط العمال وإيقاظهم من غفوة قد تداهمهم وتبطئ سير العمل. شاطره بدرو الضحك وفي قلبه حسرة على الممالك يضعف حكامها فتتلاعب بهم الدسائس وينفرد بهم الأقوياء، يمضون عليهم أوامرهم ونواهيهم وهم أذلّة صاغرون. عاد يسأل الناظر متصنّعا الجهل بالسياسة:

ـ كيف العمل في رأيك... هل نعود من حيث أتينا دون

غنائم، أم سيطلب منه القائد تعويضا عن المصاريف والأجور التي دفعتها دولتنا؟

ـ يالك من أحمق ! وإلى أين نعود؟ نحن هنا وسنبقى... شاء السلطان اقتسام المملكة معنا أم لم يشأ. نحن الأقوى وعليه قبول أحكامنا.

ـ وإذا استنجد بغيرنا، ماذا يحصل؟

ـ لا أحد ينجده غيرنا... لا تنس أنه جاء الى إسبانيا متملقا فيليب باذلا كل الوعود، فماباله اليوم يتملص ويتقلب؟ عليه قبول شروطنا أو ترك السلطنة لآخر من أفراد أسرته، وليذهب الى حيث يكمل حياته في هدوء وسلام.

وهذا ما حصل بالفعل، فقد أخذ دون خوان عند رحيله عن تونس نفس الرجل الذي استنجد به، وهو أحمد سلطان الذي لم يرض بتقاسم الحكم، فما كان من الاسبان إلا أن نصبّوا أخاه محمد حاكما جديدا على البلاد... احتلوا بإذنه أرباض تونس، وسكنوا ديارها ناهبين فاتكين بكل من اعترض سبيلهم، وصار السلطان يجلس في سقيفة القصبة للحكم جنبا الي جنب مع قبطان الإسبان، بعد أن بعث للناس فأمنهم وأمرهم بالرجوع الي البلد، فمن رجع ووجد داره سالمة أخذها، ومن وجد داره بيد النصارى أو كل أمره الى الله وعاد للتشرد في البادية.

رغم استغراق بدرو في العمل فإنه اغتنم أوقات راحته ليتجول في الأسواق بعد ما عمرت ثانية بالسكان وأحكم جيش الاسبان قبضته عليها، لكن التحذير الصارم كان يؤكد على جميع العساكر التوقف عند باب بنات وعدم اجتيازه الى منطقة باب سويقة، لأن أهاليها ثاروا واقتتلوا مع الاسبان من أجل خصومة تافهة بين جندي وأحد سكان الربض.

سكن مع كتيبته دارا واسعة في الدبدابة، ومنها يتسلل أحيانا الى مشارف الحفصية وما والاها من الأزقة، متسلحا بالشجاعة والإقدام مادامت عيناه ترى دوريات الحراسة قريبا منه، لكن اذا لم يعد يرى غير السكان استوحش وعاد أدراجه مخافة أن يجلب الشكوك، أو يكون ضحية عملية انتقامية. ومع ذلك كان يختلط بسكان المدينة عند قضاء بعض الشؤون لنفسه أو للكتيبة، ويحادثهم فيشعر بطيبة أخلاقهم وحسن معاملتهم، ولكنه يفعل هذا وهو في صحبة زملائه وكانوا لا يتنقلون فرادى، ولا يتخلّون عن سلاحهم، خاصة وقد حدثت عمليات قتل وانتقام كثيرة في الأحياء الشرقيّة.

احتار بدرو كيف يوفّق بين واجب الاحتراس، وبين رغبته في التجوّل حرّا دون رقيب بين الأحياء الشرقية، وفيها يسكن أهل الأندلس، والى معرفة أحوالهم تهفو نفسه؟ كل ما يعرفه عن الحي أنه واقع خلف باب سويقة، وان المرور إليه لا يتمّ إلا عن طريق باب بنات أو باب قرطاجنّة، بعد التواءات وأزقة متتالية لا يعرف مجاهلها إلا السكان الأصليون.

ورأى أن العمل يأخذ أكثر وقته ويحصره في دائرة باب البحر حيث يكثر العساكر ويقل سكان المدينة، فخطر له أن يفتعل حادث سقوط من مكان قليل الارتفاع بحيث لا يحدث له ضرر بالغ، وقد نفذ ما خطط فانكسرت ذراعه وأخذ من فوره للعلاج وهو يصيح من الألم، وبعد أن صبر على توبيخ رؤسائه لقلة انتباهه، جبر كسره، ثم علقت الذراع الى عنقه وأصبح عاطلا، عن العمل. وكمن أراد التكفير والاعتذار تطوّع بسياقة عربات الشحن والكراريط الذاهبة يوميا لشراء الجير والرمل من تجار راس الدرب، ونقل الحجارة من مقطع جبل الجلود. وكانت هذه فرصته ليتعرف على الناس من قرب، وهذا أمر غير يسير لكثرة الرقباء من جند الاسبان، ولنفور الناس من التعامل معهم إلا بدافع الحاجة الى تحريك تجارتهم بعد أزمة الحرب وما تبعها من سوء الحال.

تحت سماء ملبّدة بغيوم الخريف دعا الجنرال سربلوتي الضبّاط وفرقهم، ليحضروا افتتاح الأشغال في حصن البستيون وهو مشروع خطط له الاسبان منذ قدموا، وباركه دون خوان قبل سفره. وُضعت منصة للصلاة وسط ميدان فسيح أحاط به الجند من كل الجهات، واختطّ المهندسون بالمحراث أخاديد الأسس، بين تهليل القساوسة وأدعيتهم من كل الجهات وترديد الحاضرين، ثم طاف كبار الضباط وهم خاشعون مبتهلون بكل الأركان، وأنهوا

الموكب في مبنى الكنيسة المؤقت حيث بكى أكثرهم طالبا من الله أن لا ينال حصنهم هذا ما نال حصن جربة على يد الأتراك. ثم انطلقت المدافع من القصبة ومن أماكن عديدة حول المدينة في ضجة واحدة روّعت السكان، ولكن أبهجت العساكر وأثارت حماسهم، فتبادلوا الصراخ من فرقة الى أخرى وكأنما هذه المدافع، وهو تواصل ضرباتها، تقول لهم: أقدموا وتشجعوا ولا تخافوا... ها أنا معكم أحرسكم وأحمي ظهوركم.

وبدأ ضرب المعاول بعد الحفل مباشرة، وتواصل رفع الأسوار وبناء الأبراج يؤديه آلاف الجنود متداولين عليه الفرقة تلو الأخرى بالاضافة الى عملة من بين الأهالي دفعت لهم أجور يومية، وتم هذا تحت إشراف كتيبة الحرفيين والصنايعية رفاق بدرو وعددهم ثلاثمائة وخمسون جنديا بين نجّار وحدّاد وبنّاء وغيرهم.

ونصبت الحراسة على مكان العمل فلا يدخله أحد إلا تحت أنظار الرقابة، كما منع على الجنود التعامل مع السكان منعا للتصادم والمعارك. بقي أمر التزويد بمواد البناء فإنه يتم حسب إجراءات مقننة بواسطة قوافل العربات تروح وتجيء تحت الحراسة الى مقاولي التزويد، فيؤخذ منهم الرمل والحجارة والجير يوميا على شرط أن تكون أماكنهم معروفة وآمنة.

من بين محلات التزويد منشر فسيح بجهة رأس الدرب، يبيع صاحبه أحمد الجيّار مواد البناء المستجلبة من الجيّارات ومقاطع الحجر إلى سكّان الحيّ في العادة، لكن منذ بدأ بناء البستيون كادت مبيعاته تقتصر على الجيش يبعث له بالعربات كل صباح فتفرغ المحل مما فيه، ويقبض الرجل الثمن.

وصل بدرو ومعه قافلة عربات تجرها البغال الى حيث أكوام الحصى في ناحية وأكوام الجير الأبيض في ناحية أخرى، وجاء صاحب المنشر ليسأل الجماعة عن طلبتهم كعادته كل يوم، فأخذه بدرو الى ناحية وأسرّ إليه هامسا وهو يناوله كيسا في خفية من رفاقه :

ـ خذ هذا الكيس من السكر هدية بمناسبة العيد.

نظر الرجل مندهشا لا يدري ماذا يصنع، أيأخذ هدية العدوّ أم يردّها؟ لكن بدرو ابتسم له مشجعا وقال :

ـ لا تفضحني أمام الآخرين. . أليس عيدكم بعد أيام وليس في البلد سكر؟

ابتسم الرجل بدوره، وأخفى الكيس في كوخه بسرعة، وعاد يسأل عن السلعة المطلوبة. وفيما كان العمال يشحنون البضاعة والجنود يراقبونهم، جلس بدرو بجانب صاحب المحلّ وقد اكتسب ثقته عازما أن يجاذبه الحديث لاستقاء معلومات عن الحيّ الأندلسي. وقد حانت الفرصة عندما سأله الرجل عن سبب انكسار يده فأجاب :

ـ سقطت من لوح معلّق وأنا أبني السور.

ـ أنت بنّاء إذن. . . صحيح، هذه آثار الجير بيدك الأخرى، ما أشد بلاهتي، لم أكتشف هذا من الأول. إننا هنا نحترم الصنّاع المهرة، وقد أتانا منهم كثيرون أيام هاجر الأندلس من بلادكم.

ـ تقصد عند ماطردناهم، ولم نستطع تعويضهم الى اليوم.

نظر الرجل الأشيب الى الجندي بحذر، ولم يعلق على كلامه، مخافة أن يكون الجندي يستدرجه ليوقعه في فخ ذم النصارى والاسبان، ولكن الفتى واصل كلامه بلهجة صادقة صريحة :

ـ ما أقوله صحيح، فبلادنا خسرت كثيرا عندما أطردت المتعلمين والصنّاع المهرة، والحال أنهم أبناء البلد لا فرق بينهم وبين مواطنيهم الآخرين الا كونهم مسلمين، وقد صارهذا في أيامنا عيبا كبيرا وذنبا لا يغتفر.

ـ على كل حال فأنتم لم تخسروا شيئا. . . أخرجتموهم من هناك الى هنا، ثم لحقتم بهم، فاجتمع الشمل عندنا. انظر الى هناك. . الى باب كبير قدمت منه وستعود منه، إنه باب سيدي قاسم الجليزي ابن بلدكم الذي أدخل صناعة الجليز وطوّرها في بلادنا، وتلك داره ومقبرته، فإذا مررت وأنت عائد فادع له بالرحمة.

ثم توقف الرجل فجأة وضحك بملء فيه كأنما يهزأ من مقولته:

ـ قلت لك ادع له بالرحمة. . . فكيف ستصله دعوتك وأنت نصراني؟

نظر بدرو في وجهه بكامل الجدية والوقار وقال بصوت خفيض:

ـ لا تضحك أيها الشيخ. . . لست نصرانيا. . . أنا مسلم!

وكأنما لدغت الرجل عقرب، إذ هبّ واقفا بعصبية وتوجّه نحو العربات يتفقد حمولتها، محاولا أن لا يبقى مع بدرو على

انفراد، وأن ينهي الحديث معه عند هذا الحدّ.

تمت المعاملة ودُفع للرجل ثمن بضاعته، فأمسك بدرو مقود أول البغال وغادر المكان مطأطئ الرأس حزينا، بينما وقف صاحب المحلّ يخالس النظر اليه مشوّش الفكر، لا يكاد يعي ما سمعه منذ حين، وقد لازمته تلك الحال بقية يومه وكامل الليل. أسئلة كثيرة تواردت على ذهنه ولم يجد لها جوابا : ماذا يفعل مسلم في جيش النصارى؟ أهذه حقيقة أم أكذوبة يستدرجه بها ليتجسّس بواسطته على أحوال الناس؟ هذا الرجل مدسوس حقيقة، أم أن له حكاية غريبة لم يدركها؟ بات ليلته مهموما لا يكلم أحدا من أهله، وبان عليه التوتر وضيق البال طول الوقت. وعزم في نهاية الأمر أن يتجرأ و يسأل الشاب توضيح ما قاله في الأمس.

لكن ها أن قافلة البغال والعربات تأتي في صباح اليوم الموالي وليس فيها بدرو، مما ترك التاجر مندهشا لا يجد تفسيرا لغيابه، فهل سيتركه في حيرته ويختفي؟ لماذا اعترف له اذا لم تكن له مقاصد واضحة من الاعتراف؟.. وهل أظهر له حقيقة أمره دون غرض مبيّت؟... هذا غريب ولا يقبله عقل... إن ما قاله الشاب هو مقدّمة لأشياء أخرى يريد البوح له بها، فلما قابله بالانفعال والنفور انغلق وكتم أمره، ثم هاهو قد غاب تماما وربما لن يعود. وبدأ الرجل يلوم نفسه ويعذبها من أجل تعجّله مع أنه رصين متأنّ في غالب أحواله.

سأل الجند والحمّالين عن الشاب المكسور الذراع، فقالوا أنّ الكسور تؤلمه، وقد بقي في الفراش، وربما يؤخذ الى المستشفى.

ازداد عذاب الضمير بالرجل، وتأمّل سحنات الجنود فاختار منهم واحدا تظهر عليه الطيبة أكثر من الباقين، ليطلب منه إبلاغ بدرو أنه عثر على تصميمات فريدة من الزليج يريد عرضها عليه، لأنه أوصاه بالبحث عن نماذج من ذلك النوع المصنوع في تونس ليقلدها بعد عودته الى بلاده.

ـ أرجوك سنيور... قل له إن صاحبها صديق لي ولن يطلب ثمنا مرتفعا. سأنتظره غدا والا فاتت الفرصة.

وعده الجندي بإبلاغ الرسالة، وبقي التاجر في حيرته ليلة أخرى، مفكرا فيما عسى أن يقوله للجندي إذا وصلته الرسالة وعاد لمقابلته.

أما بدرو فقد انكسرت نفسه من موقف الرجل وصدّه له عندما فاتحه بالحقيقة. كان ينتظر الدهشة والاستغراب فإذا به يجد النفور والشكوك، وكأنما أهان الرجل أو حطّ من قدره. صحيح أن العلاقة بين النصارى وأهل البلد مشحونة بالعداء والتوجّس، ولكن الحدس دفعه الى الثقة بهذا الكهل الطيب، فلماذا لم ينتظر الى أن ينهي حديثه ويشرح له أسباب تنكّره في زيّ الجنود الإسبان؟ ولكن اذا تبصّر في الأمر فهو غير متنكّر، بل إنه واحد من رعايا ملك اسبانيا أرسله ضمن حملة تخدم مصلحة بلده، ولا فرق بينه وبين سائر الجند إلا أنه مسلم وهم نصارى، بل لعل فيهم مسلمين مدجّنين ويهوداً متستّرين، فترك كل فرد إيمانه خبيئا في صدره، وليس للدولة أن تطالبه إلا بما يلزم من طاعة وانصياع لأحكامها وأوامرها، وحسبها هذا.

ولما جاءه صاحبه بما أوصاه به بائع الجير نشط بدرو وعادت إليه الابتسامة، حتى ظهر لصاحبه أن الفتى بعثوره على تصميمات الجليز الأثرية قد عثر على كنوز سليمان، فضحك منه ساخرا :

ـ أصحابك يسلبون المسلمين أموالهم وأن تشتري منهم قطع الجليز المكسّر... هذا هو الجنون بعينه!

جاء الشيخ أحمد في قيافة متسوّل فجلس مجلسا تعوّد عليه قرب حفرة منزوية. أجال عينيه يمنة ويسرة منتظرا خلوّ الطريق من المارّة، ثم مدّ يده ينبش التراب ويفحص ما تحته، فإذا حبات الحمص التي وضعها لم تنتقل من مكانها. وعاد يوم الجمعة الموالي والذي بعده، وقام بالحركات نفسها، فوجد حبات الحمص توشك أن تنبت، فغطاها بالتراب وقام عائدا والهواجس تتقاذفه، تارة الى اليأس وتارة الى الأمل. فإن كان بدر الدين في المدينة فما منعه من زيارة المكان واعطاء الإشارة حسب الاتفاق. وإن كان خارج المدينة فأين عساه يكون؟ الاحتمال الأول أن يكون قد ذهب مع فريق العمل الى مكان بعيد، والاحتمال الثاني أن يكون قد نجح في الانضمام الى جنود الحملة التي يعدّها دون خوان هذه الأيام وتهتم بها كل دواليب الدولة. وتساءل في سرّه وهو لا يتمالك من الفرح والابتهاج : «إنه فتى عبقري ولا أشك أنه وجد فرصة ملائمة للانضمام الى الجيش إذا أجاد التستّر والتخفّي، ولم

يترك رجال السلطة أو القساوسة يعرفون أصله وفصله، هذا هو الشرط الأساسي، فهل تراه نجح في مسعاه؟ أتراه نفّذ توصياتي، وجميع ما اتفقنا عليه؟ انها فرصته الأخيرة للوصول الى أهله، ولم يعد في الجراب حيلة غيرها».

وعاد قلب الشيخ الحجري الى الانقباض بعد فورة السرور، فربما انكشف بدر الدين واطلع مفتشو الكنيسة المندسّون في كل خلايا المجتمع على أصله ومعتقده، وفي هذه الحال لا مفر له من السجن وربما الحرق، وبهذا تفشل خطتهما المشتركة على أساس أن ينفّذ كل واحد منهما الجزء الخاص به على حدة، ثم الالتقاء في النهاية مع باقي الأسرة في بلاد الهجرة إن كتبت لهما النجاة. وعندما وصل به التفكير الى هذا الحدّ غمر قلبه الحزن، فاستعاذ بالله من وساوس الشيطان، ودفع باب بيته وهو يتمتم بالأدعية والذكر، ثم قضى ليلته في الصلاة والتهجّد الى طلوع الفجر.

شاهد روّاد المكتبة الكبرى في صباح اليوم الموالي الشيخ الحجري بيجارانو صحبة الشيخ ابن العاصي حفيد الشيخ الجبّاس، وكانا قد تعلما الترجمة على يديه، وتزاملا مدّة الى أن توطدت بينهما الصداقة وروابط الأخوّة. جلسا على كرسي حجري في حديقة المكتبة يتحادثان، وكلما مرّ بهما أحد القساوسة وقفا لتحيته رافعين قبّعتيهما، لأنه صار لزاما على أهل الأندلس اتباع أسلوب قدماء النصارى من أهل البلد في الأكل واللبس وسائر العادات، وطرح ما سلك عليه أهلهم الاقدمون، وقد صدرت الأوامر بالتضييق على كل مخالف الى حدّ التجريم والعقاب وربما القتل لذا لم يعد من المستنكر أن يأتي الشيخان بمثل ذلك السلوك وهما

على قدر كبير من العلم والتفقه في الدين، بل انهما كثيرا ما نصحا شبانا من معارفهما بالتقية وإخفاء ما يجلب لهم المضرة والعقاب، وليس أدل على ذلك مما أوصى به الشيخ الحجري ابن أخيه ليلة افتراقهما، إذ أكد عليه مرارا وتكرارا بأن النصارى لن يأمنوا جانبه ويقبلوا اقترابه منهم إلا بأمرين، إظهار العداوة القصوى والحقد الأسود نحو المسلمين، وبذل الروح والمال خدمة للكنيسة والرهابنة.

سأل ابن العاصي رفيقه عن صحته وهو يلاحظ ذبول سحنته واحمرار عينيه، فأجابه مخففا عن كرب يثقل نفسه :

ـ لم أنم ليلي بطوله. . أصابني قلق وسهاد لهواجس تسلطت على الفكر والقلب، وما أمكنني طردها الى ان بان ضوء النهار.

ـ وما يزعجك بصفة خاصة يا بيجارانو؟

ـ أمرك عجيب يا رجل! سؤالك في محله. . . ماذا الذي يزعجني بصفة خاصة بعد أن صار الانزعاج حالة دائمة. ننام بها ونصحو عليها؟

ـ لا تغضب مني، فهذا هو قصدي. اننا نسمع ونرى كل يوم من العجائب والمنغصات ما يدمى له الفؤاد، فما الحيلة في ذلك غير الصبر والسلوان.

ـ هل علمت بآخر ما حدث لأهل أندراش وبلفيق؟

خفض ابن العاصي صوته وأجاب صاحبه مقتربا من أذنه :

ـ وماذا كنت تتصوّر أن يحدث غير القتل والتنكيل؟ لقد فرّ الى هناك كل من امتنع عن التنصّر، واعتزلوا بقية الناس عازمين الدفاع عن دينهم وأنفسهم، وكانوا لا يقلّون عن خمسة آلاف نفر.

ـ سمعت ان الملك أرسل لإخضاعهم أخاه الطاغية المتهوّر دون خوان فماذا كانت النتيجة؟ لقد أكثرت المكوث في البيت هذه الأيام فلم أعلم بنتيجة الحملة.

ـ استأصلوهم قتلا وسبيا إلا من نجا بنفسه الى جبل الثلج، أو الذين وجدوا طريقا آمنا الى الشاطئ فركبوا البحر من المنكّب أو شلوبينية نحو فاس.

ـ وماذا فعلوا بالأسرى؟

ـ حُذف العمل بالأسر والفدية ونظام الذّمة كما في السابق. صدر الأمر بأن يقولوا للرجل المسلم : إنّ جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا كما كان جدّك، وإلاّ حوكمت بالعصيان ووجب قتلك.

أطرق بيجارانو وتاه بأفكاره بعيدا عن الحديقة والمكتبة والشيخ ابن العاصي. ذهب فكره خلف بدر الدين وما عسى أن يكون حاله، خاصة وقد تأكد من غيابه عن المدينة. وألحّت عليه أسئلة الأمس من جديد : هل نجح في الانضمام الى العسكر؟ وإذا قبلوه فهل خرج مع دون خوان لقتال أهل أندراش عوض الذهاب الى افريقية. . . هل انقلبت الخطط فذهب يقاتل اخوانه هنا. . . عوض الأتراك هناك؟ أسئلة كثيرة لم يجد لها جوابا شافيا، فاستأذن من صاحبه وعاد الى البيت للانطواء على أحزانه.

دخل بدرو على رأس قافلة البغال والعربات، وأحاسيس كثيرة تحتدم بداخله، فهل هي اللهفة الى لقاء التاجر الذي بعث يدعوه؟ أم هو الفضول الى معرفة ردود فعله الجديدة؟ وهل هو الخوف أن يكون الرجل واشيا فيرفع أمره الى القبطان ويُشنق؟ أو أن يكون جبانا فيصدّه ويتبرأ ممّا سمعه منه؟.

لم يخالف ما تعوّده في جيئاته السابقة، دخل يقود دابته، وطاف في نصف دائرة ليترك مكانا لمن يليه، ثم انشغل يربط البغل ويقدّم له مخلاة الشعير، فعل ذلك دون أن يلتفت الى ما حوله، وإذا بيد تلامس كتفه برفق وإذا صوت التاجر يحييه ويسأله عن حال يده المكسورة. التفت بدرو الى الرجل وسأله معاتبا :

ـ وماذا يهمك من أمر يدي؟

ابتسم التاجر ملطفا من غضب مخاطبه، معتذرا بوقع المفاجأة غير المنتظرة. سأله بدرو بعد أن ذهب عنه العبوس وفهم حقيقة ما أحدثته مفاجأته :

ـ وما حكاية تصاميم الجليز التي تريد إطلاعي عليها؟. أنا مشتاق لرؤيتها ولهذا جئت.

ـ أتعني أن ملاقاتي لم تعد تهمّك كثيرا؟

ـ إذا فكّرت جيدا فيما صنعته معي ستعذرني.

ـ هيّا نتسامح وإلا جلبنا انتباه بقية الجند بحديثنا المطوّل. عليك أن تسألني بعد قليل عن قطع الجليز التي وعدتك بها، وترفع صوتك بالسؤال ليسمعك الجميع، وبعد أن أجيبك اتبعني الى مكان آمن يمكننا التحدث فيه بعيدا عن العيون.

ـ وأين المكان؟ يجب أن لا أبتعد كثيرا عن القافلة، وأن لا يعود العساكر بدوني.

ـ اطمئن! المكان قريب من هنا.. زاوية سيدي قاسم الجليزي، وفيها توجد نماذج الجليز. وهذا عذر كاف لتغطي به عيون رفاقك.

عاد الرجلان لتفقد الشحنات وتنشيط الحمّالين على رفع الحصى والجير في شواويل الحلفاء، وصبّها أكواما فوق العربات، حتى إذا كانت ساعة الضحى والشغل في أنشط حال، نادى بدرو بأعلى صوته :

ـ اسمع أنت أيها الرجل!.. أما زلت على وعدك ببيعي تصاميم الجليز التي تقول أنها فريدة ولا يوجد مثلها في الكون؟

ـ سي سنيور بدرو.. لو نقضت وعدي لما بعثت لك.

ـ فما بالك إذن تتلكأ ولا تخرجها لأراها؟

ـ هي محفوظة في مكان آمن حتى لا تُسرق، فثمنها مرتفع... لذا أرجوك قبول اعتذاري سنيور.

ـ لن أتركك تنهب مالي قبل أن أراها وأقتنع بجودتها.

ـ تعال معي لتراها... ولن تدفع شيئا إلا بعد أن تقتنع بقيمتها.

ـ أنبهك ثانية الى أنني خبير في مواد البناء، والى أنني أقتلك إذا حاولت أن تسرقني. انظر إني مسلّح.

ابتسم التاجر حاملا كلام بدرو على أنه من باب الفكاهة وقال:

ـ هل نحن نتاجر أم نقتتل؟

وفيما كانا خارجين من ساحة الرمل والجير نادى أحد الجنود بدرو لينصحه :

ـ احترس جيدا يا بدرو فأنت وسط قوم لا يؤمن جانبهم.

طمأنه بدرو بإشارة من يده الممسكة بالسلاح وخرج الى الطريق مع التاجر.

دخلا مقام الوليّ الصالح فطافا بأرجائه ليتأكدا من انفرادهما بالمكان، ثم جلسا قرب الضريح. بادر التاجر بالكلام :

ـ أقسم بالإنجيل والسانتا ماريا أنك لا تستدرجني وتنوي خداعي.

ـ كيف تطلب مني ذلك وقد أعلمتك أنني مسلم واسمي بدر الدين؟

ـ أقسم بالإنجيل أولا، ثم احلف بالقرآن فإذا لم ينفع معك هذا نفع ذاك.

ضحك بدرو وطمأن صاحبه بأن أقسم بالأنجيل والقرآن، معا، ثم ثنّى بإطلاق الشهادتين، في حين وقف التاجر الأشيب فاغر الفم لا يكاد يصدّق أذنيه. قال بدرو بلهجة جادّة :

ـ لنبدأ الحديث الذي جئنا من أجله، فصدري ضاق بما أحمل ولا بد أن تسمعني وتعينني إن كنت مسلما بحق.

ـ أنا سامع يا ابني، تكلم واطلب مني ما تريد.

ـ أعرف أن اسمك أحمد وهذا اسم عمّي أيضا، بينما يدعى والدي محمد الحجري، أما اسمي الحقيقي فهو بدر الدين.

ـ أكاد أحسب نفسي في منام!

ـ لا تعجب أيها الرجل الطيب.. فما حدث ويحدث في الأندلس يفوق الخيال، فكيف لم تعلم بشيء من ذلك؟ إنك لو تتبّعت التفاصيل واستمعت الى روايات المهاجرين لما عدت تندهش.

ـ فعلا... سمعت أشياء غريبة، ولكن ما عانيناه من جنودكم ومن ظلم سلاطيننا واقتتالهم فيما بينهم، شغل بعضنا عن الاهتمام بما يحيق بالبعض الآخر، لكأننا مشرفون على قيام الساعة.

ـ سوف لن أشغلك بقصتي، وإنما أطلب منك أن تيسّر لي

الاتصال بمهاجري بلدنا الذين وصلوا في الفترات الأخيرة، عساني أعرف مصير أهلي، فقد احتجز الإسبان الصبيان والبنات عند طرد أهاليهم، وكنت من بين هؤلاء.

ـ فكيف تدبّرت أمرك إذن؟ كيف عشت الى اليوم؟

ـ حكاية تطول... إنما لطف الله بي، فالطرد شمل أبي وأمي وزوجة عمي أحمد وكانت حاملا، أما عمّي ذاته فكان غائبا تلك الأيام في طليطلة، يتابع دراساته وبحوثه ولعل هذا ما شفع له بالبقاء الى اليوم، إذ صارت له براءة رسمية للترجمة، جعلت القساوسة ونواب الملك في حاجة الى خدماته. وهو الذي رعاني ووجهني ودلني على خطة أتستر بها وأتكيف مع الحال السائد، أتفانى في طاعة الحاكم وخدمة الكنيسة والقساوسة لأستطيع الإفلات من الحصار والانطلاق باحثا عن أهالينا. وهو من جهته سيدبّر خطة خاصة للفرار حين تحين له فرصة مناسبة، ولعلنا سنلتقي إن شاء الله لنا ذلك قريبا.

ـ وكيف عرفت أن أهلك وصلوا الى تونس ولم ينزلوا في غيرها من بلاد المغرب.. أو أنهم لم يقعوا في أيدي القراصنة...؟ لقد حدثت لمهاجريكم مصائب كثيرة.

ـ بلغتني أخبار من هذا... منذ سبعة عشر عاما وأذناي تلتقطان كل صغيرة وكبيرة. وكان الأسرى الأسبان المفكوكون مصدرا هاما لهذه الأخبار، كما أن تجّار الفرنجة والمراكبية سرّبوا نبذا عرفت منها أن جماعتنا وصلوا الى تونس بأمان... فهل تدلّني على من يؤكد لي ذلك؟ فلا يمكنني تصديق ما سمعت إلا

إذا وصلت الى مصدر الخبر، أو شاهدت أهلي بعيني.

ـ كل ما أستطيع إفادتك به يا ابني هو أن زاوية سيدي القشّاش هي محطة النازحين من الأندلس، بها يبيتون لياليهم الأولى ويستريحون من عناء السفر ومصائبه، ثم يتوجهون الى أماكن أخرى يعينها لهم السلطان أو من ينوبه.

أمسك بدر الدين بيدي التاجر وفي عينيه رجاء واستعطاف، ولم يترك فرصة استغلال هذه المعلومة تفوته فقال :

ـ أيها الرجل الكريم أوصلني الى تلك الزاوية. دعني أقابل القائمين عليها، دلّني بسرعة أرجوك!

ـ مهلا يا فتى ! كيف تذهب إليهم بهذا الزيّ وهذا السلاح؟ فإما أن يهربوا عند رؤيتك وإما أن يفتكوا بك... لا بدّ من تدبّر الأمر وإعداد العدّة له بإحكام. ثم إنك لن تسلم من عقاب ضبّاطك إن علموا بزيارتك للأعداء.

ـ فما الحلّ إذن؟ إن الوقت يمضي.

ـ دع الامر لي وسأعلمك بما خططته.

وعادا من حيث جاءا ليجدا قافلة البغال جاهزة للانطلاق.

زاوية القشاش التي تحدث عنها التاجر توجد في صميم المدينة قرب سوق البلاط، وقد اشتهرت بدورها في مساعدة الضعفاء وكل من استجار بها أو لجأ إليها من أبناء السبيل. والقائم المنظم لتلك الأحوال شيخ صالح يدعى أبو الغيث القشاش يقضي حياته

في الزاوية وله جاه وشفاعة عند السلطان، فإذا ما جاء فوج جديد من مهاجري الأندلس اقتبله وسجل عدد أنفاره وجملة ممتلكاتهم، وطلب من الحكام إنزالهم في مناطق تصلح لعيشهم، وقد بذل في ذلك جهودا يشهد بها عامة الناس وخاصتهم، لذا كان اسم الزاوية وشيخها أول ماورد على ذهن التاجر وهو يحدث بدر الدين، لكنه قرر أن لا يجازف باصطحاب الشاب دون استئذان الشيخ وتمهيد الأمر بروية وحسن تدبير، ولذا تعمد إغلاق محله في وقت مبكّر، وذهب إثر صلاة العصر مباشرة يشق الأسواق قبل أن تغلق أبوابها عند مناداة العسكر، وفي نيته أن لا يعود من قصده إلا بعد مقابلة الشيخ، حتى ولو دعا الأمر الى قضاء الليلة عنده.

لقي منذ باب الزاوية زحاما شديدا، فبعض الناس خارج منها وقد قضى حاجته، ونال من الصدقات والعطايا ما جعله يضم يديه على لفائف، أو يرفع على ظهره كيسا، وفي وجهه سمات فرح وانفراج، وآخرون قدموا مثله أو سبقوه ومازالوا واقفين يأملون الحصول على وساطة أو صدقة مما توزعه الزاوية كل يوم.

دخل أحمد الجيّار الزاوية وهو يدير ناظريه في الحركة الدائبة والخلائق المختلفة السحن والهيآت، إلى أن اعترضه حاجب على صفة من يقفون بأبواب الدواوين وسأله بلطف عن حاجته، فطلب مقابلة الشيخ أبي الغيث.

ـ إنه في حال غياب هذه الأيام. أغلق باب خلويّته للعبادة، ولن يظهر إلا عند ما تخطر له الرغبة في الظهور.

قال الحاجب ذلك، ثم لما بانت خيبة الأمل على سحنة أحمد أضاف :

ـ لكن حاجتك تقضى بحول الله على يد وكيل الزاوية سي نصر الدهماني إن كانت يسيرة.

ـ دلّني عليه جازاك الله خيرا.

ـ بعد أن تجتاز الصحن كله تجد رواقا قبالتك، فادخله تجد درجات قليلة عليك صعودها، وهناك تجد البواب وسيدلك على مجلسه.

سار أحمد يقطع صحن الزاوية العريض بخطى واسعة وقد قوي لديه أمل الحصول على نتيجة تفرح قلب بدر الدين. نظر وكيل الزاوية بعينين براقتين الى أحمد الجيّار وسأله بصرامة :

ـ مابك يا رجل؟ هل لديك شكوى من أحد؟ ألم يقضوا حاجتك في الزاوية؟ ألم يسألك أحد عن طلبك؟

تكلم بسرعة فلم يجد أحمد فرصة للرد، وبقي صامتا يتلفت حوله ويتفقد المكان. أعاد الوكيل سؤاله :

ـ قل ما حاجتك يا رجل؟

لم يعد للتاجر حلّ آخر غير الإفصاح عما جاء من أجله، لكن وجود كاتب في أحد أطراف الغرفة جعله يتردد، حتى وإن كان الرجل مستغرقا يدقق فيما بين يديه من أوراق ودفاتر. لذا غامر بطلب أمر قد يقبله منه الوكيل وقد يرفضه، ولكن لا مناص منه :

- أرجو من سيدي الإذن لي بمحادثته على انفراد.

تعجب الوكيل من هذا الطلب، لأنه لم يشك لحظة في تفاهة ما جاء الرجل من أجله ،فالزوار في الغالب طلاب صدقات أو رفع مظالم، أو ممّن تقطعت بهم السبل في هذا الزمن المليء بالحروب والأوبئة والفتن. نعم... توجد قضايا كبيرة تتعلق بفك الأسرى، أو المصالحة بين القبائل أو الطوائف التي بدأت تتداخل وتتساكن مع أهالي البلد، وهناك قضايا أخرى تتعلق بالعلاقات الدولية أو الوساطة لدى السلطان وكبار رجاله... لكن هذه أعمال ومهمات لا يقدر عليها سوى شيخ الزاوية ولا يتجرأ عليها الوكيل.

لما رأى أحمد الجيار نظرة التعجب في عيني الوكيل أسرع الى القول :

- حديثي إليك أمانة لابد من تبليغها الى من له النظر، وكان في عزمي مقابلة شيخنا وعمدتنا في وقت الشدة أبي الغيث، لكن قيل لي أنه غائب ولا يعرف وقت عودته، على أنّ المسألة تتطلب الاستعجال نظرا للأحداث الدائرة في البلد، والتي لا أحد يعرف متى تكون نهايتها، ولا كيف تكون.

- مهلا أيها الرجل !.. هل جئت تطلب معونة أم حلّ قضية سياسية؟

- لا هذا ولا ذاك، إنما هي مسألة إنسانية مما اعتاد الشيخ، عمدتنا وشفيعنا، حلّه والاعتناء، به أثابه الله.

- دعني أعرف أولا من أنت ومن أين أتيت؟

نظر أحمد الجيّار ناحية الكاتب، ففهم الوكيل قصده، وطلب من الموظف الذهاب الى المخازن لتفقّدها، ثم جلس وأجلس أحمد بجانبه طالبا منه ذكر حاجته بعجلة قبل عودة الكاتب.

تردّد بدرو في الأيام الموالية على متجر أحمد الجيار ضمن القافلة كالعادة، ويبقى ينتظر إيماءة أو إشارة من الرجل، فلا يبالي به، بل ينهمك في تفقد البضاعة ومراقبة العمال وهم يشحنون العربات طول الوقت، حتى إذا حان وقت رواحهم نظر ناحية الجندي وأشار بأصابعه المضمومة بما معناه صبرًا الى أجل قريب. ويعود الشاب يائسا أو كاليائس، فهو خائف أن تنتهي عمليات البناء أو تنقلب الأحوال مع سلطان الوقت، أو يغير قائدهم موقفه فيعيد توزيع القوى ويبعثه الى موضع آخر، فلا أحد يدري الى أين تسير الأمور، وعامل الوقت سيف مسلول يتحكم في الأحداث. وبعد أن قضى في الحيرة أياما ثلاثة، ناداه التاجر ذات صباح بصوت مسموع :

- هات النقود معك غدا، فنماذج الجليز التي اتفقنا عليها جاهزة، ويمكنك تسلمها إذا أردت.

تماسك بدرو لئلا يرقص من الفرح، ولكن قسماته المبتهجة وصوته المتهدج وشيا بمشاعره، وأجاب التاجر :

- أتسلمها؟.. بالطبع أتسلمها. ماطلبتها منك إلا لأني أريدها... غدا أسلمك النقود وآخذ النماذج والتصميمات. إياك أن تغشني أو تسرقني، أعرف أنك تاجر حاذق.

- حاذق نعم... لكن حاشا أن أغش أوأسرق.

وارتفع صوت رئيس القافلة وهو عملاق أقرع :

- خذ حذرك يا بدرو... إذا خدعك اخنقه. وان شئت أن أذهب معك للمساعدة فعلت.

قال بدرو مداعبا :

- ألا تظنني شجاعا بما يكفي لخنقه وخنق كل عائلته يا كارلوس؟

- أعرف... ولكن خذ معك سلاحك وكن حذرا، انهم خبثاء.

استمع أحمد الجيار الى هذا الحوار البذيء وهو يبتسم، ولكن لم يظهر أنه فهم مراميه، واستمر يؤدي عمله بصورة طبيعية الى أن غادرت القافلة المكان، فالتفت بدرو الى أحمد يودعه بعينين مليئتين شكرا وعرفانا.

يقع مقام سيدي قاسم الجليزي في جانب من الباب المعروف باسمه، وهو قريب من القصبة مقر الديوان السلطاني والقيادة

المشتركة بين بني حفص وجيش الإسبان الغزاة.

يبدأ الداخل الى المقام باجتياز صحن فسيح جنباته مغلفة بالجليز البديع، مما تفنن سيدي قاسم في صنعه أيام كان معمله والكوشة التابعة له ينتجان في اليوم الواحد مئات القطع، فيتخاطفها الأمراء وأصحاب القصور لتزدان بها أقبية البيوت والمقاصر والمخادع، حتى انتشر استعماله في بيوت الأسر الكبيرة بحاضرة تونس والمدن الهامة.

يلي الصحن باب محاط بإطار رخامي نحتت أعلاه طغراء جميلة مكوّنة من أغصان وأزهار متعانقة، وعلى الجانبين نحت بارز لهلال عن يمين وهلال عن شمال. ويواجه الداخل قبو تحيط به مقصورتان يتوسطه تابوت خشبي تظلّله ألوية ذات ألوان مختلفة، وبالأركان الأربعة شمعدانات لا تنطفئ شموعها بالليل أو بالنهار. الأرض مفروشة حول التابوت بزرابي زاهية الألوان، آهدتها لمقام الولي الصالح صبايا المدينة تقربا وتبركا، أو وفاء بنذر حتمته على نفسها عانس أو أرمل أو مريضة طال انتظارها للشفاء.

على يمين الداخل ويساره جناحان بنفس المساحة التي يشغلها التابوت، في جنباتها فُرُش وأرائك لاقتبال الزوّار والضيوف، ويطلب منهم وكيل الزاوية إذا امتلأ بهم المكان أن لا يطيلوا المقام، فما هي إلا لحظة حتى يبدأ بالترحم على صاحب المقام والدعاء له برضى المولى وحسن قبوله، ويختم بالدعاء للسلطان، وسائرالحضور يردفون أدعيته بآمين يارب العالمين، الى أن ينتهي

فيتلو الجميع الفاتحة، ويتقدمهم الوكيل ليفتح الباب، وفي يده مرش الزهر ينثر قطراته على أكف الزوار وصدورهم.

لكن الحاضرين في موكب هذا اليوم الخصوصي، لم يتبعوا التراتيب المعمول بها، لأن الوكيل، حسب ما أوصي به في اليوم السابق، بقي خلف البوابة الكبرى منذ أول الصباح، إلى أن جاءه فوج من الناس في أول الضحى قد غطوا رؤوسهم ببرانيس سابغة لا تبين من ملامحهم شيئا، ففتح لهم الباب ليدخلوا بدوابهم، وهذا غير مسموح به عادة، ثم أسرع فأغلق الباب، وأوصى الحارس أن يردّ الزوار بقية اليوم. ثم مرّ وقت قصير وصل بعده أحمد الجيّار ومعه جندي إسباني بكامل أسلحته، ولم يكن سوى بدرو بيجارانو. كان الوكيل في انتظارهما أيضا، فقادهما بسرعة إلى الغرفة الكبيرة التي يتوسطها التابوت ويجلس في الركن الأيسر منها جمع الرجال الوافدين منذ قليل.

تفرّس أحمد الجيّار في وجوه الرجال الجالسين وكانوا ثلاثة، فاهتدى بسرعة الى معرفة وكيل الزاوية القشاشية الذي اقتبله منذ أيام، وكان جالسا بين شيخين معمّمين عليهما هيبة ووقار. تقدم ليسلم فأوقفه الوكيل بحركة من يده، وطلب منه الإشارة على صاحبه بترك سلاحه قرب الباب. فهم بدرو المطلوب منه فتخلص من بندقيته والسيف والخنجر وكيس البارود وعاد يقف جنب الباب. فتح أحمد الجيّار فمه ليلقي سؤالا يراوده، فسبقه الوكيل

مشيرا بكفه اليمنى الى من بجانبه الأيمن وقال:

ـ الشيخ سليمان حمدون كبير الأندلس وشيخهم، مولود بحاضرة تونس. ولكن جده مهاجر من أيام سقوط غرناطة. قاوم النصارى مع مشيخة الغزاة، ولما ضاقت به الحيل وعز النصير هاجر الى تونس واستوطنها، واتبع أبناؤه سيرة أبيهم في الجهاد فطاردوا النصارى في البحر وغزوا جزرهم، وزاد أحفاده الى ذلك الإكثار من عمل البر ومساعدة إخوانهم اللاحقين بهم أو الذين أسروا وامتحنوا في دينهم وعرضهم ومالهم.

ثم أشار بكفه اليسرى الى الرجل الآخر وقال:

ـ هذا حفيد سيدي البكري كبير الأشراف، زاويتهم مشهورة وكلمتهم عند السلاطين مسموعة، وقد حضر الاثنان وأنا ثالثهم لنكون شهودا على ما يقوله صاحبك السبانيولي، فإذا لم نستوثق من دعواه، وحصل لنا شك في دسيسة يدسّها، أو خديعة تبلبل الأفكار، فهو منذ الساعة لن يستطيع الخروج من هنا، ويؤخذ أسيرا لدينا لا بد من محاكمته بأمر الشرع وكشف الأيدي التي حرصته وبعثته جاسوسا علينا.

ضم أحمد الجيار يديه إلى جنبيه، وطأطأ رأسه نحو الأرض وقد علت وجهه صفرة مفاجئة. أما بدرو فرفع يديه وفتح فمه ليتكلّم مدافعا عن نفسه، فأشار إليه وكيل الزاوية بحركة من يده ليصمت ويهدأ، وتابع كلامه:

ـ أما إذا استوثقنا من صحّة دعواه، وبانت لنا الحجة على ما يقول، فسنقف جميعا الى جانبه، ونساعده في العثور على والديه

وأهله، وتأمين سلامته وحريته حتى ولو طلب منا الأمر عصيان السلطان أو الوقوف في وجه جيش السبنيول العاتي. لدينا إذن بذلك من شيخنا وبركتنا أبي الغيث، أغاثه الله وأصلح به حال المسلمين.

التفت الوكيل ذات اليمين وذات الشمال، كأنما ليأخذ موافقة رفيقيه على ما قال فأشارا برأسيهما، ولم يكن في الحقيقة محتاجا الى ذلك، لأن ترتيب الجلسة تمّ بالتفاهم بين جميعهم قبل القدوم. صمت الوكيل قليلا ومشط لحيته، ثم طلب من أحمد الجيار أن يأخذ مكان الجندي قرب الباب، وأن يدعوه للتقدم الى وسط القاعة. سارع التاجر قبل أن يتحرك من مكانه ليحدد بعض الأمور:

ـ ياسادتي الكرام، يا أصحاب البركة، سوف يحدثكم هذا العسكريّ بنفسه ولكن بلهجة مكسّرة لأنه لا يقدر...

أوقفه الوكيل بإشارة من يده ونظرة حادة من عينيه، فتوقف ولم يتمم عبارته. ثم رفع يديه الى رأسه كالمعتذر وتقهقر ناحية الباب، فأخذ بدرو مكانه وهو في غاية التأثر من هيبة المجلس، ومن اهتمام الجماعة بقضيته، وهي لا تعدو في الحقيقة أن تكون قضية شخصية وعائلية، حتى وإن مثّلت جزءا من مأساة كبيرة. فتح الشاب فمه مرّة أو مرتين قبل أن ينطق بالكلمة الأولى، ولكنه ـ بعد أن انطلق يسرد مأساته الشخصية ومأساة تشريد عائلته، وقصصا مما شاهده وعايشه خلال المطاردات ومحاكم التفتيش ـ صار يتكلم بطلاقة، وعثر بيسر على الكلمات المناسبة

والعبارات المؤثرة، حتى وان اختلطت لغة بعضها ببعض. فقد تحدث بالعربية عن طفولته في الحجر الأحمر، وعن احتفالات زواج عمه أحمد وهو طفل في السادسة، ثم عن رعاية هذا العم له وتعليمه وتدريبه الى أن شبّ وشق طريقه وكذلك عندما تحدث عن آمنة العجوز التي هدهدت سريره وعوضته عن أمه، رغم ما اعترى حياتها من رعب دائم مبعثه الحرّاقون ومحاكماتهم، حتى ماتت المسكينة تصف مجنونة. ثم تكلّم بالقشتالية وهو يصف حظائر العمل وما تعلمه فيها، وكيف توفق بحذق الى كتمان إسلامه عن القساوسة رغم معاشرته الدائمة لهم. وتكلم بالخميادو عند وصفه لحال المتنصرين الجدد، وكيف أخضعهم الاسبان لامتحانات التأكد من ولائهم للعقيدة الجديدة.

سأل سليمان حمدون:

ـ ولماذا لم تلازم عمك أيها الفتى، فتتدبّران أمر خروجكما معا، عوض ما لجأت اليه من طرق ملتوية غير مأمونة العواقب؟

أجاب بدرو:

ـ عمّي رجل عالم، اشتهر بحذقه للغات وترجمة الكتب، ولديه براءة رسمية من الدولة ومن الكنيسة فلا أحد يجرؤ على اذايته، وهناك آخرون مثله تحتاج اليهم مختلف الدوائر، مثل عمي وبعض العلماء العاملين معه، ومثل الأنفار الستة من الأندلس المطلوب بقاؤهم في كل بلد به مائة دار للاشراف على الريّ ومعاصر السكر وزراعة الأرز، وأشياء فنية اخرى لا يحذقها الإسبان. لقد تغيّر الأمر كثيرا يا شيخ حمدون عن أيام جدّك.

فالحكام الجدد نقضوا كل العهود، ووضعوا قوانين جديدة لا تسمح بغير دين واحد هو النصرانية والكاثوليكية المتشددة ولغة واحدة هي الإسبانية.

سأله وكيل الزاوية وقد كان منتبها لكل كلمة قالها الفتى :

ـ من الذي أشار عليك بدخول الجيش، وكيف حصل لك التأكد بأنك ستصل عن طريقه الى العدوة الافريقية؟

تذكر بدرو في الحين أيام اشتغاله في حصن الحراسة بمقر حاكم غرناطة، وكيف تقرّب الى القس بواسطة العطايا والصدقات، وكيف داوم الحضور والصلاة ليتوسط له في الخروج لمحاربة أعداء المسيح ودينه. روى لهم بالتفصيل حواراته مع القسس، وما بذله من حرارة إيمان لاقناعهم، كل هذا مع إخفاء أصله العربي، وتغيير إقامته مخافة أن يتعرف عليه بعض أبناء جهته من قدماء النصارى. ثم عاد بالذاكرة الى ليلة افتراقه هو وعمه في دارهم الصغيرة بالحجر الأحمر، فقال للجماعة :

ـ كان عمي الشيخ أحمد كثير التنقل، لا يزورنا إلا لماما، فأبقى أنتظره حزينا مرتبكا لا أدري ما أفعل، ولو لم يكن لديّ اهتمام وحبّ لعملي في البناء ونحت الحجارة لجننت، أو همت على وجهي في الجبال. وفي إحدى الليالي اختلى بي عمي بعد أن صلينا المغرب معا، وأسرّ إليّ بخطة حبك خيوطها بأناة، وطلب أن أنفذ ما يخصني منها بكامل الحذق والكتمان، وخلاصته أن أغيّر السكنى باستمرار، مع التقرب ما أمكن الى مراكز النفوذ ودوائر السلطة والكنيسة ليرشحوني إلى الجيش، مع

رصد حركات التجهيز التي تنشط أيام تأزّم العلاقات، سواء مع أمراء السعديين في مراكش أو مع قراصنة الترك في الجزائر، وبصفة خاصة مع بني حفص حكام تونس، وكانت تتأرجح دوما بين مدّ وجزر. وقد سعيت ووفقني الله الى أن وصلت لـلقائكم بفضل السنيور أحمد الجيّار جازاه الله كل خير.

وقد بنى عمي أحمد الحجري خطته على قسمين حتى لا نجلب الانتباه أولا، ولكي يطبّق كل واحد منا ما يخصه بسهولة وتحكّم في الوقت والوسائل دون ارتباط بالغير ثانيا، على أن نحصل في الختام على نفس النتيجة ونلتقي في عين المكان. ثم انهمك في عمله مبتعدا عن كل ماله علاقة بالسياسة، جامعا ما يكفيه من المال لتحقيق مشروعه. واشترط على نفسه أن لا يغادر أرض الأندلس إلا بعد التأكد من خروجي قبله، فكان يتابع أخبار الحملة، ويعدّ الأيام متفقدا حفرة الفول كل يوم جمعة، ليعرف إن كنت في غرناطة أو غادرتها.

سأل الشيخ البكري بفضول :

ـ وما دخل الفول والحمص في هذا الأمر؟

ابتسم بدرو لأول مرّة، وروى قصة إشارة كان يتبادلها هو وعمه، بواسطة الحبوب. يضع العم حبات فول ليدلّ على أنه مازال في المدينة، فإذا جاء ابن أخيه أخذها ووضع مكانها حبات حمص فيعرف العم نفس الشيء، وهكذا تبادلا الإعلام بهذه الواسطة البدائية، لأنهما لا يملكان غيرها في ذلك الظرف الخطير المريب. تبادل الحاضرون نظرات الدهشة وسأل حمدون :

ـ وماذا تعرف الآن من أخبار الشيخ أحمد الحجري، هل خرج أم بقي؟

رفع الجندي يديه الى السماء وقال :

ـ الله أعلم بحاله، ولكنه سيحرص على تدبير الهجرة بعد تيقنه من خروجي مع حملة دون خوان، لأنه أراد الاطمئنان عليّ أولا.

صمت الجميع، ومرت فترة سكون تبادل جميع الحاضرين فيها نظرات مختلفة المعاني والدلائل. وبدا على الشيوخ الثلاثة أنهم مستغرقون في تحليل المعلومات التي سمعوها لتمحيص نصيب الصدق فيها. أما الشاب ورفيقه فبقيا واقفين منتظرين أي سؤال يضيفه الشيوخ قبل إبداء الاستعداد لمعونة هذا المستجير.

وفجأة شق هذا الصمت الرّخو مايشبه خبط الأرض بنعل، فوقف الشيوخ الثلاثة دفعة واحدة، وارتعدت فرائص الجندي من المفاجأة، فنظر ناحية الجيّار كالسائل أو المستنجد. لم يترك الشاب في حيرته طويلا إذ قال وكيل الزاوية في لهجة آمرة :

ـ انطق بالشهادتين يا بدر الدين !

استجاب بدر الدين لطلب الجماعة دون تردد وبلكنته الأندلسية التي تقلب الحاء هاء في أغلب الأحيان :

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وفي الحين انفتح باب المقصورة الجانبيّة، وخرج منه أبو الغيث القشاش في جبة خضراء بالأكمام وعليها ثوب أحمر مقطن، تغطي رأسه عمامة ملفوفة لفا غليظا. أفسح له الشيوخ مكانا على الأريكة، وبقوا واقفين احتراما لمقامه. هذا كله وبدر الدين لم يستفق بعد من دهشة المفاجأة، فلا علم مسبق لديه بوجود الشيخ في المقصورة يسمع اعترافاته، ولم يعرف الى حد ظهور الرجل الصالح سبب هذا الترتيب الذي سارت عليه المقابلة. نظر أبو الغيث الى الشاب مليا ثم قال له :

ـ أنت الآن منا وإلينا، فما هي المساعدة المطلوبة؟

اقترب الجيار من الشاب وهمس في أذنه، فركع على ركبتيه وأمسك يد الشيخ أبي الغيث يقبلها، وجسمه يهتز في هدوء كأنه يكبت نوبة نشيج، أولعلها الفرحة بالوصول الى ما خطط له وتمناه من زمن طويل بعيد. ربت القشاش على كتفه بلطف، ودعاه الى النهوض والإفصاح عما يطلب، لأنه مستعد بعدما سمع قصته الى معونته بما يستطيع.

ـ أحبّ العثور على أبي محمد بن قاسم الحجري، وأمي راوية ابنة إسماعيل بن هود، وزوجة عمّي قمرية بنت أحمد بن سهيل، وكلهم من سكان الحجر الأحمر، أخرجوا قهرا منذ سبعة عشر عاما وأركبوا سفينة الى تونس، واحتجزت وأنا ابن ست سنين مع قرابة ألف فتى وفتاة، وزّعوا فيما بعد بين العائلات النصرانية.

نظر الشيخ نحو الجيّار، وأمره بإرجاع الفتى الى جماعته حتى لا يثير الشكوك، وأن يزوره في الزاوية مساء يوم الغد. حاول

الفتى تقبيل يد القشاش ثانية، ولكنه استنهضه وأمره بسرعة العودة من حيث جاء، واعدا إياه باقتراب الفرج.

كانت الأشغال الجارية في البستيون لا تتوقف، فارتفعت أسواره بسرعة وبنيت داخلها أسواق ودكاكين ودور جديدة يكوّن مجموعها مدينة صغيرة ملتصقة بالمدينة الكبيرة، ولكن مستقلة عنها، لا تخضع إلا لحكم الإسبان ولا يسكنها غيرهم وإلا من تنصّر وانتسب إليهم. وكان القبطان يتعجّل إتمام الأشغال خوفا من الأخطار المحدقة به والمناوشات التي تتكرر باستمرار من طرف الأتراك أو أعراب البادية، وأحيانا من أهالي العاصمة أنفسهم، خصوصا وقد انحاز قسم منهم بجهة باب سويقة، رافضين الحكم المزدوج الذي فرضه عليهم سلطانهم الجديد. أما أهالي وسط المدينة وباب الجزيرة فلم يقدروا على المنعة لأنهم تحت رمية مدافع القصبة، ولأن العساكر ساكنوهم وقاسموهم أغلب الدور.

وبالنظر الى نشاط البناء وسرعته كثر الطلب على موادّه اللازمة، حتى أن قوافل العربات والدواب بين البستيون والجيّارة ومقطع الرمل وجبل الجلود وسائر تجار تلك المواد باتت لا تنقطع، وهي رائحة غادية طول اليوم في أرتال يحرسها الجند إذا كانت كرارط كبيرة، تسير بمحاذاة السور الى أن تصل الى باب الجزيرة، فتمرق منه الى البستيون، أو تشق الأزقة الضيقة إذا كانت حميرا وبغالا تحمل الزنابل والأكياس، والجميع في تنقلهم

يبتعدون قدر الامكان عن منطقة باب بنات، مخافة أن يتحرش بهم سكّانها.

ومع ذلك ـ ورغم الاحتياطات والحذر الشديد ـ اندلعت معركة كبرى ذات صباح، عُرفت باسم «خطرة الشكارة»، لأنها انطلقت من خلاف بسيط حول «شكارة»، وتحولت بدافع الجو المتوتر والحقد المكبوت الى حركة تمرّد، سقطت فيها ضحايا كثيرة، واستعملت فيها الأسلحة بأنواعها لمدة يوم كامل. وكانت مهيأة للاستمرار أياما أخرى، لولا تدخّل السلطان وتوسطه بين المتخاصمين، مع وعد الأهالي بعدم التعرض الى أعمال انتقامية من طرف الاسبان بمقتضى أمر من قبطانهم سربلّوني بالذات.

كان رجل من باب سويقة قد صعد الى رأس الدرب قاصدا متجر أحمد الجيّار وارتكن مكانا قريبا منه، فلما وصلت قافلة الاسبان بعرباتها وحرّاسها يتقدمهم بدرو بذراعه المعلقة الى عنقه، تقدم ذلك الرجل، ويدعى ابن الصفّار، وصاح فجأة في وجه التاجر أحمد :

ـ هل غرقت في نقود السبنيول فلم يعد يهمّك حرفاؤك وأهل بلدك؟

ـ لا والله. . . وإنما السلعة قليلة والطلب كثير!

ـ لنا الحق في جزء من هذا الطلب. . أم تريدنا نتوقف عن البناء والتبييض وإصلاح ديارنا؟ قلت لك إن سطوحي كلها تشققت فما سمعت مني. . . وإنني أجلت زواج ابني بسبب ذلك حتى لا تسقط السقوف على رؤوس المدعوين، وأنت تزيد في

التسويف كل يوم. كم رسولا بعثت إليك ورددته؟ ها أنا اليوم جئت بنفسي، ولن أتحرك من هنا إلا ومعي طلبتي.

ظهر على الرجل غضب شديد احتقن منه وجهه واحمرت عيناه، وجذب أكياس الجير المعدّ للجيش ليسقطها أرضا، فسبقه اليها التاجر وفي عينيه حيرة وخوف من تهوّر الرجل. لم يكن يبدو عليه الانتباه الى وجود الجنود ولا الخوف من تدخلهم إذا لزم الأمر، إذ البضاعة مرصودة لهم وموضوعة على ذمتهم. وقفوا في أول الأمر يتفرّجون مندهشين من ثورة الرجل، غير فاهمين لغرضه، ولكن لما تدخل التاجر ليمنعه من لمس الأكياس بدأوا يفهمون المشكل ويحسون بأنهم طرف فيه.

جذب ابن الصفّار شكارة وهو ثائر غاضب، فتهاوى هرم الغرائر المرصوفة فوقها، عند ذلك صاح أحمد الجيار غاضبا محتجا، ونظر ناحية العساكر كمن يطلب الرأي أو النجدة. تقدم بدرو نحو ابن الصفار فدفعه بيده الوحيدة دفعة ألقته أرضا، وافتك منه الشكارة وهو يسبّ ويشتم، وإذا بالرجل يصيح صيحات ارتجت منها أرجاء المكان، ويطلب الغوث متهما الجندي بمحاولة قتله، وبأن ظهره انكسر من شدة الوقعة.

لم يفهم الجنود والعمال حقيقة ما حدث بعد، ولم يتحركوا من أمكنتهم، وإذا موجة من الأهالي تقفز داخل المنشر من كل النواحي، وفي أيديهم هراوات وسيوف وأسلحة مختلفة، هاجموا بها الجند فاضطروهم للدفاع عن أنفسهم باستعمال البنادق والسناكي، وسمع أهل المركاض ورأس الدرب ضجيج المعركة

فجاءوا للنجدة، كما انتبه حراس القصبة لما يحدث فبعثوا كوكبة للتدخل، لكنها لم تقدر على شيء، فدامت المعركة يوما كاملا، ولم تهدأ إلا بعد أن مات خلق كثير من الجانبين، وبعدما توسط السلطان بنفسه لما رأى الهيجان انتقل إلى الأحياء كلها وكأنه تنفيس عن غضب مكبوت.

لم يتمكن التاجر أحمد الجيار من ارتياد محله أو مزاولة نشاطه لمدة أيام، منتظرا أن تهدأ الخواطر، ويزول ما حام حول متجره من احتراس وشبهات قد تمسّ شخصه، إضافة الى عمله ومصدر رزقه. ولازم بيته أياما لا يعلم بما يحدث في الخارج، إلا مما يأتيه به عماله بعد تفقدهم للمخازن.

وبعد انصراف العمال من عنده ذات عشية، أقفل باب البيت وأحكم رتاجه، ثم انثنى الى باب الدّريبة فدخله ونادى ضاحكا:

ـ اخرج يا فار، من هاك المغّار.

وإذا بصندوق الثياب المركون في أقصى الغرفة يتقلقل في مكانه ويرتفع غطاؤه ليخرج من تحته شاب وسيم، ملتف في قفطان قطني أبيض يغطيه من الرأس الى القدمين. اقترب الجيار من الشاب مبتسما:

ـ اطمئنّ!... هذه آخر مرة تختبئ فيها وسط الصندوق، ولا بد أنك صرت تكرهه لشدة ما ضيّق نفسك وذكّرك بالقبر.

ـ كل هذا هيّن بجانب ما سبّبته لك من خسائر، وما عرضتك له من أخطار. لا تنس أننا كدنا نهلك في ذلك اليوم السعيد

والتعيس في نفس الوقت.

- بل إنه ليوم سعيد، لأننا انتقمنا من الظالمين والغزاة شر انتقام، ونفّسنا عن غيظنا وكبتنا.

- ولكن بأيّ ثمن؟ تذكّر عدد الأموات!

- مهما كان الثمن لا بد للناس أن ينفجروا من حين لآخر، فالذلّ والهوان الذي يذوقونه كل يوم في أبسط أمور معاشهم لا يكال بكيل أو يقاس بمقياس.

- لقد علمت بالظلم الكثير، وشاركت في بعضه غصبا وكرها، والله يعرف ما في سريرتي، وأنني لم أشارك في إيذاء المسلمين إلا مكرها أو خائفا على نفسي، بل إنك قد رأيت شدة ندمي على ضربي لابن الصفّار يوم الخطرة، وكم استغفرت الله على ما فعلت، واني أناشدك الاعتذار باسمي للرجل وطلب عفوه عن سوء معاملتي حتى لا يطالبني يوم الحساب.

- لا تعد الى مثل هذا الحديث يابدر الدين، فضربك للرجل كان جزءا من الخطة، ولو لم تفعل لما صرخ واستنجد، ولما جاء الناس المختبئون حول المتجر بدعوى إنقاذه من أيدي الجنود، إنه أمر مرتّب بيننا وبينه.

ضحك بدر الدين وقد شعر بالراحة وعودة الأمل في انكشاف غمّته وسراحه من جندية الإسبان، وضحك معه أحمد شريكه في الخطة وترتيب فصولها وتعيين منفذيها مع تدريبهم على المطلوب، وقد تمّ كل ذلك في نطاق السرية الكاملة في زاوية

سيدي القشاش بسوق البلاط.

نظر بدر الدين إلى الجيار، وما زالت الابتسامة تضيء وجهه، وقال كأنه يستعيد ذكرى قديمة مترسبة في الذاكرة:

- كنت أحلم وأنا صغير بأن ينقذني الله من بؤرة الشر والعدوان التي انغرست فيها رغم إرادتي، وأن يهديني إلى أرض سالمة مطمئنة أكمل فيها حياتي، وحولي كل من أحبّهم وكل ما أشتهي، فلعلي اليوم بدأت طريقي نحو مدينة أحلامي. إن مشاعر خفيّة تتحرك في نفسي تحدثني بأن السعي الذي بدأته لن يخيب.

جلس التاجر بجانب ضيفه ليكون قريبا من أذنه وأجابه:

- لن يخيب بإذن الله. سوف تزول الغمّة برحيل الإسبان، ولا يبقى في البلد غير أصحابه. فما عليك منذ اليوم إلا البحث عن أهلك، فإذا انتهينا من هذا سأقودك وإياهم إلى مدينة أنشئت في مكان غير بعيد، فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلتذ به الأعين، فإذا جمعت فيها أحبابك أحسست أنها الجنة.

- وكيف هي يا عم أحمد؟

- هي صورة مستحدثة ومجدّدة لمدينتنا العريقة، بل لمدننا الكبرى مثل تونس وصفاقس والمهدية والقيروان ولمدنكم مثل غرناطة وقرطبة وأشبيلية. تحميها أسوار منيعة تلفها بالأسرار، وتقود إليها أبواب كبيرة جميلةالنحت، تتفرع عنها أنهج وأزقة وساحات مليئة بالعجائب والخفايا. فمن هنا دور أندلسية الشكل رائعة الجمال، ومن هنا حدائق غناء ومسابح ساحرة، ومن حقل

زيتون إلى روضة أزهار يتنقل زائر المدينة، سواء كان قاصدا الترفيه واللهو أو التسوّق وقضاء الشؤون، أو التثقف وشحذ الحواس بما طاب وراق من الفنون. وقد علمت أن ساحاتها تعج بالوافدين من كل صقع لاكتشاف ما تهبه لهم المدينة، من سكن فاخر مريح، وعيش مطمئنّ، في جوّ ملؤه المرح ونكهة الطعام وجودة البضاعة.

مدينة عجيبة كما علمت لا ينقطع منها الفرح، تعيد كل يوم الى أذهان ساكنيها عجائب الأساطير القديمة، بما تقدمه من حفلات التذكّر والفرجة على مسارحها وفي متاحفها. فمن رقصات الأفارقة، إلى شطحات الصوفية وأرباب الطرق، إلى خيال الظل ومحاكاة الطير والحيوان. عالم خرافي يا بدر الدين، ولكنه حقيقي وملموس. آه لو تكتب لنا الأقدار يوما الانتقال إليها!...

تركت ابتسامة بدر الدين مكانها الى نظرة حالمة تحاول اجتياز الزمان واختراق المكان. وقال للجيّار وكأنه يحدث نفسه في ذات الوقت:

ـ تخيلت نفسي فيها وأنا طفل، فقد تبخر جسمي ورفعهُ الهواء حتى لامس قبّة السماء. لو كان الأمر بيدي لأشرت إلى الكون أن يتوقف وقلت له عندئذ: ها أنا تحت قبّة آخر الزمان فدعني هنا.. ولا تتحرك ثانية فهذه هي السعادة.

ـ عد بنا إلى واقع الحال حتى نصل إلى مرمانا ونحقق مبغانا.

بعد اجتماع سيدي قاسم قصد أحمد الجيّار، بين عصر ومغرب، زاوية القشاش في قلب المدينة. شق دريبة الزوّار وسقيفة باب الشبّاك، وعبر الفناء الكبير حيث شجيرات نارنج جلس تحتها جماعة من المنشدين، فوقف يستمع الى الششتري والمالوف مما لم يتعوّد سماعه من قبل، ولما ناداه الحاج مزهود، تراجع خطوات وصعد الدرج الموصل الى غرفة نصر الدهماني وكيل الشيخ. اقتبله الرجل مرحبا:

ـ جئت في الوقت المناسب. هيا ندخل على الشيخ في خلوته، فلا شيء يشغله الآن. ولتعلم أننا لم ننفك منذ تلاقينا مع صاحبك الأندلسي نبحث في قائمات الأندلس الوافدين، عسانا نجد اسم عائلته أو إشارة دالة على منبتها الأصلي.

ـ لا أظن المنبت ذا أهمية كبيرة يا سي نصر.

ـ تخطئ كثيرا... لأننا صنّفناهم قبل توجيههم الى سكنهم الجديد، فالريفيون وجّهوا الى الريف، وأهل الشطوط وجّهوا ناحية البحر، لتجد كلّ فئة ما تعوّدت عليه في طلب رزقها. فإذا كانت عائلة هذا الشاب قادمة من سهل أو جبل فأولى بنا البحث عنها بين من استوطنوا السلوقية أو تستور، وإن كانوا من أهل الموانى فالأجدر البحث عنهم بين من استوطنوا بنزرت أو شطوطها مثلا.

ـ أعرف مما حدثني به الفتى أن أباه كان فلاّحا يملك حقل عنب يعيش منه، أما عمه فهو من أهل العلم.

- ستتبادل الرأي مع الشيخ أبي الغيث ونأخذ منه التوجيه، أما أنا فالأقرب عندي أنهم في ناحية بنزرت، لأن تاريخ قدومهم يصادف تاريخ توجّه جماعة الى هناك، وقد وجدت هذا مسجلا في دفاتر الزاوية. بقي أن نعرف هل نزلوا المدينة أم تفرّقوا في ضواحيها.

- وهل وجدتم الاسم كما ذكره بدر الدين؟

- لم نجد اسم محمد الحجري كما ذكره الشاب، لأن أولئك الناس اضطرّوا الى تغيير أسمائهم، وانتحال غيرها عدة مرات، لظروف وأسباب نعرفها جميعا. أو تجدهم يدلون بأسماء متسلسلة فلان بن فلان فيتشابه بعضها ببعض وتختلط. ثم لا تنسَ أنهم وصلوا في حال تعاسة لا توصف، فكان أول الأمور هو إطعامهم وتأمينهم، لا البحث عن أصلهم وفصلهم.

وجاءت الخماسية الزنجيّة لتدعو الرجلين الى خلوية الشيخ، وكان بين يديه كتاب، فلما رآهما أزاحه جانبا ودعاهما للجلوس. ذكر الوكيل نتيجة أبحاثه، وأعاد ما قاله لأحمد الجيّار، فصمت الشيخ برهة يفكّر ثم خاطب زائريه :

- سنعثر على العائلة بسهولة ان شاء الله، وليس هذا أصعب الأمور، وإنما شيئ آخر يشغلني.

سأل أحمد :

- وماهو يا سيدي؟.. الصعب يسهل ببركاتك!

وأشار نصر الى الجيّار بالسكوت والانتظار، رافعا كفه الى

فمه. أما الشيخ الصالح فواصل الكلام كالمحدّث نفسه :

- لنفترض أننا عثرنا على العائلة في بعض الأماكن، فكيف سيلتحق بها الشاب؟ هل يمكنه مغادرة العسكر بسهولة؟ هل يفضح أمره للقادة ويقول لهم : أنا مسلم وقد عثرت على عائلتي التي طردتموها من أرضها، وإنني سأبقى معها؟ مستحيل! سيقتلونه إن فعل. هل يفرّ من السبنيول؟ نعم لا بد أن يفر، ولكن هل يقدر على ذلك وحده؟ كيف يفعل... والى أين يذهب؟ سيبحثون عنه ويقبضون عليه في رمشة عين، انه لايعرف أحدا في البلد غيرنا فأين يمكنه الاختباء؟ أين؟

وأخذ يجيل بصره بين الرجلين ويعيد السؤال. قال نصر الدهماني :

- إذا اعتبره السبنيول فاراً سيقلبون الدنيا بحثا عنه، وإذا ظنوه أسر أو اختطف فسيكون الأمر أنكى وأشدّ، لأنهم سيفتشون أركان المدينة، وسينتقمون من الأهالي، ويكثرون التجسس وبث العيون.

رفع الشيخ يده الى فوق، فسكت الرجلان وتعلقت عيونهما بشفتيه. قدم لهما الكتاب الذي كان يطالعه وقال لهما :

- سأشير عليكما بأمر يجب أن يبقى سرّاً بين ثلاثتنا لا يعلم به إنس ولا جانّ... احلفا على المصحف!.

حلف الرجلان ثم دار بين الجميع نقاش طويل انتهى بتدبير مؤامرة أساسها افتعال خصومة في محلّ الجيار، يكلفون بها رجلا

من أبناء باب سويقة المشهورين بالشجاعة والنخوة، واختاروا للمهمة شخصا معروفا بالشدّة اسمه ابن الصفّار، تساعده جماعة من مائة رجل أو أزيد، يكمنون قريبا من المتجر، ثم يهجمون على من فيه من العسكر عند أول استغاثة يطلقها قائدهم.

وجم الجيّار وتاهت أفكاره فيما يمكن أن يحصل نتيجة لهذه الغارة على زبائنه من عسكر السبنيول، لا خوفا عليهم، فهو يشتهي أن يحدث لهم مثل ذلك وأكثر، إذ لا ربح يجنيه من ورائهم، بما أنهم يقررون كل يوم ثمن ما يأخذون حسب المزاج، وانما كان خوفه من تلف البضاعة وتحطيم أحواضها، وهي لم تكتمل بناء وإنشاء إلا منذ وقت قصير. نظر إليه الشيخ سائلا:

ـ مابك يا أحمد؟ هل أنت خائف؟

ـ الأمر لله يقدّر ما يشاء!

ـ ألست أنت الرّاغب في تخليص الفارس الإسباني من عسكريته؟

ـ نعم أنا صاحب الفكرة، ولا أتراجع.

ـ احتسب لله إذن، واطلب منه العوض.

قال نصر الدهماني، وقد أسندت إليه مهمة تجنيد ابن الصفّار وجماعته، وتوفير مسالك هروبهم بعد أداء المهمة نحو حيّهم المنيع:

ـ لا تخش الخسارة يا سي أحمد، ستعوضك الزاوية بحول الله، إنما عليك حفظ وصايا سيدنا الشيخ وتطبيقها بالحرف

الواحد، حتى لا تجرّ التهلكة على نفسك وعلى غيرك.

ـ وعيت الوصية وحفظتها، وهي أن أحاول فض الخصومة بهدوء في أول الأمر، وأن أوبّخ ابن الصفار بعد ذلك وأفتكّ منه الشكارة لأبعد شبهة التواطئ معه. ويتدخل بدر الدين فيضربه، عندها يبدأ ابن الصفار بالاستغاثة والصياح فتأتيه جماعته للنجدة، حتى إذا بدأت المداهمة والضرب أهرب الى خلف المحلّ يتبعني بدر الدين مدّعيا الاختباء لأجل يده المعطوبة. لأنه إن شارك في المعركة سيقتل لا محالة.

ـ وبعدها يا سي أحمد ترمي على صاحبك برنسا يخفي زيّه العسكري، وتهربان عبر الأزقة البعيدة عن السور ومراكز الحراسة، فتختبئان في بيتك حتى تهدأ الحال.

ـ وهل يبقى المحلّ مغلقا؟

ـ كلّف واحدا من أعوانك، وسنبعث من خدّام الزاوية من يساعده حتى تمرّ الأزمة، والفرج على الله.

نهض أحمد الجيّار لينصرف قبل أن يعمّ الظلام وهو يقول:

ـ يا لطيف لم تزل، الطف بنا فيما نزل، اذكرنا في دعواتك يا سيدي يا صاحب الكرامات!

ـ حسبنا المولى ونعم النصير. انصرف مجبور الخاطر يا أحمد، فالله معنا!

بهذا ختم الشيخ القشاش جلسة التخطيط لمعركة الغد.

انتهت الأمور كما خُطّط لها، وبقي أحمد الجيّار في بيته مدّعيا المرض، ومعه الجندي الهارب بدر الدين الحجري الأندلسي أو بدرو بيجارانو الفارس الأسباني. كان مسكن الجيار صغيرا على قياس عائلته، لذا لم يقدر أن يوفر لضيفه محلا خاصا به، فكان لزاما عليه الاشتراك مع أهل الدار في مجالات الحياة اليومية. وقد كشف أحمد الجيار أحواله وظروفه للضيف من أول ليلة سهراها معا على ضوء سراج زيتي ضئيل ليزيل وحشته ويجعله يستأنس بالمكان وأهله:

ـ ستكون واحدا منا ابتداء من هذه الليلة. والأسرة كما ترى صغيرة، وازدادت صغرا منذ توفيت زوجتي وبقيت أرعى الأطفال وحدي. ومن ألطاف الله أنهم شبّوا قليلا ولم يعودوا محتاجين الى عناية كبرى كما هو شأن الأطفال الصغار، والأهم من ذلك أن مرجانة بلغت سن الخامسة عشرة ،وورثت رصانة أمها وحذقها لشؤون البيت، فقامت عليه أحسن قيام. أما حسن ودرعية فقد بلغا السابعة والعاشرة وصارا يساعدانها في كل شيء.

وقد طرق الباب على أحمد الجيار ذات يوم فأرسل ابنته تسترق النظر من السطح لمعرفة الطارق، وتمهل هو قليلا حتى اختبأ بدر الدين في عنق البئر، ثم أطلق صوته من وراء الباب يسأل عن اسم الطارق، فأجابه :

ـ بعثني شيخ الزاوية سيدي بلغيث، افتح يا أحمد يا جيّار، عليك الأمان!

أطلّ من شق الباب بحذر يفحص هيئة القادم، كان رجلا طويلا عليه برنس داكن ويلف رأسه بعمامة غليظة تمسكها خيوط سوداء كي لا تنخرم.

ـ ادخل الدريبة، إذا كنت رسول الشيخ

دخل الرجل وهو يبسمل، وجلس على دكّة قريبة من الباب

ـ اسمعني يا سي أحمد! أهالي صاحبك وضيفك توجهوا الى بنزرت. وصلوها أم توقفوا قبلها فهذا غير واضح، والشيخ نصر يبلغك السلام ويطلب منك أن تتجهز للسفر الى تلك الناحية، وسأكون معكما حارسا من أخطار الطريق.

ـ لكنني لا أستطيع ترك بيتي وأطفالي بدون معين في أوقات الشدة والخطر التي تعيشها البلاد.

ـ الشيخ نصر سيبعث لك كريطة وبعض المؤونة، ويوصيك بأخذ العائلة كلها معك، كأنك ذاهب لزيارة سيدي علي الشباب، وهذا أصلح للتمويه على الحراسة، ولإخفاء ضيفك في صورة امرأة من جملة أفراد العائلة.

ـ ألا يوجد حلّ آخر؟

ـ لو كان ثمة حل آخر لخيّرونا بين الاثنين. وسأكون مسؤولا عن سلامتكم الى أن يصل الرجل الى أهله، وتعود سالما الى بيتك. هذا ما أوصوني به.

ـ وفي أي يوم يكون السفر؟

- بعد يومين، أي صباح السبت القادم عند الفجر. ولا تنس أن تأتي لصلاة الجمعة عندنا وتقابل الشيخ.

ثم خرج الرجل واختفى بسرعة من الزقاق كما أتى.

لم يزد الشيخ أبو الغيث شيئا كثيرا عما قاله الرسول. كان أحمد الجيار قد جاءه الى الخلويّة وجلس متربّعا يستمع الى تعليماته بانتباه:

- وكيل زاوية سيدي علي الشباب من تلاميذي، بلغه سلامي وأعطه رسالتي هذه، وسيقوم بالواجب نحوكم وربما أكثر. على أنّ إقامتكم عنده لن تطول، وهو سيرى إن كانت قافلة الأندلس التي وصفتها له واصلت الطريق عند عبورها به الى بنزرت، أو حطت رحالها قريبا من مكانه.

- جازاك الله كل خير ونفعنا ببركاتك.

- الله يثيب الجميع. سوف لن تحاروا في العثور على جماعتكم، فعددهم غير كثير، كما أن المنطقة عامرة وغير مترامية الأطراف.

عند اجتيازه لساحة الزاوية وقف أحمد الجيار يتفرج على حلقة المالوف متعجبا من الآلات الموسيقية لأنه يشاهدها لأول مرة، وكذلك الانشاد المطرب مما لم يعرف له مثيلا، وكان كله من أشعار الغزل أو وصف الرياض والزهور وجمال الجداول النهرية والنواعير. سرح به الخيال والطرب فجلس فترة تحت شجيرات النّارنج يستمع منشرحا، ثم تذكّر ما ينتظره من عناء وتعب في غده، فلملم ثيابه وسارع بالخروج قاصدا منزله.

في غبشة الصبح، وبمجرد أن فتح الحراس أبواب المدينة، خرجت كرّيطة يجرها بغل قوي ويحاذيها زمزمي بكامل لباس الفروسية، على كتفه مكحلة بارود وفي ركابيته عصا سنجق رفرفت ذؤاباته فوق رأسه كطيور خضراء. كان من الواضح أن خروج الفارس بجنب العربة هو لحمايتها، وأن السنجق المنشور فوق القافلة يهبها وقارا ويضمن لها الأمان، فهي بلاشك تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين، أو هي لجماعة مريدين يقصدون زيارة إحدى الزوايا، وفي كلتا الحالتين سوف لن تعترضهم صعوبات أو أخطار في الطريق.

أما الكريطة فعلى ظهرها أسرة مكوّنة من امرأتين ملتحفتين، معهما طفلة ذات ست سنوات قلدت المرأتين في تغطية الرأس، لكن دون أن تحجب وجهها الطفولي الصغير، وبجانبها أخوها ذو العشر سنوات يجتهد في فتح عينيه الواسعتين، وطرد النعاس الملحّ بعد أن اقتُلع من فراشه فجرا. أما السائس فهو رجل كهل يمسك زمام الدابة بحزم، ويظهر أنه رئيس العائلة قد جمع شملها ليذهب بها في مهمة لا يعرف تفاصيلها غيره، وقد يكون قاصدا مكانا بعيدا، لذا امتلأت الكريطة بأواني المؤونة وصندوق للملابس، وبعض ما يلزم لإقامة قد تطول. ولعله ينوي الابتعاد عن الحاضرة من طرق غير مأمونة لذا جنّد هذا الزمزمي للحراسة، ولربما يكون من أتباع زاوية ذات حول وطول فرفع سنجقها ليعلن

الانتماء ويطلب الحماية. وقد يكون زائرا لخلويّة بعض الصالحين وفاء لنذر وتنفيذا لوعدة تفكّه من ضيق أو مرض. منظر القافلة ،وهي تخرج من باب سعدون في هذا الصباح الباكر، يقبل كل هذه الاحتمالات ويجيب على كل الظنون، خاصة وقد بان على الرجلين عدم المبالاة بما يدور حولهما، فلم يلتفتا الى حارس الباب الأسود الذي شيعهما بعينين خاشعتين، ولا الى رفيقه الاسباني الذي ركن سلاحه الى جنب الباب وفحص العربة وركابها بعدم اهتمام.

تقلقلت العربة بركابها وهي تمر بالطريق المحاذي لبساتين السلطان في رأس الطابية، وحاولت الابتعاد عن نقاط الحراسة قدرالإمكان، ما دام المرور بقربها ضروري لكل قاصد الى جهة بنزرت وما والاها من قرى الشطوط الحديثة النشأة. ووجد الفارس المرافق عسرا في كبح فرسه الراغب في انطلاقة لا يعترضها شيء ولا يمسكه عنها لجام، فبقي يتقدم الكريطة خطوات ثم يتوقف، الى أن تفوته فيتبعها، والفرس أثناء ذلك يحرك قوائمه بعصبية، غير راض عن مشية البغل المتثاقلة، وفي كل الحالات لم يجد الفارس والسائق فرصة تقربهما، وتسمح لهما بتبادل الحديث.

كان يعوقهما، قبل أن يبتعدا شوطا عن الحاضرة، وجوب الاحتراس من المعسكرات المنتشرة خلال حقول الزيتون وتأوي جندا من مختلف الجنسيات، فقد تلاقي أتراكا، أو أعراب بادية صحبة خيل وأغنام، وقد يعترض طريقك كوكبة من جند السلطان يطاردون عدوا، أو هاربين من عدوّ، وفي كل المرات لا بد

للزمزمي أن يرفع سنجقه عاليا، ويعمّر المكحلة بالبارود، ويظهر من الجدّ والحزم ما يجعل الجميع يعتقدون أنه ذاهب في مهمة مقدّسة. ومع ذلك حاول بعض الجند اغتنام مهمتهم في الاستقصاء عن أفراد القافلة وعن مقصدهم لمحاولة نهب العربة، فيطوف بعضهم بجوانبها، وقد يمدّ يده للمس ما فيها، فيتابعهم الفارس بنظرات نارية، ويضع السائس يده في الحزام متفقدا الطبنجة والخنجر، بينما ينكبّ باقي أفراد الأسرة بأيديهم وأجسادهم على أواني العربة ومحتوياتها، مبدين استعدادًا للدفاع عنها باستماتة. وكان على الرجلين تكرار العبارات المتفق عليها كلما يطلب منهم التعريف بأنفسهم وبمقصدهم، فيقول الفارس :

ـ أنا وكيل زاوية سيدي القشاش، وهاذم فقرته، وهذي وعدته

ولما يرى في عيني السائل ملامح تقدير للمهة واحترام للشيخ الذي يمثله، يرفع قليلا في حدة التأثير، فيضع يده اليمنى على رأسه، ويحرك يده اليسرى بالسنجق، صائحا بأعلى صوته :

ـ وعدتك يا سيدي علي الشباب... الشاي للّه بأولياء الله!

فيرتفع تبعا لذلك مقدار الخشوع في أعين الجند إذا كانوا مسلمين، بل قد يصيبهم الهلع اذا كانوا من الأعراب، أما إذا كانوا نصارى فإنه ينزعجون من صياح الرجل، ثم يرتبكون لعدم فهم الموقف على حقيقته، وفي النهاية يصرفون القوم من أمامهم متأكدين أنهم لا يمثلون خطرا، أو على الأقل لا علاقة لهم بالنزاع الذي هم فيه. وقد يضيف سائس العربة مزيدا من الشرح لمقصد الجماعة قائلا :

ـ نحن عائلة من فقرة سيدي القشاش ذاهبون لزيارة سيدي علي الشباب في العالية، ومعنا قربان وطعام لفقراء الزاوية، ولانملك غير ذلك فاتركوا سبيلنا يثيبكم الله.

وبين لهجتي التهديد والملاطفة وجدت القافلة طريقها سهلا عبر الهضاب الفاصلة بين تونس وبنزرت، ولم تعترضها عوائق تذكر. وكلما اطمأن الفارس طوى السنجق وضمّه الى الركّابية، وسار بفرسه خببا الى جنب البغل الذي تنشط حركته وتسرع إذا انفتحت الطريق أمامه. وقد يعود الرجل المرّة بعد الأخرى لمواصلة ما انقطع من حديث كان يتجاذبه مع السائس :

ـ «خطرة الشكارة» يا عم أحمد سرت على ألسن الناس تحدثوا بها مثل حكاية سيدنا علي مع رأس الغول.

التفت نحوه أحمد الجيّار مبتسما وأجاب :

ـ ألم تسمع المغنين وقد ردّدوها في مقاهي باب سويقة؟

ـ خلدوك في الغناء يا عم أحمد أيضا!

ـ خلدوا ابن الصفّار وجماعته الأبطال، أما أنا فقد وهبتهم الفرصة فقط.

ـ وماذا تقول الأغنية ؟

وضع الجيّار يده على صدغه الأيمن وبدأ الغناء :

حَارت تونس مستنيّة   راجل يفدي الثّار
جاها واحد م البلدية   رِفْدَه وعِينهَ للجيّار
ما تُكْرُفْش معاه المِيَّة   اسمو ولد الصّفار
بضرب الرَّاسْ والبُونيَّة   والرّكلة ألفين عبار
دعِسُوا رِفسُوا الكُبَّانيَّة   جْرَات الدّمَايَة انْهَار
رَدُّوا الهِمَّة لِيك ولِيّه   وقالوا للعِلْجِي بخْطَارْ

ضحك الفارس طويلا من العبارة الأخيرة وكررها :

ـ صعبة كلمة «بخطار» هذه... إنه التحدي وقرع الراس بالراس!

ـ ألا ترى في حالنا ما يدفع للتحدي وقرع الرؤوس؟ ألا تقدّر يأس الناس؟ إن قفزهم على السبنيول يومها كان من بدافع القنوط، كانوا كبراميل البارود المنتظر لشرارة حتى ينفجر. لقد زال الخوف عن الناس إذ لم يعدلهم ما يخسرونه أو ما يدافعون عنه، فصارت كلمتهم «بخطار» معناها إلقاء التحدّي في وجه الأعداء : إما أن نمحوهم ونحتفظ ببلدنا، أو أن يمحونا ويأخذوه... فما الذي بقي لنا في الحقيقة بعد عناء خمسين سنة من فتن الحسن الحفصي وأولاده؟ وعلي باشا وأتراكه؟ والسبنيول وبستيونهم... «أنقرية تونس ودمّالتها»؟

وارتفع ضحك الصبيان من الخلف لعدم فهمهم معنى العبارة الأخيرة، وتعالى عقب الضحكة صوت نسوي رقيق يسأل :

- ما معنى «أنقريّه» يا بابا؟

- هي سوس اللحم والعظم يا مرجانه عافانا الله، من دخلت جسمه لا تخرج إلا بروحه، وهل فهمتها أنت يا بدر الدين؟

عرّى بدر الدين رأسه، وأرخى عصابة سوداء تكمم فمه، وعلّق على كلام أحمد الجيار بلكنته الإسبانية الأندلسية، فالحاء هاء والعين ألف والسين ثاء، وبعض الكلمات تضيع منه فيطلقها حينا بالخميادو وحينا بالاسباني، وحينا يتلعثم فيستمر في فأفأة لا تنتهي، والطفلان الصغيران يضحكان مقهقهين من هذا الرجل الغريب الذي لم يتأكدوا بعد من لغته ولا ملّته. وقد شبعت مرجانة ضحكا بدورها لكن دون أن يعلو لها صوت بدافع الحياء والاحتشام.

بعد أن أنهى بدر الدين الحوار مع رفيقي السفر عاد يغطي رأسه، ويعالج العصابة لستر وجهه فلاتطاوعه، ويعيد المحاولة فإذا بها تنفرط كلها وتسقط خيطا طويلا حول العنق والكتفين. يضجّ الطفلان بالضحك وتصاحبهما مرجانة دون تحفظ هذه المرّة، وبعد الضحكة الطويلة وبدر الدين صامت واضع يديه في حجره استسلاما، نظرت مرجانة في عينيه بتخابث وسألته :

- ماهذه الحيرة البادية عليك؟ أتعجز عن طيّ قطعة قماش؟

كانت هذه أول مرة يسمع صوتها مباشرة وتقابل نظراته

عينيها، فارتبك ولم يدر ما يقول، إذ تسارعت دقات قلبه وضاع منه الكلام. اكتفى بهز كتفيه، وإعلان هزيمته أمام هذا الشيء البسيط، كطفل لم يستطع جبر لعبة مكسورة.

مدت يدها تفك عصابتها، ثم أمرته أن يتابع حركة لفّها ثانية حول الرأس والوجه لفّة بعد لفّة، نزولا من أعلى الرأس الى ما تحت الذقن. زاد ارتباكه عندما انكشف اللثام عن وجه الصبية، ورآه على بعد شبر من وجهه، حتى ليكاد رداء رأسيهما يكوّن خيمة صغيرة، أو مظلّة ذات شقين تسترهما عن العيون. دام الموقف لحظة قصيرة لكن كثافتها كثيفة، وشحنتها مليئة بالوعود. وحين عادت مرجانة تلف العصابة ثانية لتحجب ذلك الوجه الجميل تشتّت انتباه بدر الدين ولم يتابع حركة اليدين، بل تاهت عيناه بين الحاجبين المهللين والفم المكتنز وحبتي تفاح تزين الخدين. فهمت البنيّة ما طرأ على الضيف، ورأته يلف القماش بين يديه دون نظام وقد احمرت وجنتاه، ولم يحاول تغطية وجهه ثانية، فاستمرت تدير خمارها صامتة وهي تسأل نفسها إذا ما كانت آذت الفتى عندما كشفت له وجهها. لم ينتبه أي من ركاب الكريطة الى ما حدث، وحين طلب الطفلان من بدر الدين ملاعبتهما كما كان يفعل منذ حين وجداه غير راغب ولا مستجيب، وحين ألحّت عليه درعيّة مرّ بيده على شعرها بلطف وقال :

- دعيني أتملّى منظر الطبيعة الجميل، إننا لم ننتبه إليها طول الطريق. ألا تعجبك تلك الحقول اليانعة بخضرة لا تنتهي كأنها سجاد مخملي مطرّز. . . والأزهار من كل شكل ولون انظري ما

جملها! كأنها فاجأتنا بالحضور الآن!

رفعت الصغيرة عينيها الى بدر الدين لتفهم كيف حضرت الزهور الآن فقط... وأين كانت غائبة. ولكنه كان سارحا ببصره الى بعيد. ونظرت الى أختها فوجدتها سحبت الفراشية لتغطي رأسها جيدا وبقيت ساكنة لا تريم. ولم تفهم درعية لماذا انقلب جوّ العربة غمّا بعد أن كان الجميع يضحكون ويتداعبون، فانتقلت الى مقدمة العربة ملتحقة بأخيها الجالس حذو الأب، ومحاولة فهم ما يدور بينه وبين الزمزمي من حوار لا يدركه عقلها الصغير.

أما في الخلف فكانت يد بدر الدين قد وقعت فجأة ودون إرادة على يد مرجانة حين اهتزت العربة بعنف فوق حفير... سكنت اليد الصغيرة ولم تنسحب، بل ارتعشت كثيرا من الخوف والتأثر، ثم لما أحست باليد الكبيرة تضغط عليها بلطف استدارت ومنحت كفها الملتهب لاحتواء كامل من طرف يد الفارس الخشنة. تكاثر اهتزاز العربة وهي تصعد هضبة سيدي علي الشباب، وقال الزمزمي أنهم أوشكوا على الوصول، إلا أن الشابين تمنيا أن تتمطط المسافة الباقية لكيلا تفترق اليدان، أو تستيقظ الروحان من خدر لطيف ملك عليهما كل الحواس. لكن الشمس المواجهة للقافلة احتجبت بقدر النصف وراء الأكمات، ويستحسن أن لا يداهمهم الليل وصقيعه إلا وهم في حمى الزاوية وأمنها، مع طعام ساخن ينسيهم أتعاب السفر وأخطار الطريق.

أخذ قدر كبير يشيع في الجو بخارا لطيفا، ورائحة شهية ـالت لعاب الطفلين الصغيرين، وتحت القدر أعواد حطب

تلتهب وتدعو الجماعة المحيطين بها الى الاقتراب طلبا للدفء، خاصة وقد نزل صقيع الليل على مرتفعات هذا الريف المتغلغل في رحم الطبيعة.

كان وكيل الزاوية يعيش بمفرده في هذه البناية الرابضة فوق الهضاب، بعيدا عن مراكز العمران المحاذية للشواطئ، وقد حرص أن يطبخ لضيوفه المتعبين حساء ساخنا يدفئهم ويهيّئهم لنومة هادئة، فأجلس الجميع حول النار وبقي فترة بعد أخرى يتفقد القدر أويحرك أعواد الحطب المشتعل، وهو لا ينفك يحاورهم:

ـ آخر من قدم الى جهتنا من الأندلس جماعة لا يزيد عددهم عن الأربعمائة نفر... وقد وقعوا في صعوبات جمّة، ولكن الله أغاثهم وأعانهم.

تحفز بدر الدين لسماع بقية الحديث وبان عليه التوتر عند سماعه كلمة الصعوبات، فأضاف الوكيل وهو يحرك حطب الموقد:

ـ جاءوا ومعهم مكتوب من السلطان، ليختاروا أرضا مناسبة في بنزرت أو ضواحيها، لكن أغلب الجماعة جبالية، وليس فيهم إلا قلائل من أهل المريّة اختاروا مواصلة الطريق الى بنزرت، لذا بقي أغلبهم في المنطقة، واختاروا السكن قرب النهر المار في تلك السهول السفلى، من حيث مررتم عند قدومكم.

قال بدر الدين:

ـ لكننا لم نعثر على مساكن في طريقنا

ضحك الوكيل و

- شاءت إرادة الله أن لا يستقروا هناك طويلا . . . رغم أنهم تفاءلوا بالمكان وعزموا على إنشاء مدينة جديدة فيه، حتى أنهم أطلقوا عليه اسم غرناطة . . . ومازال أهل المنطقة يعرفون المكان ذاته باسم «ڤرناطة».

سأل أحمد الجيّار :

- أفهم من كلامك أن مشروعهم لم يتم

- فعلا ياسي الحاج ، المكان بطاح وسهول ككف اليد، والأعراب المنتشرون كالجراد يناوشون الجميع، وينهبون الأقوات من أيدي الناس وأفواههم، فلا يتركون زرعا ولا ماشية، ولا يدعون أحدا يهنأ بعيشه وبما كسبت يداه.

قال الزمزمي :

- لا تصلح الأراضي الواطئة للسكن، لا بد من الجبل إذا شاء المرء الدفاع عن نفسه بصورة مجدية.

واصل وكيل الزاوية :

- هذا ما فهموه واقتنعوا به، لكن بعدما خسروا أموالا وأقواتا الله به عليم. أخبروني بعد الخطرة الكبيرة أنهم قرروا الانتقال صعودا نحو الأعلى، تاركين محاصيلهم جميعا، ومباني صغيرة آوتهم طيلة عام ونصف.

سأل بدر الدين بلهفة :

- إلى أين اتجهوا؟ وهل فقدوا أرواحا قبل نقلتهم؟

- لا . . لم يقتل منهم أحد، لأنهم لم يقاوموا . . . وهل كان يمكنهم ذلك في رأيك؟ لقد كان فيهم شيوخ مسنّون ونساء حوامل وليست لهم أسلحة.

تذكر بدر الدين امرأة عمه، لما ذكر الوكيل عبارة النساء الحوامل، فقفز الى ذهنه يوم الرحيل، وسدت حلقه غصّة مفاجئة. واصل الوكيل روايته :

- والغريب يا جماعة أنه لم يكن بينهم أطفال. . كانوا إما رجالا أو نساء، أما الأطفال فلا. . أليس هذا غريبا؟

ابتلع بدر الدين ريقه وأجاب :

- هذا ليس غريبا . . . لأن الأطفال احتجزهم الأسبان. . افتكّوهم من أمهاتهم ووزعوهم على الكنائس وعائلات النصارى.

فتح الجماعة أفواههم تعجبا كأنهم لا يصدّقون ما حدث. أضاف اللاجئ وقد جفّ حلقه :

- صدّقوا ما قلته لكم، لأنني رأيته بعينى في جهتنا فقط افتكّوا ألف فتى وفتاة.

ازداد التعجب من حوله، وسمع آهات كثيرة تصدرها الأفواه، كما شاهد الصبيّين الصغيرين يلتحمان بالأب فيظللهما بذراعيه الطويلتين. نظر ناحية مرجانة فرأى تراقص اللهب قد زاد وجهها

إشراقا، وعينيها السوداوين عمقا والتماعا. أضاف وهو يحدّق في الأعين المحيطة به :

ـ وأنا واحد من أولئك الفتيان!

تعالت الآهات من حوله مرة أخرى لتدل على وقع المفاجأة المنتظرة، وواصل الفتى :

ـ نعم صار اسمي بدرو بيجارانو بعد أن كنت بدر الدين الحجر ومن حسن الحظ أن سمح لعمّي بالبقاء لأنه مترجم، وإلا مصيري مثل مصير الآخرين، والله وحده يعلم أين هم الآن

أنهى بدر الدين كلامه وهو ينكت الأرض بعود حطب صغير ليداري تأثره، ورفع رأسه بعد انتهاء الحديث فألقى العود الى النار وحوّل بصره ناحية مرجانة، فرأى دمعتين تغادران في نفس اللحظة عينيها السوداوين، وتلتمعان بتراقص لهب الموقد، ثم تستقران على جانبي فم في حمرة حب الملوك. وعمّ إثر هذا الحوار سكون لا يقطعه إلا غليان القدر أو فرقعة أعواد الحطب، الى أن قام وكيل الزاوية ليفرق الأرغفة ويدعو الجماعة الى ذكر الله، فهو وحده القادر على كل جبّار.

واصلت القافلة في الغد الصعود نحو الروابي المواجهة للزاوية، ولكن على ظهر الدواب لوعورة المسلك، واتجهت الى قرية العالية كما أشار الوكيل، فإذا هي دور قميئة متراصّة، يتوسطها جامع صغير تحاول مئذنته القصيرة مطاولة سماء زرقاء صافية.

نبحت الكلاب تستقبل الغرباء بشراسة تدربت عليها، وحاولت مهاجمتهم، فهشّها أحمد الجيار بالعصا، وأطلق الزمزمي النار من بارودته فأفزعها وجعلها تتقهقر. وبفعل ما حصل من ضجيج أطلت من السطوح أشباح ملتحفة بأردية صوف خشنة، وشرعت تلقي الحجارة ناحية القادمين، وتطلق صراخا غير مفهوم. توقف الموكب لتقييم ما يحدث، فتقدمه وكيل الزاوية رافعا عمامته وكاشفا عن وجهه بجلاء، وصاح بأعلى صوته معلنا عن هويته وهوية مرافقيه، ثم التفت الى الزمزمي ليلومه على استعماله للبارودة، وليطلب منه رفع السنجق فوق رؤوس الجميع ليراه أهل القرية ويحسوا بالأمان وأضاف :

ـ ألا ترى أنك أرعبتهم، وهم الذين قاسوا الأمرّين من هجمات الأعراب؟ والنتيجة أنهم رمونا بالحجارة من فوق السطوح معلنين الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وديارهم.

سأل بدر الدين

أليس لديهم حرّاس للذود عنهم وقت الحاجة؟

أجابه الوكيل

ـ الحرّاس من أبناء القرية ذاتها، ولكنهم يتناوبون بالليل، أما بالنهار فالجميع يعملون في الحقول، وليس في القرية غير النساء، وهم من تراهم فوق السطوح.

ظلت القافلة واقفة مكانها لا تتقدم، ورفع الزمزميّ السنجق فوق رأسه وحركه يمنة ويسرة، فعمّ السكون لحظة وتوقف رمي

الحجارة، وصياح الأشباح المتحركة فوق السطوح، وفجأة انطلقت زغرودة طويلة بدأتها امرأة ثم شاركت فيها كل النساء.

انفرجت أسارير بدر الدين، ورنّت الزغرودة في أذنه كلحن مطرب لم يسمع مثله منذ زمن بعيد، والتفت ناحية مرجانة فرآها تتأمله بابتسامة صافية. غمر قلبه فرح مفاجئ، وأطلق زفرة طويلة لكن لأسباب أخرى غير التي أثقلت صدره في الليلة الماضية.

برز أطفال من فجوات الأزقة وتقدموا نحو الزائرين وهم يطردون الكلاب التي ألصقت ذيولها بقوائمها الخلفية وعادت من حيث أتت. ابتهج بدر الدين لرؤية الأطفال ابتهاجا إضافيا ونظر ناحية وكيل الزاوية وهو يبتسم :

ـ ألم تقل أنه لم يكن معهم أطفال؟ انظر الآن...

ردّ الوكيل على ابتسامة الفارس الاسباني بمثيلتها وهو يتمتم :

ـ تبارك الله.. ما شاء الله، هؤلاء أولاد إفريقية.

طلب أكبر الصبيان من القادمين دخول الجامع إن أرادو الراحة والتبرّد في انتظار رجوع الرجال من الحقول. تأمّل بدر الدين هذا الصغير ابن السبعة أعوام بحنان، متصورا فيه نفسه يوم فارقه أبواه. وحدّث نفسه بأن الشاب أوفر منه حظا إذ ولد في أرض النجاة، ولم يتعذب عذابه. مدّ إليه يدا للمصافحة، فتردد الصبيّ برهة ولم يعرف لأول وهلة ما يصنع، وبعد أن نظر في عيني بدر الدين، وخفض عينيه لتأمل الكفّ الممدودة، قهقه عاليا وصفق يده الصغيرة بقوة في يد الفارس، فجذبه هذا بقوة وبحركة فجئية

رفعه على كتفه. وقبل أن يفيق الطفل من دهشته تعالت ضحكات وتهليلات أصحابه، وعم الجميع جو مرح زادت روعته زغرودة ثانية قادمة من السطوح.

لم يصدّق أولئك الفلاحون البسطاء أن ضيوفا من العاصمة حلوا بالقرية الصغيرة. لم يتفاءلوا كثيرا بالخبر بل تعجبوا، وربّما خافوا، فمنذا يعرف مكانهم؟ وما حاجة الناس بهم، وهم المنقطعون عن وطنهم الأصلي، المنعزلون كأن لا شيء يربطهم بالموطن الجديد؟ فهل هي الدولة بعثت تطلب معونة أو جباية؟ فما الذي تطمع فيه، وماذا يمكنهم أن يعطوا وهاهي الحقول الصغيرة التي اقتلعوها من حجارة الجبل لا تكاد تكفي لمؤونتهم؟ ساءلوا وتساءلوا فما عرفوا مَن الزوار وما غرضهم؟

جاءوا مباشرة الى الجامع بأدواتهم الفلاحية، فوجدوا الضيوف قد افترشوا حصيرا في الفناء والمؤدب الشيخ يحدثهم كيف انتقلوا من السهل بعد غارات البدو، لينشئوا هذه القرية التي سموها العالية، لأنها عالية فعلا، بالنسبة الى مستقر أول اختاروه وتفاءلوا بتسميته غرناطة، لكن خاب فألهم كما خابت أمانيهم جميعا. علق بدر الدين على قول المؤدب :

ـ يا ليتهم ما استعملوا اسم مدينة تشتت أهلها وأدركهم ما تعلمون

حك المؤدب المسنّ رأسه كأنما لينشط ذاكرته التي خانته كثيرا عند روايته للأحداث وقال :

ـ صحيح لم نتذكر ذلك

ـ ثم لماذا لم تحتاطوا عندما اخترتم المكان الأول؟

ـ صحيح . . . لماذا؟ . . الحقيقة لا أعرف .

ابتسم الضيوف من حركات المؤدب وأجوبته، وأوقفوا النقاش معه رأفة بسنه المشرفة على التسعين، وفي لحظة توقّفهم عن محاورة الشيخ دخل رجال القرية ووقفوا ينظرون الى الضيوف خجلين مترددين، كأنهم نسوا كلمات الترحيب وطقوس استقبال الضيوف . وقف الوكيل وهو الشخص الوحيد المعروف لديهم مظهرا البشاشة وسائلا :

ـ سأرحّب أنا والجماعة في البداية بالقادمين الجدد، ثم يتبعني أهل العالية للترحيب بي وبمن معي، أليس كذلك يا سيدي المؤدب؟

نزع الشيخ عمامته وهرش رأسه جيدا ثم أجاب :

ـ إذا أردت أن يكون الأمر كذلك . . . فليكن كذلك!

انطلقت الأسارير وتقدم الفلاحون خطوات نحو الضيوف وبدأوا مصافحتهم واحدا واحدا . وجاء قادمون جدد ففعلوا مثل من سبقهم، الى أن امتلأ صحن الجامع الصغير، وانسدّ بابه بالأطفال الصغار يدفعهم الفضول، لأنهم لم يعرفوا في حياتهم بشرا غير أهل قريتهم .

بدأ التعارف بصورة فوضوية، واختلطت الأصوات والأسماء، فهذا يذكر اسمه وأسماء أبنائه، وذاك يذكر أسماء أجداده كلهم، وآخر يكتفي بذكر لقبه أو نسبته الأندلسية . تدخل وكيل الزاوية

ـ سنقضي ليلتنا بينكم، ليكون لدينا وقت كاف للتعارف، وهذا بالطبع إذا قبلتمونا ضيوفا في هذا الجامع .

قال المؤدب بصوته المرتعش :

ـ زيارة النبي لا بد منها .

ربت وكيل الزاوية على كتف العجوز قائلا :

ـ ثلاثة أيام يا سيدي المؤدب، لا نرد كلمتك ولا نخالف سنة الرسول .

ضج جميع الحاضرين يصلّون على النبي بصوت واحد، وعلى إثر ذلك بدأ القرويون في الانصراف ليتفقدوا أسرهم ويتدبروا عشاء الضيوف ومبيتهم . بعد أن فرغ صحن الجامع اقترب أحمد الجيار من بدر الدين، وكان واقفا بجنب الباب في صمت ووجوم، وسأله :

ـ لم أرك تكلمت مع الجماعة، وانما ظللت تراقبهم من بعيد .

ـ كانت عيناي تبحثان عن ملامح أبي، وأذناي تقارنان بين ما أسمع ومخزونات ذاكرتي عن صوت أبي وهو يناديني في بيتنا القديم .

ـ وهل عثرت على دليل؟

ـ سمعت ما يشبه لهجة قريتنا . . ورأيت في الوجوه والقسمات ملامح أبناء الحجر الأحمر لكنني لم أمسك بعد بطرف الخيط .

مازلت مرتبكا بعض الشيء.

ـ الفرج قريب... لا تيأس يا بدر الدين!

ـ إنني لم أيأس يا عم أحمد، ولن أيأس ما دمت معي تعينني وتأخذ بيدي. واذا قدر الله ولم أعثر على أبي وأهلي فسأعتبرك أحسن عوض عن أبي، وسأجد في عائلتك أحسن عوض عن عائلتي.

ـ الله يعلم ما في الأنفس... وهو يعلم أنني أعتبرك واحدا من أبنائي، وأنني عاملتك وسأعاملك مستقبلا مثلهم تماما.

ثم التفت الى أطفاله المرتكنين بعيدا عن حلقة الرجال، وقاد بدر الدين من يده ناحيتهم، وقال كأنه يقدمه لهم أول مرة :

ـ اسمعوني يا أولاد.. سواء وجد بدر الدين عائلته أو لم يجدها فانني أتبناه منذ اليوم، وعليكم اعتباره أخاكم الكبير، تحترمونه وتعاشرونه معاشرة الإخوة من عائلة واحدة.

ثم خاطب مرجانة متلطّفا

ـ ارفعي العصابة عن وجهك يا ابنتي، فلم يعد بدر الدين جنديا إسبانيا، ولا مهاجرا أندلسيا، وإنما واحدا منا ومن عائلتنا.

خفضت مرجانة حجابها الى ما تحت الذقن، ونظرت الى بدر الدين بعينيها الواسعتين، فلم يعد الجامع الصغير يسع جسم الفتى ولا روحه، بل ونسي أين هو؟

سارت محلّة رمضان باشا والي الجزائر تحاذي نهر مجردة في طريقها الى حاضرة تونس، فالقائد سنان، في حصاره للبستيون وتصفية الحساب القديم مع السلطان الحفصي حليف النصارى، في انتظارها وفي انتظار محلّة طرابلس للمعونة والإسناد. كان العدد يتجاوز الألفي فارس بكامل عدتهم وبمدافعهم المحمولة على عربات تجرها بغال قوية، ومعهم جند زواوة بزيّهم المتميّز وقرابيناتهم الطويلة، كانوا يمشون بالنهار ويعسكرون لمبيتهم ليلا، وغالبا ما يختارون لذلك الأماكن المرتفعة أو المكشوفة لتسهل الحراسة والمراقبة.

وبينما كان الجند يهيئون الخيام ذات مساء سمعوا أصواتا تطلب النجدة من مكان غير بعيد، فاندفع بعض الفرسان بأمر قائدهم لمعرفة مصدر الصوت، وداروا خلف الهضبة، فوجدوا آثار نار وبقايا خيمة ممزقة حولهما أواني مكسرة وملابس مبعثرة، وعلى الأرض أربعة رجال تسيل منهم الدماء.

اتضح للجنود أن معركة دارت في المكان وتلك آثارها. آخذوا الرجال الى رمضان باشا فإذن بعلاجهم وسألهم عما حصل. من كلامهم علم أنهم مغاربة يقصدون الحجّ عن طريق تونس فداهمهم الأعراب، وسلبوهم المؤونة وزنجيا كان يخدمهم، كما ساقوا معهم الخيل بما تحمل.

قال كبير الجماعة وكان برأسه جرح غائر :

ـ لم يقبلوا احتجاجنا أو مقاومتنا، ولولا لطفُ الله لقتلونا

ويبدو انهم جياع مثل سباع أمسكت فريسة لو رأيت كيف ارتموا على زادنا القليل يلتهمونه التهاما لتصورتهم لم يروا الطعام منذ شهور

تنهد رمضان باشا وقال لمحدثه :

ـ تلك هي حال البلاد هذه الأيام، جوع ولصوصية وفتن. ومع ذلك لا بد من تعقّب المعتدين واستعادة ما ضاع منكم، ولا عذر لمن يعتدي على غيره من جوع أو من غير جوع.

ثم نادى فريقا من زواوة فكلفهم بالبحث عن الجناة في كامل المنطقة وجلبهم الى المحلّة مع ما نهبوه، ولو تطلب ذلك وقتا طويلا. والتفت الى المغاربة فطمأنهم :

ـ رجال زواوة يعرفون المنطقة وأهلها لكثرة ما تنقلوا ذهابا وجيئة بين الجزائر وتونس، وسيعيدون إليكم ما فقدتم، وفي انتظار ذلك أنتم ضيوف المحلّة ترافقونني الى حاضرة تونس، ومن هناك ترحلون مع وجق باشا طرابلس عند عودته، فتحجّون وتدعون لنا في الكعبة الشريفة.

صاحب الجماعة رمضان باشا طول الطريق، وهو يقربهم منه متفائلا برفقتهم وهو قاصد الغزو، وحرص على مطاردة من اعتدوا عليهم الى أن ظفر بهم واسترد منهم ما نهبوه، وخاصة المال والدواب والعبد، أما المؤونة واللباس فتنازل الحجاج عنها صدقة، ثم حلفوا على رمضان باشا أن يعفو عن اللصوص ويطلق سبيلهم، فقال :

ـ إكراما لكم سأطلق سبيلهم، خاصة وقد استرددتم حقوقكم،

لكن لا بد لهم من الفلقة والعصا، حتى يتأدّبوا وينتهوا عن السلب والنهب.

ثم إنه جلدهم في مشهد حضره الجند، وضحكوا لمرأى رجال من عتاة البدو يلقى بهم أرضا وترفع أرجلهم لتجلد بالعصا كأطفال الكتّاب. ولم يسع الضيوف إلا التأثر بما حدث، والحضور ليلا الى خيمة الباشا لشكره، فاغتنم المناسبة ودعاهم الى العشاء معه.

عرّفه الجماعة بأسمائهم كاملة وبمراكزهم في المغرب، ورووا شيئا من أخبار بلادهم وأحوالها، وما يجري فيها من عدوان النصارى على ثغورها، واستماتة الناس في مقاومته ودحره. قال رمضان والتأثر باد على وجهه :

ـ لكن علة تونس هم سلاطينها الفاسدون المفسدون. . . يستعينون بالأجنبي على بني دينهم وملّتهم، همّهم الوحيد الاحتفاظ بالحكم، حتى ولو تقاسموه مع نصراني كما فعل محمد بن الحسن الحفصي الذي يسكن القبطان الاسباني معه في القصبة، ويجالسه في سقيفتها للحكم.

عقب أحد الضيوف على كلام الباشا :

ـ سمعنا بشيء من هذا، لكن ظنّناه مبالغة ونقدا من معارضي السلطان.

ـ أبدا. . . وانما هو السوس ينخر الدولة ويزيل هيبتها إذا مال حكّامها إلى الظلم وسوء التدبير، فتهلك ويهلكون معها واحدا

بعد آخر، وليس أدهى وأمر مما فعله السلطان أحمد بأبيه الحسن، إذ أزاحه عن الحكم ثم سمل عينيه والعياذ بالله.

تعوّذ الحاضرون واستلطفوا، واشتاقوا أن يزيدهم رمضان باشا من تفاصيل الأحداث وكأنه عايشها. قال كبير الجماعة وهو يسوّي ضمّادات جرحه :

ـ يا ليتك تزيدنا تنويرا وعلما بما حدث في تونس، لأن أخبارها شحيحة في المغرب، خاصة منذ انعدم الأمن في الطرقات وصعب تنقل الحجيج.

فصّل رمضان باشا الحديث عن أحوال بني حفص وفتنهم إلى أن بان على الضيوف التعب لما طال السهر وتقدم الليل، فأذن لهم القائد بأخذ ما يلزم من الراحة، على أن يواصلوا حديثهم في الليلة الموالية. ولم تكن إصابات المغاربة بالغة أو خطيرة، وإنما هو الإرهاق وبقاؤهم ليلتين بلا نوم أو طعام قد أضرّ بهم، خاصة بعد أن قطعوا مسافة طويلة في هذا السفر المضني.

في المساء الموالي بعد ما نصبت الخيام للراحة استدعى رمضان باشا ضيوفه للعشاء والسمر، فجاؤوه أنشط من يومهم السابق. قال وهو يراهم في تلك الحال :

ـ سأسمع الليلة من شيخكم المبجل، نفعنا الله بعلمه، ما وعد بروايته عن هجرته من بلاد الأندلس.

شكره الرجل المعطوب الرأس، وشرع يحكي عن خروجه متنكّرا في قارب لبعض النصارى قطع به البحر في يومين إلي بلد

يسمى «البريجة» ليس بينه مراكش إلا الثلاثة أيام مشيا. . . قال :

ـ كان البلد على ملك النصارى. . . افتكوه من أهله وحصّنوه بالحجر الصلد الغليظ، حتى أنني شاهدت ثلاثة فرسان يدفعون خيلهم جملة على السور ولا يخافون الوقوع منه. وكان معي صاحب من بلدي تقدم نحو قبطان البرج عند وصولنا وقال له : «وقع لنا خصام مع أناس ببلاد الأندلس، فهربنا من انتقامه وجئنا إلى حرمتكم». فرحّب بنا وأعلمنا أن بلده آمن لا يخرج منه أو يدخل إليه أحد إلا بإذنه. خشينا أن يكتشف قصدنا فتظاهرنا أول الأمر بحب التجوّل بين البساتين المحيطة بالبلدة، إلى أن وجدنا ذات يوم غفلة من نوبة الحراسة، فاختفينا بين الأشجار إلى أن أتى الليل وأغلقت الأبواب.

قال الباشا متشوقا إلى باقي الحكاية :

ـ ألم يتعقبوكم ولهم كل تلك الحراسة التي ذكرت؟

ـ بدأنا نمشي على حاشية البحر قاصدين مدينة أزمور وهي أقرب المراحل على طريق مراكش. وبعد ساعة سمعنا طلق البارود، ومع ذلك بقينا نمشي الليل كله متوقعين أن تصل إلينا خيل الحراس في كل لحظة. ومع طلوع النهار بلغنا حقول أزمور فخرج إلينا أهلها بالسلاح والخيل كأنهم في انتظارنا، وقال لنا بعضهم : « سمعنا طلقة المدفع الكبير عند الصبح فعلمنا أن أحدا هرب من برج النصارى».

ثم بلغنا أزمور فأقبل علينا قائدها محمد السفياني مرحّبا وبعث

يخبر السلطان مولاي أحمد بقدومنا، فرد عليه بعد أيام وأمره أن يمشي إلى حضرته في عيد الإضحى، ونحن معه.

قال الباشا :

ـ بعد هذا كيف يمكن أن نقارن بين أهل الأندلس الفارين بدينهم، رغم ما وفرته لهم دولة النصارى الجديدة من مغريات ليخرجوا من جلودهم ويرفضوا أصولهم، فخيّروا الهرب ومواجهة الموت في كثير من الأحيان... وبين أناس يبيعون أنفسهم وذممهم بمحض الاختيار وبكلّ راحة البال طلبا لسلطان موهوم أو رزق يزول.

وأضاف أحد المغاربة :

ـ يحدث هذا وأكثر منه حين تضعف الدول وتأذن بالزوال، وليس بنو حفص أول من استعان بالنصارى وارتمى في أحضانهم، فقد سبقهم بقايا بني مرين في المغرب بعد زوال دولتهم، إذ انتقلت فلول منهم الى أروبا، وأغلبهم تنصّر وتسمّى بأسماء أعجمية، ومن أشهرهم قسبار بنيمرين، الذي يعيش الى اليوم في نابولي، وسبقهم كارلوس دي أفريكا ابن الملك حسن آخر بني زيان ملوك تلمسان... فالمصيبة كما ترى عامة شاملة.

التفت رمضان باشا نحو الشيخ وقال :

ـ أعتذر يا شيخنا عن هذا الحديث المؤلم، والآن حدثنا عن سفارتك لدى الفرنجة.

ـ كانت متعبة للروح والبدن، إذ رأيت فيها ما بلغه القوم من

تقدم ورقي في تنظيم شؤون دنياهم وترتيب معاملاتهم، وفي تنفيذ أحكام السلطان بمقتضى العدل والإنصاف، حتى ولو كان الحق متعلقا بأعدائهم في الدين، من ذلك ما حصل مع قاض بمدينة بوردو تعلقت شؤون كثيرة مما كلفت به بمشورته، فكان ينصحني ويرشدني الى قوانين بلادهم، وهو يحذق لساننا. وقد وجبت له عندي دراهم كثيرة، فلما أردت دفع أجرته ما قبل مني درهما واحدا. ومن شدة الألفة التي نشأت بيننا قال لي ذات يوم: «يا فلان، أنا أتعجب كيف أنت على دين المسلمين؟» وبدأ يرغّبني في البقاء عندهم والتديّن بدينهم.

ضحك الشيخ وضحك الجماعة، أما رمضان باشا فاستنكر طلب النصراني :

أستغفر الله، وهل وصلت به الجرأة الى هذا الحد؟

قال الشيخ :

ـ إنما قال ذلك تحبّبا وتقربا، ولما يروج في بلادهم من أن بلاد المسلمين لا تشتمل على فقهاء أو علماء، حتى بدا لهم أنني صنف نادر الوجود. والحقيقة أنني وجدت في بلاد الفرنجة، وفي هولندة بصفة خاصة، علماء يتكلمون في التصوّف، وبعضهم لديهم نسخ من القرآن يحاولون فهمه وترجمته، وقد تناقشت معهم في كثير من معانيه. ومن اللافت للانتباه أنه ظهر في تلك البلاد عالم اسمه لوثر، وعالم ثان اسمه كلفن، كتب كل منهما ما ظهر له من تحريف في دين النصارى، والخروج عن تعاليم سيدنا عيسى، وهاجما البابا المقيم برومة يُضلّ الناس بعبادة الأصنام، وبما يزيد

تبّاعه في الدين من منع تزوّج الرهبان وأمور أخرى غيرها، وقد دخل جميع أهل هولنده في هذا المذهب. ومثلهم أهل سلطنة الانكليز وكثير منهم بفرنسا أيضا.

قال الباشا

ـ فهم بهذا أقرب الى عقيدة المسلمين من غيرهم

ـ بالطبع... وإن علماءهم يحذرونهم من عبادة الأصنام، ويوصونهم بعدم كراهية المسلمين، ولذا وجدتهم أكثر ميلا إلينا وأقل تعصبا من الإسبان. ولما دخلنا مدينة ليدا رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم، ووجدت فيها رجلا يقرأ بالعربية ويقرئ بها غيره، ويأخذ راتبا على ذلك، وقد تناقشت معه كثيرا في أمور اللغة والدين.

ـ فهم عارفون بأمورنا ونحن غير عارفين

ـ نحن عارفون أيضا بما عندهم وأكثر منهم أحيانا، وقد وضعت كتابا أبيّن فيه جهل بعضهم بكثير من حقائق ديانتهم كما أنزلت على عيسى، وقبل أن تُبدّل.

ومضى الضيف يفصّل حديث مناقشاته مع النصارى والقساوسة، والباشا متعلق بكلام ضيفه، معجب بسعة علمه وقوة حجّته وذلاقة لسانه. وقضوا ليلتهم تلك في ذكر بلاد أروبا.

كان من المقرر أن تنزل المحلة في مساء اليوم الأخير من الرحلة بمنطقة سيدي علي الحطاب القريبة من العاصمة، وأرسلوا من

يخبر القائد سنان باشا بوصولهم لكي يأذن لهم بالدخول، ويعيّن لهم مركز انتصابهم، لكن الجنود فوجئوا عند اقترابهم من زاوية الولي الصالح بقوم ينحدرون من أعلى الهضبة، ضاجين منادين بأصوات مختلطة، لا يبين منها كلام مفهوم، فانزعج الجند وخافوا أن تكون في الأمر مكيدة، فأطلق بعضهم النار في الهواء، واتخذ آخرون مراكز دفاعية احتياطا.

أمر الباشا بالتوقف، وأرسل فريقا من عشرة فرسان لصدّ ذلك الزحف البشري والاستفسار عن مقصده، وبعد أن كان ينوي الأمر بنصب الخيام وحط الرحال توقّف وانتظر حتى يأتيه خبر عما يحدث. وقد تبيّن أن الزاوية تعجّ باللاجئين من أهالي الحاضرة، تركوا ديارهم للاسبان وجاءوا الى هذا المكان، كما ذهب غيرهم الى نواحي أخرى في الريف، وقد أمر الباشا بأن يُعادوا الى مبنى الزاوية وتعطى لهم مؤونة من عوين المحلّة، مع طمأنتهم بأن جيش السلطان سليم يقاوم الاسبان وسيأتيهم الخبر قريبا عن هلاكهم أو مغادرتهم البلد.

هدّأ الجند ما استطاعوا من ثائرة أولئك الجائعين المشردين، وطلب الباشا أن يأتيه وفد من عقلائهم يحدثونه عن آخر أحوال المدينة وأهلها. وقد حضر الضيوف المغاربة مع الباشا في خيمته عندما جيء إليه بثلاثة رجال عليهم آثار نعمة زالت، وخلّفت شحوبا واصفرارا وملابس رثّت واتّسخت. ظلوا واقفين وعيونهم الى الأرض، فكلمهم الباشا برفق ودعاهم الى الجلوس، ووصف حالة الناس والبلد، فلم يتمالكوا عن الإفاضة في الوصف، وليس فيه إلا ما يدمي القلب ويؤلم، ومع ذلك استنكر الباشا

ترك   لمدينتهم بين أيدي العدوّ

ـ كنت أتصوّر أن المرء إذا أخذ منه بيته وماله وبلده هان عليه الموت ولم يعد له ما يخاف منه. . . أليس كذلك؟

أحد الثلاثة صامتا الى ذلك الوقت، لكنه الآن رفع يده

ـ يا جناب الباشا! هؤلاء الذين قلت أنهم أخذوا كلّ شيء إنما أتى بهم المولى السلطان مبجّلين لمساعدته وطلب منا الإفساح لهم في بيوتنا، ومقاسمتهم مؤونتنا إلى أن يبنوا قصبتهم. لكن نية الغدر كانت مبيّتة في ضمائرهم فأطلق عنانها قائدهم دون خوان إذ أعطى إشارة التخريب من أول ما دخل تونس وزار جامع الزيتونة. هل تعلم بأنه خلع أعمدة الرخام الوردي من الجامع، فنقلها الى سفينته ولم يتحرك السلطان؟ هل تعلم أنه نقل أحمال الكتب من خزائنها الى معسكره ولم يتحرك السلطان أيضا؟ وأحس الغزاة بضعفنا وتخاذل حكامنا، فبدأوا ينهبون بحذر في أول الأمر، ثم لما لم يردعهم أحد تجولوا بالفؤوس من دار لدار، يحفرون الجدران والأعتاب واقتلعوا أرضيات الغرف والمقاصر، فإذا وجدوا مخبآت أخذوها وإذا لم يجدوا انتقموا من أهل الدار بتكسير جرار الزيت وبعثرة العولة في الشوارع، وأحيانا يعملون الفأس في البيت كله فيتركونه ركاما، أو يقتلعون الأبواب وأخشاب السقوف ليتدفأوا من صقيع الليل.

لقد رأى الناس يا باشا سوقا منصوبة بين باب بحر والبحيرة طولها ربع ميل تباع فيها ألبستهم وأدواتهم وحليّهم، وتحتوي على

صنوف من الزرابي، و لمطروزات والحليّ والجواهر، وأواني الفضة وكل ما يتصوره المرء، إنهم تجار من صقلية يقفون على جانبي الطريق متراصين ينادون على أشياء نهبوها بأنفسهم أو قايضوا عليها الجنود. فإذا كان دون خوان أعطى المثال ونهب أقدس مكان في البلاد فما الذي سيردع العساكر ومن سيقف في وجوههم؟ وإذا كان سلطان البلاد، رأى أعمدة الجامع تقلع ويأخذها النصارى، وسقوف الخشب المنقوش تسرق من قصبته وقصوره لتزين مساكن ضباط البستيون، فأي بيت وأي وطن وأيّ مال، بل وأي شرف يبقى للانسان حتى يجد الشجاعة ليدافع عنه؟

وسكت الرجل محتقن الوجه من الألم والتأثر، فعمّ الوجوم كامل القاعة، وظل الباشا يدور ببصره بين الحاضرين دون أن يجد ما يقول.

أكبر رجال القرية سنّا هو المؤدب، احتفظ أكثر من الجميع بذكريات الهجرة وأحداثها، وبأسماء العائلات التي رافقته في السفينة وفي قوافل الترحّل، ولكن الزمن أثر فيه وأضعف ملكاته، فضاعت في ثنايا النسيان أحداث هامة، وتفاصيل كثيرة لو دُوّنت لملأت كتبا، حتى لقد صار الرجل يخلط تاريخا بتاريخ، وأولا بآخر، ويبدل الأسماء ويحرّف بعضها، ويخلط بين الأنساب، لذا غلب على أحاديثه السهو، وكم مرة بدأ رواية ولم يستطع الوصول إلى نهايتها.

اقترب منه آحمد وبدر الدين محاولين معرفة العائلات التي تؤلف القرية وأصولها وأمكنة قدومها وأسماء بعض أفرادها، وسأل بدر الدين :

ـ لما جمعكم الاسبان في دانية وقاموا بالفرز، لم يكن الناس جميعا قادمين من جهة واحدة. . . أليس كذلك؟

ـ طبعا يا ابني. . . طبعا

ـ إذن من أي الجهات كانت الغالبية؟

ـ من جهات شتى يا ابني. . . من جهات لا يعلمها إلا الله.

ـ أنت مثلا من أي منطقة قدمت؟

ـ أنا نشأت في مرج أخضر كبير، يكثر فيه الرعاة وتسمّن أبقار من نوع ممتاز لا أتذكر الآن ما يطلق عليه.

ـ وما اسم هذا المرج؟

ـ اسمه مرج بيّانه ويقع بين نهرين.

ـ هذا مرج واسع، وفيه قرى ومدائن كثيرة، ما اسم قريتك أنت؟

ـ اسمها عند الإسبان أجيلار ونسميها نحن العرب بلّي. . . وقد عادت فيما بعد الى اسمها الأول.

ـ عرفنا قريتك . . . فهل ركب معك نفس السفينة جماعة من قرى أخرى؟

ـ لا أدري، ولكن هذا ممكن إن فكّرنا بالعقل.

ـ كيف. . . ألم يسأل بعضكم بعضا. . . ألم تتبادلوا المعلومات؟

ـ لم نكن في حال تسمح بذلك أبدا. . . انشغل كل واحد بهمومه وبعائلته، كان على الفرد أن يتفقد عائلته كل حين ويعد أفرادها بأصابعه، فمن حيْن لآخر نسمع صياح رجل لم يعثر على أخيه أو ابن عمه، أو بكاء امرأة افتقدت ولدها، إما ضاع منها أو سرقوه أو تاه في الزحام.

ـ أو يكون الإسبان احتجزوه. . ألم تعلم أنهم أبقوا الصبيان والبنات دون السابعة عندهم ليفرقوهم بين القسس وينصّروهم؟.

ـ أعوذ بالله. . هل حدث هذا بالفعل؟

ـ حدث يا سيدي الشيخ، ولعلك نسيت.

ـ هذا صحيح. . . هناك أشياء كثيرة ضاعت من ذاكرتي، لكن أبناء القرية ما زالوا يتذكرون، وفيهم بعض الشبان.

قال أحمد الجيار :

ـ أي شبان يا عمي؟ قريتكم لا تضم إلا كهولا على باب الشيخوخة، وأطفالا صغارا ولدوا بعد النّفي. حدثنا إن استطعت عن وصولك وأيامك الأولى بتونس. ألم تنزلوا ضيوفا على زاوية القشاش؟

ـ صحيح نزلنا في زاوية. . . هل هذا هو اسمها؟ يبدو أن لها

اسما آخر!

ـ تعرف أيضا باسم شيخها أبي الغيث.

ـ صحيح هذا اسمها الذي أعرفه. إنهم أكرمونا غاية الاكرام وساعدونا في العثور على هذه الأرض، مع معونات هامة عوّضتنا عمّا سلبه منا قراصنة السّفن وقطاع الطرق.

بدأ صبر بدر الدين ينفد لأنه لم يصل الى معلومة ولو بسيطة تهمّ عائلته ومكان نزولها، وخاف أن يدعوه الأمر الى الخروج للبحث من جديد في جهات أخرى، أو ربما العودة الى تونس للبدء من نقطة الصفر.

التفت الجيّار ناحية بدر الدين وهمس في أذنه:

ـ لا داعي من الاستمرار في محاورة الشيخ، ألا ترى أن ذاكرته أضاعت كل شيء؟ علينا انتظار مجيء الرجال فقد نعلم منهم ما نريد.

وقام الرجلان إثر ذلك مستأذنين من المؤدب لتأمل قرص الشمس وهو يغرب في أقصى السهل الممتد تحتهم كالكفّ العريضة.

لم يبق الجيّار طويلا مع بدر الدين، عاد الى فناء الجامع ليتفقّد صغاره، فاقتعد الشاب حجرا أملس، وسرّح بصره في الملكوت المترامي سهولا ومزارع وخضرة لا تحدّ، ولا يكلّ منها البصر. هاهي يا بدرو مزارع الحجر الأحمر وخضرتها وشمسها الغاربة... أتتذكرها؟ أليست هذه روعة الغروب، وكنت في

صباك تقف مندهشا مبهورا لتشاهدها كما تفعل الآن؟ كم مرة خرجت الى الحقل ترقب المغيب وتستقبل برودة الليل، وتطول جولتك حتى يخاف عليك أهلك ويعلو صوتهم يناديك من بعيد؟ هذه هي شمس الله ذاتها التي رصدتها في الحجر الأحمر، ولكن صوت الأهل غائب، لا تسمعه أذناك. وحقل العنب غائب هو أيضا لا تراه عيناك، هل ضاعوا إلى الأبد؟ هل تشتتوا ولا أمل في جمعهم؟ هل رأيت أين هم أيتها الشمس؟ ساعديني بخيط أمل يدلني على أهلي... حتى لا أقضي العمر بحثا عنهم من أرض الى أرض.

ستبحث يا بدرو بلا يأس أو كلل، وستجدهم مهما طال البحث، ولكن من ذا سيساعدك ويصاحبك طول الوقت وينتقل معك من بلد الى بلد؟ وأين الأمان في الطرقات وبين الحواجز وهذه حرب السلطان على الترك وعلى الاسبان وعلى أبناء بلده وعلى عربان البادية مشتعلة في كل مكان؟ الجميع في خصومة دائمة ومعارك لا تنتهي... فأين الأمان، وأين القوت، ومتى العثور على الضائعين؟

إذا كان أبوك قد وصل سالما وهذا أمر لم يتأكد بعد، فكيف وصلت أمك؟ ألم تؤخذ الى السفينة فاقدة الوعي؟ أين أنت أيتها الأم المفجوعة في ولدها؟ هل يمهلك الموت والمرض وقساوة الناس حتى أراك؟ هل وصلت الطرف الآخر سالمة؟ هل مازلت تذكرين صبيّا استلّه من ذراعيك بشر قساة وتركوك ثكلى بقية الدهر؟ هل مازلت تذكرين عزيزك بدر الدين الذي فرض عليه اليتم حتى وإن كان أبواه على قيد الحياة؟ هل يئست من لقائه وأجبرت نفسك

على النسيان تخلصا من عذاب الانتظار؟ هل جففت دموعك وتلهّيت بمشاغل يومك وغدك عسى أن تطفئ السلوى نار أشواقك، وتمنح نفسك برودة الصبر والاستسلام لتصاريف القدر؟ كيف سلبوا حليّك يا أمي؟ هل لووا ذراعيك اللتين كنت أتوسدهما؟ هل جرحوا أصابعك وهم يستلون الخواتم؟ هل دسوا أيديهم في صدرك . .؟ سأقتلهم إن فعلوا ذلك وأنشر جثثهم لجوارح الطير. . . اروي لي كل ما حصل يا أمي عندما نتلاقى، وسأنتقم لك من كل أعدائك.

وأنت يا أبي . . . يا شيخ محمد كيف وصلت؟ وهل ابيضّ شعرك في الطريق من هول ما قاسيت؟ أعرف أنك صبور قليل الشكوى، هكذا حدثني عنك عمي أحمد، وحكى لي خوفه من [illegible] جسمك وضعف نظرك، فهل استطعت أن تقاوم بؤس ما حصل لك ولأسرتك؟ أن تتحمل عبء علتك ومسؤولية زوجتك وزوجة أخيك الحامل؟ ألم يتأثر جسمك بحسرة نفسك على فقدان ما ملكت من أمر دينك ودنياك، وما جمعت بكدّ يمينك في الحياة؟ هل حزنت من أجلي يا أبي ويئست من لقائي؟ هل أحسست بالثكل قدر إحساسي باليتم؟ لو فرقنا الموت لكنت يئست ونسيت وشغلتك أحوال الدنيا، أما شعورك بأني موجود لكن لا تراني، وشعوري أنا بوجودك دون أمل في أن أراك، فمعذّب محبط، يحرمنا كلينا من نعمة السلوى والنّسيان. وها أنا اليوم قريب منك، باحث عنك، لكن لا شيء يهديني الى مكانك. فاظهر يا أبي في ضوء النهار، أو نادني بصوت عال حتى أسمعك وأعرف مكانك.

ويا عم أحمد الحجري. . . يا خير من عوضتني عن الأب والأم، وهيأتني لخوض هذه المغامرة الكبرى، أتراك تعرف كم حرصت على أداء ما أوصيتني به وأرشدتني إليه، وأنني وصلت الى مكان أبي لكن دون أن أعثر عليه ولا على زوجتك الحامل؟ وهل أديت القسم الخاص بك من المغامرة؟ أتُراك خرجت من بلاد الأندلس سالما؟ مع من وإلى أي أرض خرجت؟ سأوقف حياتي للبحث عن أخيك وزوجتك وابنك منها وعن أمّي، ولن يهنأ لي عيش قبل العثور عليهم. فعجّل بالظهور يا شيخ أحمد لأن جمع شتات العائلة سيبقى بلا طعم، ولأن فرحتها لن تكتمل إلا بحضورك. . . فعجّل يا شيخ أحمد، وأعرف أنك ذو عزم شديد.

أحس بدر الدين بلسعة برد، فدلك زنديه يدفئهما وهو يلتفت الى الوراء، وكانت مرجانة تطل من سور الجامع القصير واضعة ذقنها على الجدار الأبيض، فلا يظهر سوى وجهها الصغير، أطلت به تراقب الفارس الجالس على الحجر، المستغرق في تأملاته، كعملاق بعثر أشياءه في ذلك السفح العريض، وأخذ يفرزها ويفحصها ويقلبها على كل وجه، باحثا عن شيء غامض مجهول. . . وتردّد في نفسها سؤال محتار : لم كلّ ذلك الحزن البادي على ضيفنا وعمّ تراه يبحث؟

تأملت مرجانة ابنة المدينة منظر الغروب بابتهاج كبير لأنها غير متعوّدة عليه، فهي لم تخرج الى الفلاة مطلقا، ولا شاهدت أراضي شاسعة كهذه، ولا تنفّست هواء نقيا شبيها بما يملأ رئتيها هذا المساء. أما بهاء الشمس وهي تكتسي بصفرة الأصيل، وأما

الشفق المحمر وهو يمتزج شيئا فشيئا بظلام الليل الى أن يندمج فيه، فذلك ما لم تتح لها رؤيته وهي بين جدارن البيت في ذلك الزقاق الذي لا تخرج منه، وان خرجت فإلى دار أخرى وزقاق آخر مماثل.

تطلعت من وراء السور بعينيها أولا، ثم أبرزت كامل وجهها لما اطمأنت الى خلوّ المكان، وبقيت تتأمل جمال السهل غطته الخضرة والنوّار، وتعاقبت خلفه الهضاب والسهول، فغمر نفسها الهدوء، وامتلأت رئتاها بهواء صاف منعش، ولما رأت الفتى احمرت وجنتاها وزاد إشراق وجهها، إذ اعتملت في داخلها مشاعر جديدة رغّبتها في احتضان الكون بأسره وامتصاص ما فيه من فرح وسعادة.

تأمّلت خصلات الشعر الأسود تغطي رقبة الفارس الاسباني، ومرت بنظرها على كتفيه العريضين، فأحست على البعد بمغناطيس قويّ يشد بصرها إليه، ويشيع في حواسّها خدرا لطيفا مسكرا، يأخذ خيالها الى عوالم لم تعهدها في حياتها كلها. إنها تشعر الآن كأن موجة دافئة تجذبها نحو بحر لا تراه، ولكن تحس بمياهه تغمرها، وبأحضانه تلفها، تدور بها في دوّامة تغطس بها الى أعماق حارّة حنون، لكأنها عروس في «حمّام التشليلة» يحتويها البخار وهمسات الفرح والأماني، ودفقات من الماء الساخن اللذيذ، فترتخي بين أيدي الحوارز والصّواحب، يدلكنها ويهيّئن جسدها البكر لعريس سكن قلبها منذ أول نظرة، وها هو قادم ببرنس أبيض يتلاعب به الريح ليأخذها بعيدا بعيدا، إلى مدينة لا تتشكل إلا في الأحلام، فيمشي ماسكا بيدها في شارع

مخصص للعرائس، ومن حولهما الناس يهتفون فرحا بقدومها كأنها أميرة متوّجة. ثمّ يركبها عربة مذهّبة يجرها غزلان بقرون طويلة وعيون كحيلة، إلى مكان تعلوه قبّة مرصعة بالزمرد والياقوت. ولما ترفع عينيها وتشهق من الدهشة والسعادة، ينحني عليها بدر الدين وقد تهدلت خصلات شعره الأسود على الجانبين حتى لا مست خديها، ويسألها:

ـ إذا شئت أن يتوقف الزمن يا حبيبتي فسآمره بذلك

ـ وهل هو طوع أمرك يا حبيبي؟

ـ بعد أن جمعنا يا نور عيني لم تَبْقَ له مهامّ كثيرة. فليتوقّف حتى ننعم بالساعة التي نحن فيها.

مشاعر غريبة، وأحلام عجيبة، شردت بها كلمح البرق، ثم أعادتها إلى حيث كانت، تتأمل بهاء ذلك الفتى الغريب في جلسته أمام السهل العريض.

مشاعر غريبة ما أحسّت بها إلا منذ نزل بدر الدين بيتهم، وعاش بينهم تلك الأيام القليلة على غير صفة واضحة. . . فهو لاجئ متخفّ، هارب من وجه العساكر بينما هو واحد منهم. . . هو هارب من زمازمة السلطان، ولكن السلطان متحالف مع الاسبان، فكيف يطارد جنود حلفائه؟ ثم تبيّن أنه أندلسي مسلم وليس نصرانيا، وأبوها يعامله مثل الضيوف، وها هو في النهاية يتبنّاه ويطلب أن تعامله الأسرة على هذا الأساس. نظرت ثانية الى خصلات الشعر الأسود وتمنت أن تمرر عليها يدها، ومدت يدها في الهواء فعلا، ثم سحبتها وقد ارتفعت دماء قانية تصبغ

جيدها وخديها، والتفتت حولها لترى ان كان هناك من راقب حركتها، ولما اطمأنت بدأت تدندن بأغنية تحفظها، واضعة كفها على فمها المبتسم للحياة.

جاء القرويون بالفرش والأغطية وقدور يخرج منها بخار خفيف، ثم أسرجوا الفتائل في الزيت وتحلقوا حول زوارهم للسمر والمؤانسة، وإتمام حديث العشيّ. افتتح الكلام وكيل الزاوية وهو معروف لديهم بحكم زياراتهم لضريح الولي قال:

ـ هذا الزمزمي خديم سيدي القشاش الذي أقمتم عنده فأطعمكم وآواكم وأخذ لكم موافقة السلطان على الإقامة بهذه النواحي من مملكته.

ضج المكان بعبارة «الشاي لله يا سيدي القشاش» ولهجت الألسن بالدعاء والثناء. وأضاف الوكيل:

ـ وقد وجهه الشيخ لحراسة هذه الجماعة واصطحابها الى ناحيتكم حتى لا يناوشهم الأعراب أو يتعرض لهم عساكر الاسبان في الطريق.

صاح رجل في آخر الصفوف:

ـ وهل وصل الاسبان ناحيتنا؟

ـ لا تخف. . . لم يصلوا ولكنهم يقطعون الطريق على الداخل أو الخارج من الحاضرة. . . وأظن الأمر مثل هذا أو أكثر في ثغر بنزرت، حيث علمت أنهم أرسوا سفنهم وبدأوا يبنون الحصون.

اختلطت الأصوات مرة ثانية، وتهاطلت الأسئلة تطلب مزيد الشرح لحالة العاصمة ولتوازن القوى، هل تميل لصالح المسلمين أو للغزاة. فعاد الوكيل يهدئ خوفهم ويقدم شروحا مقتضبة قبل الولوج في موضوع الضيوف، وقال:

ـ الجماعة المبعوثة من الشيخ القشاش تتألف في الحقيقة من شخص واحد هو هذا الشاب واسمه بدر الدين. أما العائلة المصاحبة له فهي من سكان تونس تطوعت لحماية الرجل الذي هو في الأصل جنديّ في عسكر السبنيول وفرّ. . .

لم يستطع الوكيل إتمام عبارته، إذ وقف فجأة بعض الحاضرين كأنّما لدغوا، وعلت صيحات عجب واستنكار تعيد وتكرر عبارات «عسكر السبنيول»، «يا عجبا كيف جاء؟» «ماذا أتى به إلينا؟»، ولكن الوكيل عاد بسرعة ليواصل الكلام مهدئا من روع مستمعيه. وهنا انبرى بدر الدين واقفا وأشار بيده طالبا من الوكيل أن يفسح له مجال الحديث، وقال بصوت مرتفع ليسمعه الجميع حتى الذين وقفوا بالباب:

ـ أنا بدر الدين بن محمد بن قاسم الحجري الأندلسي، وكنت متسللا في الجيش الاسباني باسم بدرو بيجارانو. افتعلت تلك الحيلة لأخرج من القفص الذي حاصرونا فيه من يوم افتكونا من أيديكم ونحن أطفال. . . ألا تتذكرون؟ تنصّر كل من بقوا غصبا وكرها، ومن عثروا على دليل بإسلامه أحرقه الإنكيزتور على الحطب وأهله يتفرجون. لم أجد سوى تلك الحيلة فغامرت بحياتي لألتحق بكم باحثا عن أهلي: أبي وأمي وزوجة عمي،

فأين هم يا قوم هل تعرفون مكانهم؟

علت همهمة في قاعة المسجد واختلطت الأصوات ثانية، واستدار كل واحد من الحاضرين نحو جاره يسأله إن كان لديه ما يرد به على الفتى. ولما طال انتظاره عاد يضيف الى ما قال :

ـ عائلتنا من الحجر الأحمر . . . ألا تعرفون قوما جاءوا من تلك الناحية؟ لا بد أن بعض أجوارنا جاءوا معكم، لقد رأيتهم يساقون في نفس وقت خروجكم. أليس بينكم من يعرف الحجر الأحمر يا ناس؟

قام رجل غليظ الجثة نفرت خصلات شعر أشقر من تحت عمامته وقال :

ـ نعم أنا أعرف بعض رجال الحجر الأحمر، فقد اشتريت منهم العنب والزبيب مرات لما كنا بالأندلس، لكنني لم أعثر على واحد من معارفي بعد قدومنا. هل يكونون ذهبوا الى بنزرت؟ هل يكونون صعدوا ناحية رأس الجبل ورفراف؟ لا أدري.

قام عجوز محنيَ الظهر محاولا إعطاء بعض المعلومات وقال :

ـ لم يخرج من جُمّعوا بوادي اشبيلية من طريق واحد، فمن لم تكن لديهم أموال كثيرة رغبوا في الخروج الى طنجة وسبته وركبوا إليها الأغربة الصغيرة من قادش وطريف، أما الذين ساهموا في كراء العشرين سفينة وهم الأغلبية فركبوا البحر الى تونس من ألكانتس، واختلط بعضهم ببعض خلال الرحلة، ولم يتمّ الفرز إلا بعد الوصول وكانوا على أسوإ حال، فهناك من مات في الطريق، ومن انكسر ونوافس ولدن في عرض البحر أو في الطريق الى هنا. لا فائدة الآن في تذكر تلك الأيام السود، لا أعادها الله.

صاح جميع الحاضرين بصوت واحد كأنهم في صلاة :

ـ آمين يا رب العالمين!

عاد الرجل الأشقر يقول :

ـ أغلبنا من لوشة وأنتقيرة واللّسّانة، وقد يكون جماعة الحجر الأحمر جاءوا معنا لكن حطوا في مكان ثان، وان شئت أخذناك ناحية الشطوط للبحث هناك.

لم ييأس بدر الدين، وأراد التأكد قبل الارتحال الى مكان آخر. قال :

ـ هل أنتم هنا كل سكان القرية ؟ أليس من غائب لم يحضر؟ . . ألا يوجد مريض في فراشه أومسافر؟

أجاب الرجل الأشقر بصوته الجبلي القوي :

ـ جميع الناس هنا . . . لم يغب أحد على حسب علمي.

قاطعه العجوز المحنيّ الظّهر :

ـ بلى . . . هناك من لم يحضر. فإلى متى تهملون حساب ضعفاء الحال والأيتام؟

عاد الرجل الأشقر يقول :

ـ أنا لم أهمل أحدا. . الرجال جميعا هنا.

وأدار بصره في الحاضرين من مدخل الجامع الى المحراب، وهو يهمهم كأنه يعدّ الموجودين، أو يستحضر أسماءهم، وأضاف :

ـ الجميع هنا. . . كل الرجال. لم أنس أحداً إلا الأطفال الصغار.

نطق رجل من الجالسين :

ـ وإلا النساء بالطبع.

واصل المتحدث الأول :

ـ الرجال ينوبون نساءهم. . نحن نحسب العائلات، وهنا يوجد عن كل عائلة رجلها. . . أي صاحب البيت.

قال الرجل العجوز :

ـ وإذا وجد بيت لا رجل فيه، هل ننساه؟ هل هذه هي المروءة، وهذا هو التعاون والتضامن الذي أقسمنا عليه اليمين من يوم وصلنا الى هنا؟

حك المؤدب رأسه محاولا تذكر العائلة الغائبة عن الاجتماع فلم يستطع، والتفت الجماعة بعضهم الى بعض يتناقشون، كأن المتكلم أثار قضية مهمة.

سارع بدر الدين يسأل

ـ هناك غائبون إذن اذكروا أسماءهم لعلنا نستدل بها

قال الرجل المسنّ

ـ هناك عائلة رجلها غائب ولا نعرف أين هو. . . ولكننا نحن أولياؤها وعائلوها، والمدافعون عنها إذا اقتضى الأمر. والبيت عامر بثلاث نساء كلنا نعتبرهن أخواتنا وبناتنا.

عند ذلك تذكر المؤدب ما كان ناسيا وقال كمن عثر على شيء ضائع :

ـ بيت الغَزْل. . تذكّرت الآن!

وعاد الفلاح الأشقر ليعتذر :

ـ لم أظنّ أن لدى هذه العائلة معلومات تضيفها الى ما نعرفه، ولذا لم أضعها في الحساب. على كل حال ابعثوا نساء من عندكم لاستجلاء ما عندهن من أخبار، أنا نفسي لا أعرف من أي الجهات قدمن.

قال الشيخ :

ـ قل قدمتا أي الأختان فقط، أما الفتاة فقد ولدت هنا في العالية.

علت أصوات الكلاب النابحة وملأت جوّ القرية فصعدت

النساء فوق السطوح كالعادة لمراقبة الجهات الأربع واكتشاف ما يهيج الحيوانات، وتهيأن للمقاومة بالحجارة. خرج الزمزمي من الجامع مسرعا وبيده المكحلة. وجرى ناحية السهل مستعدا للضرب عند الاشتباه في أي خطر. كانت هناك قافلة بأربعة رجال، ومعهم نساء وأطفال، تمشي خلف دابتين محملتين بأثاث وأغطية وبعض أكياس المؤونة على ما يبدو. يصعد الجميع الهضبة الوعرة ببطء وعناء، يبكي بعض الأطفال وقد يجلس أحدثهم أرضا غير قادر على المواصلة، فيأخذه أحد الكهول على كتفه ويواصلون. راقبهم الحارس وهو مسدد سلاحه ناحيتهم، حتى إذا وصلوا الى مرمى السمع ناداهم بصوت عال :

ـ تسمّوا وقولوا من أين جئتم ولماذا؟

رفع الرجال أيديهم الى أعلى وقالوا كلاما غير مسموع. أعاد الزمزمي سؤاله بصوت أعلى والجماعة مواصلون الصعود مرفوعي الأيدي دليلا على أنهم غير مسلحين، وقال أحدهم لاهثا :

ـ نحن أقارب وجيران!

عاد الحارس يحرك سلاحه ويسأل بصرامة :

ـ تسمّوا واذكروا من أين أتيتم؟

ـ أندلس هاربون من بنزرت... سيعرفنا أهل القرية!

أنزل الحارس سلاحه، وبقي ينتظر وصول القادمين وعيناه على كل حركة يأتونها، خوف أن يكون في الأمر خدعة. لم يسلم عليهم لما بسطوا إليه أكفهم، ولكن أدخلهم الى الجامع في انتظار

قدوم رجال القرية، فهم وحدهم يقررون استضافة هذه القافلة أو طردها إذا شكوا في أفرادها و نواياهم. وإذ يعتبر الجامع مكانا محايدا، فإن الحارس أفسح لهم مكانا فيه، ليستريحوا من إجهاد السفر.

راقبت عائلة أحمد الجيار ما جرى من سور الجامع الذي تقضي فيه ثالث أيام ضيافتها على القرية. نظر الجميع الى القادمين الجدد بفضول، ولم يجرؤوا على غير ردّ التحية عندما دخلوا عليهم، وتهاووا على الحصير واحدا بعد آخر، ولم يبق منهم في الخارج سوى أحد الكهول ليفرغ حمولة الدابتين.

جاء أوائل الأندلس الى بنزرت منذ سقوط غرناطة ولجوء آخر ملوكها الى عدوة المغرب، فأنشأوا حيهم المعروف خارج السور. ولما فكك الحسن الحفصي تحصينات المدينة بأمر الامبراطور الاسباني شارل كنت اختلط الحي بأرباض المدينة، واندمج اللاجئون مع السكان القدامى، يحيون على طريقتهم باستغلال البحر في الصيد أو الغزو ومهاجمة النصارى. ولما كان أغلبهم ممن ألفوا ركوب البحر، فقد انضموا إلى أمراء البحر الأتراك مثل عروج وخير الدين ودرغوث وغيرهم، وصاحبوهم للارتزاق، وفي نفس الوقت للانتقام من الاسبان.

وجاء مهاجرون آخرون فيما بعد توزعوا على هضاب الساحل الشرقي، واشتغلوا بالفلاحة لأنهم يحذقونها، ماعدا قليلا من شبانهم الأقوياء، اختاروا الالتحاق بمن سبقوهم الى الغزو وقتال النصارى، فقصدوا بنزرت واستوطنوها. لكن مقامهم لم يطل إذ

داهم الاسبان المدينة واحتجزوا الأندلس رهائن لخدمتهم، وللتوسط بينهم وبين قدماء الأهالي، لمعرفتهم بلغة الاسبان وعاداتهم. ولقد قاسى المساكين من تصرفاتهم الويل والنكال، إذ سخروهم لهدم الأسوار أثناء حملتهم الأولى، ثم بعد ذلك بسنوات استخدموهم هم ودوابهم وأبناءهم لنقل الحجارة وبناء الحصن المشرف على المدينة، وكان قد بدأه قلج علي باشا الجزائر عند استيلائه على المدينة، ولكن الاسبان طردوه وأتموا الحصن واستعملوه بدل الاتراك منشئيه. وفي مدة احتلالهم للمدينة ضيّقوا على أولئك المساكين الذين فرّوا من جحيمهم هناك، فلاحقوهم به في الأرض الافريقية وكأن لا مناص لهم منهم... والى اليوم القيامة.

حول هذا الموضوع، وما يتصل به من تفاصيل، دار الحديث والسمر في صحن الجامع ليلة وصول القافلة الجديدة. تحاور سكان القرية مع الرجال بعد أن عرفوهم، وتذكّر بعضهم أنّ عائلة انفصلت عن المجموعة يوم انتقالهم من السهل الى هذه المرتفعات، وذهب النساء والأطفال الى دور بعض القرويين لقضاء ليلتهم هناك. كانوا نادمين على اقترابهم من الساحل، إذ لم يخطر ببالهم أن يتعرضوا لمثل ما حدث، وأن تبلغ بهم الشدة ما بلغت، ولذلك فرّ بعضهم وتفرقوا في حين اختارت هذه الأسرة أن تعود الى مستقر إخوانهم الأوائل، فجاءوا خفية في قارب اجتازوا به القنال، وفي الطريق اشتروا بمالهم القليل دابتين شقوا بهما الحقول المزروعة طول الوقت متحاشين قوافل الجند وغارات الاعراب.

روى أبو العائلة الأحداث الجارية في أكبر مدن الجهة، وماعانته من غارات العملاقين المتنافسين عليها، ثم شرح أسباب مجيئهم بأن أبناءه من المجاهدين في البحر، شاركوا في غزوات كثيرة، ولكن عندما دخل الاسبان من جديد مع دون خوان النمساوي، وبدأوا يبحثون عمن جاهدوا في البحر خاف أن يقبضوا على أولاده، فجمع عائلته وما استطاع من أثاث وهرب ليلا.

قال بصوت متأثر:

- نصبوا عسسا على طرق المدينة، فلا يخرج أحد أو يدخل إلا بإذن القبطان. كلّ الأحياء تحت رقابة الجند. وصل بهم الخوف إلى مصادرة السكاكين وجميع ما في البيوت من آلات حادة، فلا تستطيع امرأة استعمال سكينها إلا باستئذان محدّد بالوقت، تعيد بعده الآلة الى مركز الحراسة. وهم يحصون الذاهبين الى العمل كل صباح، ثم يكررون العدّ في المساء عند رجوع الناس الى مساكنهم، وياويح القوم إذا نقص فرد من المجموعة، فلا دخول الى البيوت إلا إذا عثروا عن الفرد الناقص وأعادوه.

صاح أحد الحاضرين متوجعا

- هذا سجن كبير!

أكمل المتحدث الشكوى

- هذ بعض ما يجري، ولا أزيد ألمكم بذكر ما هو أكثر وأوجع، خاصة معنا نحن الأندلس، إذ كانوا يأخذوننا الى

القبطان فيحاورنا بلطف مخاتل، مقارنا بين حالنا الآن وحالنا في الأندلس التي غادرناها بطيب خاطر، ولو تنصرنا كما طُلب منا لبقينا مكرمين في بيوتنا، ولم يصبنا ما نحن فيه من عذاب وهوان. كان يقول : ها أنتم فررتم الي دار الإسلام، فهل وجدتم فيها عشر ما تركتموه. . ألم تكونوا في الجنة فبطرتم وكفرتم بنعمة الرب عليكم؟ انظروا الى ما أنتم فيه. . ألا يدعوكم إلى الندم؟ ها نحن جئناكم لتفقد أحوالكم، وهانحن ندعوكم إلى مراجعة نفوسكم. . . فان غيرتم رأيكم وأحببتم العودة معنا أخذناكم في السفن العائدة، ولكن بالشروط التي نمليها نحن والتي تعرفون بعضها. ويسمع الجنود مقالة القبطان فيضحكون. والمؤلم أنهم استطاعوا التأثير على بعض المنافقين وضعاف النفوس من المشتغلين معهم للجوسسة والدّس وبث الإشاعات، لكن دون أن يعطوهم مواثيق مؤكدة بالعودة معهم. ولقد عاملنا هؤلاء بحكم المرتدّين وتجنّبناهم، حتى أننا لم ندفن في مقابرنا من مات منهم. هذه حالنا المؤلمة وأرجو أن لا يكون أصابكم مثلها.

قال أحد القرويين :

- ما زلنا بعيدين عن ساحة المعارك، لكن إن استقر الحال للإسبان في تونس وبنزرت فلا بد أن نقع بين فكيهما، إذ الطريق بين المدينتين تمر من هنا، ولا مناص. . .

ساهم أحمد الجيار في الحديث

حاضرة تونس في حال شبيهة بما ذكرت أيها الأخ، والإسبان يظلمون ويقتلون وينهبون الأهالي بمباركة السلطان وموافقته.

وقد صنعوا لهم دولة في حصن البستيون حيث كنائسهم ودكاكينهم ومراكز خاصة لتنصير المسلمين بالإغراء وشراء الذمم، تجمّعت لديهم فرق كاملة من أراذل الناس والمهجرصين والجواسيس فاستعملوهم لتقويض مجتمع المدينة، تم الإجهاز عليه بعد أن اهتزت قواعده، وزلزلته المحن وقلة الرزق بفعل الاضطرابات المتتالية.

عمّ المجلس صمت مليء بالحزن، فحالة اليأس ألجمت الألسن وأحنت الرّؤوس. انتظر بدر الدين بعض الوقت ثم سأل القادم الجديد :

- هل يمكنك إرشادي يا أخي الى جماعة من جهة الحجر الأحمر انتقلوا الى بنزرت من حوالي سبعة عشر عاما، وهل عندك علم بمكان نزولهم؟

أجاب أحد الشبان وقد تعجب من احتفاظ الشاب بلكنته الإسبانية :

- نعم. . جاءنا جماعة لا أتذكّر أسماءهم قالوا أنهم من تلك الجهة، لكنني لا أعرف أين نزلوا، ولربما إذا هدأت الحال وأردت زيارتهم أدلك على من يرشدك اليهم.

قام بدر الدين ليقترب من مكان الرجل ويسأله ثانية :

- اذكر اسما واحدا أرجوك، فهم أهلي وأقاربي، وأنا أبحث عنهم منذ زمن ولا من يدلني، حتى كدت أيأس.

- لا تيأس يا أخي! فإذا زالت الغمة ربما ذهبت معك وبحثنا

عنهم   اطلب من الله الرحمة وأمان الطريق أولا

تكلم العجوز المحنيّ الظهر :

ـ لماذا أنت متعجّل يا بدر الدين؟ ألم نعدك بالمساعدة، وأن نقلّب حجارة هذا الجبل حتى نعثر على أهلك، لعلهم تحولوا الى فصيلة نمل واختفوا في باطن الأرض؟

وضحك بعض الجالسين من كلام العجوز، وقد فهموا أنه أراد ترفيه الجوّ قليلا، بعد أن حامت الكآبة فوق الرؤوس.

ظهر في باب الجامع أطفال صغار من بينهم ابنا أحمد الجيار. كانا في المقدمة يلوّحان بأيديهما ناحية أحمد وبدر الدين، كأن لديهما ما يقولانه. تبادل الرجلان النظرات ثم شق الجيار الصفوف نحو الباب ليستطلع الأمر. كانت درعية متوتّرة، يتدافع الكلام من فمها وهي تلهث، لأنها تريد أن تقول كل ما لديها دفعة واحدة قبل أن يسبقها أخوها في الحديث.

ـ للاّ مرجانة في دار الغَزل تقول لك وجدنا ثلاث نساء وحدهنّ، ولا يوجد رجل معهنّ.

ـ هذا نعرفه يا بنيّتي ولكن الرجل أين هو؟

ـ تقول النساء إنه ضائع!

تدخّل الفتى ليصلح مقالة أخته :

ـ لا... قلن إنه مسافر.

علّق أحمد الجيار

ـ ضائع أو مسافر   معناه نه غائب لآن، إنّما أين؟

ـ تقول زوجته سافر الى بنزرت ليجاهد، ولكنه لم يعد منذ سنتين.

ضرب أحمد الجيار كفا بكف وعقّب

ـ إذا لم يعد منذ سنتين فمعنى ذلك أن البحر أكله.

سألت البنت بعفوية :

ـ هل الحوت ا ي يأ   أم لبحر؟

ـ كلاهما يأكل يا بنيّتي. أقصد أنه ربما مات في إحدى الغزوات البحرية. وهل عرفت مرجانة شيئا عن النساء، ومن أي جهة جئن؟

عادت البنية تقول بعفويتها وسذاجتها

ـ هنّ من سكان هذه القرية، ومن أين تريد أن يجئن؟

ضحك أحمد الجيار وأمسك بكتف الصغيرة ليوضح لها ما غمض :

ـ أولئك النسوة جئن، كما جاء سكان هذه القرية كلهم، من بلاد الأندلس الواقعة وراء البحر، وهي نفس البلاد التي جاء منها بدر الدين، وبما أن ذلك البلد كبير، وفيه جبال وسهول وشواطئ وضفاف أنهار وغابات الى غير ذلك مثلما هو عندنا، بل وأكبر وأوسع، فإن القادمين الى بلادنا جاءوا من جهات مختلفة، وكل جهة لها اسم خاص.

وأضاف الطفل الى كلام أبيه

ـ وعمك بدر الدين جاء من جهة اسمها الحجر الأحمر.

وضحك الأطفال، لأنهم ظنوا الفتى يمزح، فنهرهم :

ـ هذا هو الاسم حقيقة، اسألوه هو إن شئتم! لقد حكى لي عنها حكايات كثيرة، وقال ان فيها نهرا صغيرا كان يسبح فيه عند اشتداد الحرّ، وينصب فخاخا على الضفاف لاصطياد العصافير، وقال إن بيتهم هناك كان كبيرا له ساحة تحتوي على حمام للاغتسال وفرن لصنع خبز الحنطة اللذيذ، وأحيانا أقراص الذرة المخلوطة بالسكر.

عاد الأطفال يضحكون، ظنا بأن الفتى يستعرض مشاهد من خياله، لأنهم لم يتصوروا وجود مثل تلك الأشياء، ولا حتى بلدا اسمه الأندلس أو مدينة اسمها الحجر الأحمر. عاد أحمد الجيار يسأل ابنته :

ـ هل وجدتم زوجة الرجل الغائب؟

أجابه ابنه بسرعة :

ـ النساء الثلاث هن زوجة الرجل الذي أكله البحر كما قلت، وزوجة أخيه وهو غائب أيضا، لكن لا أحد يعرف أين... ثم ابنتها وهي في عمرللاّ مرجانة.

أضافت البنيّة :

ـ اسمها ميمونة... وقد نسيت أن أقول هنّ لسن ثلاث

نساء، ولد امرأتين وفتاة للاّ مرجانة ولها الشعر والحواجب

ضحك أحمد الجيار من تفاصيل ابنته وسألها عن أختها، فقال له الأطفال إنها منهمكة في الحديث مع نساء دار الغزل، وستعود بعد انصراف الرجال من الجامع.

تابع بدر الدين حركات أحمد الجيار الى حين عودته الى مجلسه الأول بقربه، فما كاد يستقر حتى أمطره بالأسئلة عن حاجة الأطفال إليه، وهل جاءوا برسالة معينة أو خبر جديد، وإلاّ فما دواعي مناداتهم له من باب الجامع إذا لم يكن ثمة جديد؟ اقترب أحمد من أذن الشاب وحكى له خلاصة حواره مع الأولاد وختم كلامه قائلا :

ـ لا بد لنا من توضيح بعض الألغاز فيما يتعلق بدار الغزل التي تسهر فيها مرجانة الليلة. هناك زوجان غائبان، عرفنا أن أحدهما سافر الى بنزرت للجهاد في البحر ولم يعد... هل مات؟ هل أسره الاسبان؟ لا أحد يعرف. وزوج المرأة الثانية أين هو؟ والفتاة الوحيدة مع المرأتين هي ابنة من فيهما؟ هل لها إخوة أو أخوات... أين هم إن وجدوا؟ لا أحد يعلم أيضا. لهذا قلت لك أننا أمام ألغاز قد تخفي وراءها مفاجآت، لكن من سيعيننا بالحلّ؟

قال بدر الدين هامسا في أذن رفيقه :

ـ سأذهب في صباح الغد مع ذلك العجوز لأتفرج على حقله الصغير، وسأجد الوقت الكافي لأستفسره وأستوضحه بعض ما غمض.

- وأنا بدوري سآخذ أخبار مرجانة مفصّلة، ثم نقارن في المساء ما يتجمع لدينا ونستنتج.

في طريق العودة الى الجامع حكت مرجانة لأبيها تفاصيل حديثها مع نساء دار الغزل، واصفة حالة الحزن اليائس المخيّم على تلك الأسرة لضياع رجالها كلهم.

قال أحمد :

- سمعنا عن رجل يجاهد في البحر، ولكن الثاني أين ؟

- الثاني والثالث. .

- وهل هناك ثالث؟

- المرأة الكبيرة فقدت رجلين زوجها واسمه محمد الغائب في الجهاد، ومن قبله ابنها الذي تركته في الاندلس عند الرحيل.

- وأختها فقدت من؟

- هي سلفتها وليست أختها، وقد بقي زوجها في الأندلس أيضا.

- وكيف ترك أسرته تهاجر بدونه؟

- كان في سفر عندما أرغمت العائلة على ركوب البحر

- والابنة هي لمن؟

- هي ابنة المرأة الثانية، وهي لم تر أباها ولم تعرفه، لأن أمها خرجت وهي حامل بها، وولدت بعد الوصول بشهرين.

- مصير غريب هو مصير هذه العائلة ومع ذلك

وجاهدت لتعيش.

- هن يرتزقن بغزل الصوف ونسجه، فكل أهل القرية يودعون أصوافهم بعد جزّ الغنم في دار الغزل، ويأخذونه وقد تحول الى أردية وأغطية وأثواب للنساء والرجال، وفي المقابل يأتيهن الرزق والمؤونة من الجميع صيفا أو شتاء، فليس للنساء الثلاث احتياج أو شكوى الا من غيبة رجالهنّ، حيث لا مؤشر على كونهم أحياء يرزقون.

- ألم تذكر لك البنت أو أمها اسم الأب وما مهنته؟

- قالتا إن اسمه أحمد، وانه كثير السفر والتنقل بحثا عن الكتب، ولكنهما الآن لا تعرفان مكانه، وهل هو على قيد الحياة.

- وهل ذكرت أم الولد شيئا عن ابنها الذي تركته في الأندلس؟

- قلت لك أنهم افتكّوه منها . . . هل توجد أم تترك ابنها باختيار منها يا سي أحمد الجبّار؟

- أعرف يا مرجانة! لقد سمعنا ما يشبه هذه القصة من فم بدر الدين . . . ألا تتذكرين؟

- يُخيّل لي أنا أيضا أن ما حدث للمرأتين يشبه ما حدث لعائلة بدر الدين . . . ألم يقل أن الجند افتكّوه من بين ذراعي أمّه؟

- هل ذكرت المرأة أوصاف ابنها أو أو اسمه؟

كانت مرجانة تمشي متعجلة لتتابع خطى أبيها وقد تلفّعت

بغطاء صوفي ومشى بجانبها الصغيران ينفخان في أيديهما طردا لصقيع هذه الليلة الباردة، وقد فاتها أثناء روايتها للحديث وتركيز نظرها على حجارة الطريق في سواد الليل، أن تنتبه الى إشارات والدها، وتحمّسه المفاجئ لمعرفة جواب مرجانة عن سؤال كرّره مرّات :

ـ قولي يا مرجانة ما اسم الفتى وكم كان سنه عند هجرتهم؟

ـ كان عمره ست سنوات أو سبعا

ـ وما اسمه؟

ـ اسمه بالاسباني بدرو.

ـ قولي اسمه بدر الدين يا مرجانة! الآن عرفته، وعرفت أن تلك المرأة هي أمه بلا شك. . . عجّلي نخبره بالنبإ السعيد حتى يذهب للقائها غدا عوض الذهاب الى حقل ذلك العجوز الأحدب.

تحركت عجاجة الغبار بسرعة في السهل، وابتعدت عن أعين أهل القرية شيئا فشيئا، الى أن احتواها أفق أخضر بانت في حواشيه كتل شجر كثيف، لعله الزيتون أو الصنوبر. كان الغبار يلّف فارسين في عز الفتوّة، تحت كل منهما فرس نشيط يباري به

رفيقه ركضا لا يتوانى وقد تسلّحا ببارودتين وارتديا زيّ الزمازمة. وكان أحدهما يدل على الاتجاه بإشارة من يده فيتبعه صاحبه، واثقا من معرفته للاتجاه الصحيح، عندما اشتدت الظهيرة أشار هذا الفارس الى شجرة مورقة لنيل استراحة قصيرة في ظلها الى أن تميل الشمس. ثم ترجّل الفارسان وأحدهما يقول لصاحبه :

ـ نعم الرأي يا يوسف، هذه الشمس تفجّر الرأس.

ـ أنت لا تعرف شيئا عن قوة الشمس في هذا البلد، مع أننا بعيدون عن منطقة الصحراء. أما هناك فهي لا توشك فقط. . . بل تفجّر الرؤوس فعلا كما يقول من زاروها، هذا مع قلة المطر وانعدام العيون.

ـ لعلها تشبه جبال البشرّات في بلادنا أو منطقة سييّرامورينا؟

ـ كفّ عن التذّكر يا بدر الدين وإلا فسوف تتألم كل دقيقة تعيشها في المستقبل. ولا تقل بلادنا. . لأنها لم تعد بلادنا.

ـ انتهيت من التألم يا يوسف، فالألم إذا اشتدّ ودام انتهى تأثيره، تماما مثل الخوف، إذا بلغ بك آخر حدّ وهبك شجاعة وبطولة لا تعرف من أين جاءت.

ـ ومع ذلك لا أنكر أنني في هذه البلاد أتنفس هواء مثل هواء المريّة وتحيط الخضرة ذاتها من كل جانب، ولقيت من حفاوة الناس وطيب عشرتهم كثيرا مما افتقدته أيامي الأخيرة في الأندلس، ولولا هذا النحس الذي لاحقنا بمجيء الاسبان في أعقابنا لمضت أحوالنا راضية مرضية.

ـ لكأنهم مكلفون بمتابعتنا الى آخر بقاع الأرض! . . . ماذا عساهم يفعلون لو ذهبنا الى جزر واق الواق؟

وضع يوسف قربة الماء وزوّادة الطعام على العشب وهو يجذب سا عميقا ليخفف ما به من هموم، وبعد أن دعا رفيقه الى لوس قال مجيبا :

ـ أتظنّهم يتابعون خطانا، وأنهم مهتمون بأمرنا؟ إننا انتهينا بالنسبة إليهم يوم أركبونا السفن ودفعوها فوق الأمواج، وانما الحرب القائمة اليوم ليست إسبانية في حقيقتها وإنما نصرانية، وليس الذي يقودها هو ملك إسبانيا أو الامبراطور وإنما الكنيسة وقساوستها، ومن فوق الجميع البابا الجالس في روما.

ـ أعرف ذلك بدليل أن الجيش الذي جئت فيه اشتمل على ثلاثة عشر ألف إيطالي وتسعة آلاف إسباني وخمسة آلاف ألماني، فهو جيش يمثل دينا أكثر مما يمثل مقاطعة بعينها.

ـ ألم أقل لك إنّها حرب دينية؟

ـ ومن بلاهتهم ظنوا أهالي تونس سيناصرونهم ضدّ الأتراك، ويتّبعون سلطانا ذليلا لا يهمه غير إنقاذ كرسيه وثروته، ولا فرق عنده إن قاتل من أجلهما النصارى أوالمسلمين. أما سائر عباد الرحمان، فمهما اشتكوا في الظاهر من عنف الأتراك وقسوتهم، فإن قلوبهم معهم، وأفواههم تدعو لهم بالنصر.

مد بدر الدين يده الى الزوّادة، فسحب منها رغيفا وحبّات زيتون، وشرع يقتات مثل صاحبه وهو يحرك رأسه كمن تذكر شيئا :

ـ كأنك تعيد ما قاله قساوسة الطليان الذين بعثهم البابا ليباركونا يوم رحيلنا من صقلية.

ـ ولماذا كان رحيلكم من صقلية. . . ألم تأتوا بأمر فيليب الإسباني؟

ـ هل نسيت ما كنت تقول من أنّ الحرب ليست إسبانية وإنما نصرانية؟ لذا كان ركوبنا من صقلية محلّ التجمّع والتبرّك بدعاء البابا وجماعته. . . لا شيئ ينقص هذه الحملة من شعائر تلك الحروب التي هاجموا بها بيت المقدس وسموها حروبا صليبية. هذه الحرب لم تنل شرف هذا الاسم، لكن صفاتها تجمّعت فيها. وليتك سمعت مواعظ القسس في السفينة أو في كنيسة البستيون. فنحن القادمون من بلاد الرّوم، والحاملون لصليب المسيح وتباريكه، جئنا الى هنا لتخليص أهل افريقية من همجية الدين المحمدي، ولنعيدهم الى دين أجدادهم الأوائل وتعاليم قدّيسهم العظيم أوغستينوس.

ـ ومن أجدادهم الأوائل؟

ـ الرومان والبيزنطيون هم في رأيهم الأجداد الأوائل، وأما العرب والإسلام فدخلاء، وعليهم إخلاء المكان سريعا.

ضحك الشابان واستمرّا يأكلان، ومن حين لآخر يتبادلان الذكريات، وعندما تمدد يوسف ليرتاح قليلا نبّهه بدر الدين بأن الوقت يمرّ سريعا فأجاب :

ـ لا تخش شيئا، المسافة التي تفصلنا عن بنزرت غير طويلة،

ساعتان أو ثلاث ونكون هناك عند المغرب، كي ندخل مستترين بالظلام.

ـ وإذا أقفلت المدينة أبوابها عند المغرب فما العمل؟

ضحك يوسف وربت على كتف صاحبه :

ـ يرحمك الله يا أبواب ويا سور ويا أقفال! ألم يهدم أصحابك الإسبان في هجمتهم الأولى الأسوار ليحرموا قراصنة البحر من الاحتماء بها واللجوء إليها؟ فالمدينة عارية اليوم بلا غطاء.

أخذ بدر الدين يسوّي سرج فرسه ويتفقده ويسأل رفيقه :

ـ وهل القوّات التي تحتلها الآن عارية؟ ألا تكون في هذه الحال أولى ضحايا ما فعلته بالسور؟

ـ لا أظنّ... لأنهم تركوا المدينة لحالها، واحتموا بالحصن المنيع الذي شيده الأتراك في أعلى نقطة، وهناك يمكنهم أن يحتموا ويدافعوا إذا لزم الأمر.

كان الفارسان يواصلان الآن طريقهما من غير ركض، وقد ظهر ماء البحيرة من بعيد يلتمع تحت ضوء الشمس، فسأل بدر الدين :

ـ هل وصلنا الى البحر، وهكذا بسرعة؟

ـ لا ياصاحبي، هذه بحيرة متفرعة من البحر الكبير، وهو لا يرى من هذه الجهة وإنما يوجد على يميننا، وبيننا وبينه هضاب رملية وغابات، فلا يظهر إلا من مكان مرتفع وقريب من المدينة سأدلك عليه عند الوصول.

مالت الشمس كثيرا عندما وصل الفارسان الى الرمّادية، وهي موقع يطل على البحر من يمين، والبحيرة من شمال، وعلى ممرّ الماء الواصل بينهما فوقه جسر هو مدخل المدينة الجنوبي. كان يوسف العالم بأحوال الجهة ومسالكها هو الذي دل على المكان، وبادر عند الوصول الى إخفاء الفرسين تحت الشجر، طالبا من رفيقه الانبطاح أرضا حتى لا ينكشفا لأعين الحراس. وزحف الاثنان على البطن وهما يدنوان شيئا فشيئا من حافة جرف عميق له نتوء كرأس السهم، يسمح برؤية شاملة لا يحدّها حاجز. المدينة الصغيرة، بقبابها البيضاء ومآذنها ودورها المتراصة، تقابل الناظر رابضة في حضن جبل أخضر، وعلى اليمين البحر ومدخل الميناء، وعلى الشمال البحيرة باسطة صفحتها الفضية لتبتلع قرص الشمس بهدوء.

انفتحت عينا بدر الدين، واتسعت حدقتاه انبهارا بجمال هذا الأفق المفتوح المتنوع المناظر، وأراد أن يقول شيئا لصاحبه، ولكنه خيّر التأمل والسكوت. أما يوسف فقد تركز نظره على نقطة واحدة، وتعاقبت أنفاسه دهشة، وأراد بدوره أن يقول شيئا لصاحبه، ولكنه خيّر التثبّت والتأكد قبل الجزم. وبعد صمت قصير أمسك بكتف رفيقه الحالم :

ـ انظر معي الى هناك... وقل ماذا ترى؟

كان يشير بإصبعه الى ناحية البحر، والى سفن تحيط بالمدينة من

جهاتها الثلاث ولا يكاد يبين منهـا غير الألوية والصواري، خاصة بعد أن طويت منها القـلاع والأشرعة. كان النهار صحوا ومـضيئا يسمح بـرؤية جيدة ولو من بعـيد، ولم تكن الشـمس قد جـمعت كـامل أشـعـتـهـا بعـد، فدقـق بدر الدين النظر في اتجاه الإصـبع الممدودة، وتأمل فيما يرى ثم صاح :

ـ تلك ليـست مراكبنا. . . ولا تلـك الألوية لنا، أقصـد ليست للإسبان!

ـ هذا ما حيّرني. . . فهي لمن تكون؟

ـ ألا تتذكـر حملة علج علي منذ ثلاث سنـوات. . . إنها نفس المراكب ونفس الألوية!

ـ هل هذا أسطول الأتراك إذن؟

صاح بدر الدين ناسيا دواعـي الحذر الذي كان يلازمه، ووقف بقامته المديدة رافعا ذراعيه الى أعلى :

ـ زالت الكربة يا يوسف!. . . ارتحل الإسبان!. . . ألا تسمع؟

ـ أسمع! ولكني غير متعجّل على الفرح. . . لقد رأيتهم يأتون ويذهبون عدة مرات، فمن يدريك أنهم لن يعودوا؟

ـ تفـاءل خيـرا يا يوسف. . . هل تريد الإقـامة في حـزنك الى يوم القيامة؟

ـ ملّت نفسي من كـثرة ما تلاعبـت بها المشاعر المتـضاربة، فلم أعـد أهتمّ إلا بالسـاعة التي أنا فـيهـا. هؤلاء أتراك هيا نقـتبلهم إذن. . . وغـدا إسبـان هيا نسـتـعدّ لاقـتبـالهم. علينا الاسـتعـداد والتأقلم مع كل ظرف وحال.

فهذه إذن سفن الأتراك حسـب مـا تدل عليه الأعلام والبيارق. أتكون العجلة دارت في هذا الظرف القصيـر الذي التجأوا فيه الى العاليـة، حيث لا يعبـر عابر إلا نادرا، ولا تصل الأخبـار الجديدة إلا بعـد الأيام والأسـابـيع؟ بدأ يوسف يفـكّر في دخـول المدينة وكيف يكون؟ ركب الفرس وقال لرفيقه:

ـ نستطيع الآن دخول المدينة قبل حلول الظلام.

ـ ولكن الاحـتـياط واجب حتى مع الأتراك. . . فـهـم يقـتلون لمجرد الشك كما علمت ممن عاشروهم.

ـ أنا أعرفهـم وعملت معهم في بناء الحـصن، حتى أنني أنطق ببـعض كلما تهم وأعـرف رتب ضـبّاطهم : وكـيل حرجي، آغـا باشي، عسكيولدك. هـم غلاظ أشدّاء كما اشتـهر عنهم، ولكنهم محاربون من الطراز الأول. وهل نحن إلا في حرب يا أخي؟

ـ ذكّـرتني الـفـريق الألماني الذي صـاحـبنا في الحـمـلة، إنهم يشبهون الترك في الغلظة والشـدّة. وقد كان الاسبان والطليان من خبثهم يضـعونهم في الصـفوف الأولى عند كل صـدام، ولكنهم رجال مستقـيمون ومحبون للعدل، فمـا رأيتهم يشاركون في نهب تونس أو تكسير البيوت بحثا عن المكنوز في الأرض والجدران.

ـ أهل الكفر ملّة واحدة!

ـ إنما الشر درجـات. وقد رأيت في البستيون مـسلمين يعينون

على تعـذيب أبناء دينـهم ووطنهم، رأيت الوشـاة والقـوادين والمهـجرصين، وأنـواعا من البشـر أقرب الى الطيور الجوارح، يفعلون ذلك دون أن يكونوا من أهل الكفر بل طمعا في منحة مـال أو قوارير خمـر. لذا لن أقبل منك إذا قلت أن الملائكة من أصل تركي.

ضحك الاثنان، وتابعا الطريق غير مسرعين، والمباني البيضاء تقترب منهم شيئا فشيئا، حتى إذا وصلا الشاطئ تردد يوسف: هل يمر فوق الجسر ويخضع لمراقبة الحراس الواقفين عند طرفه الآخر، أم يمرّ من ناحية اليمين حيث توجد فلائك صغيرة تكترى للعبور؟ وأخيرا دخل الرجلان المدينة عبر الجسر دون أن يعترضهم معترض، فالمدينة شبه خالية في تلك الناحية الجنوبية، لكن صوت المدافع والبارود آت من الشمال، حيث عساكر الاسبان معتصمين في الحصن، يحاصرهم الأتراك بالسفن ويضربونهم بالمدافع، لذا لم يجد يوسف ورفيقه من يعترض طريقهم، فالأهالي المذعورون احتموا بمنازلهم، والأسبان فرّوا الى الحصن بلا أمل في الانتصار على عمارة ملأت البحر وسدّت الأفق، فليس إلا ضجيج السلاح يتردد صداه في المدينة الخاوية.

قاد يوسف صديقه الى مخزن يملكه بعض معارفه، فدفع الباب بقوّة وأدخل الفرسين بين أكوام تبن ودجاج تطاير كالمجانين الى كل النواحي، ثم أخذ بيد صاحبه وقاده بين الأزقة متلصصا مستعدا لكل مفاجأة.

إن لباسنا يا بدر الدين يشبه زيّ أعوان السلطان فيجب

خلعهُ في أقرب فرصة حتى لا نجلب الشكوك. فالله يعلم اليوم من يحارب مع من؟

أنهى يوسف كلامه وهو يمد يده الى حلقة باب ويقرعها بقوة مناديا بأعلى صوته:

ـ افتح يا بابا صمندل... أنا يوسف بلا نكو.

لم ينفتح الباب، وانما أطل رأس من فوق السطح ثم اختفى بسرعة، ومرت لحظة أحس يوسف أنها طويلة جدا، ثم قرقع الرتاج وانفتح الباب، ليظهر خلفه صاحب البيت ممتقع اللون، ويدعو الزائرين الى الدخول بسرعة.

جلس الرجل الشيخ على دكة قريبة ليستردّ أنفاسه، ذلك الطرق الشديد على الباب جمّد دمه في العروق. فمن عسى يأتي للزيارة في يوم كهذا؟ وبقي ينظر الى الزائرين وهما يخلعان ثيابهما، دون أن يسعفه لسانه بسؤال واحد عما يفعلان، أو عن سبب زيارتهما المفاجئة، وفي هذا الوقت بالذات. أطل صبي صغير من باب الدريبة الموارب مدفوعا بفضول الصغار، فطلب منه الرجل آنية ماء ليشرب ويسقي زائريه. فعل ذلك بإشارة من يده دون أن يتكلم.

شرب ومسح شاربيه ولم يتكلم، ولكن اندهاشه يوحي بأسئلة مكتومة. نطق يوسف بأول جملة منذ دخل محاولا تهدئة الرجل من وقع المفاجأة:

ـ ستسألني عما جاء بي الآن؟ وعن الرجل الذي بصحبتي؟..

وعن اللباس الذي خلعته عني؟ أليس هذا ما تريد؟ سأجيبك لكن دع هذا الخوف الذي يكاد يقتلك.

حاول صاحب البيت تبديل سحنته، فحرك عضلات وجهه في محاولة للابتسام لكن لم يفلح ،فدارى خيبته بسؤال :

- هل آتيكما بأكل . . لعلكما جائعان؟

طمأنه يوسف بأنهما أكلا وارتويا، وأنهما يحسّان بالأمان منذ وصلا الى داره، وروى له بالتفصيل قصة رحلتهما وأهدافها، ووقع المفاجأة المفرحة عند رؤيتهما لأسطول الترك يملأ البحر. أول ما قال صاحب البيت هو :

- لا أحد يعلم هل هي مفرحة أم محزنة. . . ومهما يكن أمرها فلا بد أن ندفع ثمنها من دمائنا وأموالنا وراحتنا، سواء ربح هؤلاء الحرب أم ربحها أولئك. على كل حال دعني أرحّب بصاحبك، وأسأله عن هواء غرناطة وماء واديها الكبير.

مرت سحابة حزن على ملامح بدر الدين وأجاب سائله :

- الأحسن أن ننسى هواء غرناطة وماءها وإلا قتلنا الحزن يا عمّي. افعل كما فعل يوسف، عش بما بين يديك واملأ قلبك به، فلا شيء يدوم غير وجه الله.

قال يوسف :

- بابا صمندل هو شيخ الأندلس في هذه المدينة كما كان أبوه من قبله.

سأل بدر الدين وفي عينيه رجاء وأمل :

- أيها الشيخ الطيب، هل أجد لديك شفائي فتدلني على رجل من أهل الحجر الأحمر جاء منذ سنتين ليخرج مجاهدا في البحر، ولم يعد الى عائلته التي تنتظره في العالية على حال من القنوط لا توصف.

ظل صاحب البيت يستفسر عن اسم الرجل وأوصافه وحرفته وعلامات مميّزة فيه، لعله يعثر على ما يتطابق وأوصاف من عرف من رجال السفن الغازية المترددة على ميناء المدينة، ثم قال أخيرا:

- إنني يا بنيّ بحكم عملي في دكّانة القبّة، حيث تسجّل كل السفن ركابها وحمولاتها في الغدوّ والرواح، لا أجد من تنطبق عليه هذه الصفات، ثم إن عمليات الغزو - كما يعرف يوسف - توقفت منذ الاحتلال الاسباني. لكنني أعدكم بمراجعة الدفاتر حالما تزول هذه الغمّة، لعلنا نعثر فيها على دليل لا يرد ببالي الآن. ومن جهة أخرى، يحدث أن لا ينفّذ الرجل ما نواه، إذ يرفض الرياس أحيانا بعض المتطوعين لضعف بنيتهم أو لتقدم في السنّ أو لعدم حذق القتال أو إحدى الصناعات المتعلقة بالحرب.

قال بدر الدين :

- والدي متقدم في العمر، وحدثني عمي عن علة لازمته وأضعفت بصره منذ كان في بلاده، أقصد في الأندلس.

جزم بابا صمندل حينئذ :

- لا يقبل أي رايس رجلا في حالة أبيك، فهو يغامر بحياته

ويعجّل بموته. علينا إذن بالبحث من سبل أخرى غير البحر وسفن الغزو.

سأل بدر الدين

ـ من أين نبدأ يا عمّي؟

ـ ادعوا الله ليخرج الإسبان بسرعة، أو أن ترحل سفن الأتراك الى ميناء آخر كي تتنفس المدينة ونقدر على التحرك. فماذا عسانا نصنع ونحن كالفئران في هذه الدريبة؟

أحاطت سفن الأتراك بمدينة بنزرت كهلال ضخم مكوّن من ثلاثمائة وستين شراعا، مائتان وثلاثون منها كالأبراج تطل منها مدافع العيار الثقيل، والباقيات لنقل المعدات والمؤن. أطلت على بنزرت ذات صباح تتقدم بهدوء غير متعجلة، وبعد أن هددت الحامية الاسبانية المرابطة بالحصن، وأنذرتها بتدميره إن لم تستسلم، بدأ ضجيج المدافع، لكنه لم يستمر طويلا، لأن عدد الجند المتحصنين لم يكن كافيا للدفاع عن المدينة، ففروا بالليل ليلتحقوا بتونس. وعند طلوع النهار صعد أعيان المدينة الى سفينة علج علي قبودان يدعونه الى استلام الحصن الذي بدأه ولم يكمله أثناء غارته الأولى على نفس المدينة.

وانتقل الاسطول في يومه الثاني الى غار الملح ليؤدي المهمة ذاتها، قبل الالتحاق بتونس لخوض المعركة الأخيرة مع الاسبان المتجمعين في حصن حلق الوادي العريق، وبستيون تونس المبني حديثا.

هجعت بنزرت يومين، وسكنت فيها كل حركة، الى أن شاع الخبر بخروج الاسبان واستيلاء الاتراك على البرج، حيث حاكم جديد وحامية تركية عوّضت الاسبان المنسحبين. عند ذلك خرج الشيخ صمندل وضيفاه وقصدوا المرسى، وهو قلب المدينة، فرأى الناس فتحوا الدكاكين يزاولون أشغالهم العادية، ورأى الصيادين وأصحاب المراكب يتهيأون للخروج الى البحر. ولما كان في نية الشيخ الإكثار من التنقل بين الأسواق وحلقات المعارف لاستقاء الأخبار، نصح يوسف وبدر الدين بتفقد الفرسين حتى لا يسرقا أو يموتا جوعا، على أن يلاقيهما بعد حين.

وهما في الانتظار على باب الاصطبل إذ جاء الشيخ صمندل متعجلا فأشار لهما باتباعه. سار وراءه دون سؤال عن الوجهة والقصد، لكن ما ان التحقا بالرجل المسرع في خطاه حتى أخبرهما دون أن يقف أن عليهما مقابلة ضابط تركي مكلف بسجن القصبة، إذ بلغه وجود رجال من الأندلس تحت الحجز هناك، لا يريد الأتراك البتّ في أمرهم إلا بعد التثبت من خلوّ ذمتهم من كل مطالبة.

أضاف الشيخ صمندل

ـ مجرد شك خامرني في وجود رجل يدعى محمد، وهو من الأندلس الجدد، يحذق الاسبانية واتخذه الغزاة مترجما ووسيطا في قضاء شؤونهم مع أهل المدينة. ولأنه لا يملك بيتا أو أسرة هنا فإنهم أسكنوه سجن القصبة يبيت فيه كل ليلة، بعد قضاء يومه في خدمتهم سواء بالحصن، أو متجولا مع الحراس في السوق. قيل

لي أيضا أنه رجل نحيل وضعيف البصر. ألم تقل أن لأبيك هذه الأوصاف يا بدر الدين؟

- بلي يا سيدي الشيخ... بلى، عسى الله يفتح بصيرتي وأعرفه.

- كيف أيها الفتى... ألا تعرف أباك؟

- تفارقنا يا بابا صمندل منذ سبعة عشر عاما، وكنت عند ذاك صبيا ابن ست سنوات. ألا تظنه قد تغيّر منذ ذلك الحين؟

- أعانك الله يا ابني... قد يكون تغيّر... قد يكون!

وصلوا السجن وبدأ الحوار مع الضابط التركي، وبعد ساعة من التداول العسير اتفق الجماعة على مناداة رجل غير مطلوب في قضية، وإنما احتجزه الإسبان على ذمة الخدمة. فجاء متعثرا، يتثبت موضع قدميه عند كل خطوة، وقد ابيض شعره بالكامل، مما أعطاه سنا أعلى من سنه الحقيقية. قال الرجل عند دخوله غرفة الحارس:

- ماذا تطلبون مني أيها الضابط؟

قفز بدر الدين من مكانه وأكبّ على يد الرجل يقبلها، فقد تعرّف من أول وهلة على تلك البحّة الخفيفة يعرفها في صوت والده، وصاح بلهفة واهتياج:

- أنا بدر الدين... كيف حالك يا أبي؟

تصلب الرجل في وقفته، وبقي صامتا كأنه غير مصدّق ما

يسمع، وتبادل الجماعة النظرات غير مصدقين بدورهم أن يكون الرجل هو بحق وصدق أبا بدر الدين، وأن الحظ قد جمعهما في النهاية. بدأ الصمت يمتد ويثقل، فشقه صوت الرجل بالبحة التي عرفه بها ابنه:

- ما الذي جاء بك يا ابني؟ كيف تخرج من بلدك اختيارا؟

فوجئ الجميع بسؤاله ولم يفهموا مرماه. ولما لم يتكلم أحد أضاف الرجل سائلا وعضلات وجهه جامدة كأنها قناع:

- وكيف حال عمك أحمد.. ألا يزال غارقا في كتبه؟

عند هذا الحدّ تأكدت هوية الرجل، وعرف الجميع أنه الأب الحقيقي لرفيقهم، فقاموا يسلمون عليه ويهنئونه. لم يقل الرجل شيئا آخر، وإنما بحث عن رأس ابنه فكشف العمامة التي تغطيه، ومرر يده على الشعر الأسود الكثيف يمسحه بكفه، وشفتاه تتحركان بصوت غير مسموع.

عندما التأمت الأسرة الصغيرة في دار الغزل، كان أفرادها موزّعين بين الفرح والحزن، فما زال هناك غائب عزيز تدمع العيون كلما جاء ذكره، لكن لهجة بدر الدين كانت متفائلة مطمئنة، فالمغامرة العجيبة التي أوصلته الى أرض إفريقية سالما، والصدف التي جمعته بوالديه دلته على أن لا مجال لليأس والقنوط، وأن عمه أحمد سيعثر على طريقة يصل بها إليهم ولو طال الزمن.

وعندما جاء أحمد الجيار يودع الجميع، قبل عودته الى تونس، استأذن بدر الدين من أبيه وأمه في أن يذهب عوضا عنه، فمازال أمامه البحث عن عمه إن كان وصل بعد، أو استنشاق أخباره من خلال التجار المترددين على العاصمة، خاصة وهي مقبلة على أيام هدوء في ظل الحكم العثماني الجديد، قال لأبيه :

ـ لم يعد هناك ما أخاف منه، فالطريق آمنة والسفن ستتدفّق على تونس، ومنها يمكنني معرفة أحوال المهاجرين والباقين في بلادنا، أقصد في الأندلس. ثم إن عم أحمد الجيّار قد ركب الأهوال من أجلي وأهمل تجارته ومصالحه، فمن رأيي أن أساعده على استعادة نشاطه.

لم يعترض الأبوان، ولكن أحمد الجيّار أصرّ على تفقد محلّه بنفسه، معفيا بدر الدين من واجب ردّ الجميل. قال له الشاب :

ـ أحسن الأمور في رأيي أن تبقى مع عائلتك قرب والديّ، فتؤانسوهما بعد وحشة الأيام الماضية، على أن أسافر الى تونس وفي رفقتي يوسف المخلص، فنقدّم الشكر الى الشيخ القشاش على إعانته وإرشاده، ونعيد إليه الكريطة والحارس، ومن ثم نتفقد أحوال المخزن والبيت، ونطمئن على ظروف العمل، وبعدها نعود إليكم.

وقال محمد الحجري :

ـ من الخير أن تبقوا معنا يا سي أحمد، فأولادك استأنسوا بنا، وأحسسنا بدورنا أنهم جزء منا. فابقوا جميعا هنا إلى أن يعود بدر الدين فتطمئن على بيتك ورزقك.

ـ جازاكم الله خيرا، وان كنت أتصوّر في المهمة إرهاقا كبيرا لبدر الدين.

ـ بدر الدين ابنك كما هو ابني، وهو يطلب مصاهرتك وخطبة مرجانة منك، فلن يكون غريبا بعد اليوم.

ـ لا أرفض طلبا كهذا يا سي محمد، ومن أسباب سعادتي ان تضمّنا أسرة واحدة.

ـ دعه يذهب إذن في رعاية الله.

ـ حاذر يا ابني من الاسبان، فقد يتعرفون عليك بواسطة الوُشاة وتُحبس، وحاذر زمازمة السلطان وقطاع الطرق. لا تبتعد عن سلاحك طول الطريق.

أجاب بدر الدين وهو متأثر بالخطبة التي تمت بين الشيخين في لحظة عين :

ـ بارك الله فيكما وسأبذل جهدي حتى أعود لكم سالما

قال الشيخ محمد :

ـ لقد علمت بنشأة مدينة جديدة قرب تونس، فيها بيت علم وحكمة ومتحف للأديان، صاروا حديثا للناس وقبلة للعلماء وروّاد المعرفة، فإذا رأيت أن تقصده لعلّ عمك الشيخ أحمد انساق كعادته وراء الكتب والمكتبات، واستقطبته سمعة هذه المدينة وما شاع عنها أنها تكرم وفادة أمثاله وتوفّر لهم ما يطلبون.

ـ سأقصدها في أول فرصة تتاح، فأنا أيضا في شوق إلى

الاطلاع على ما توفره هذه المدينة لسكانها رخاء وطمأنينة وطيب مقام.

قال أحمد الجيار محذّرًا :

ـ إياك إن ذهبت إليها وطاب لك المقام، أن تبقى وتنسانا. . !

وبين ضحك الجميع قام بدر الدين مودّعا وغادر المكان

وعادت الكريطة من حيث جاءت قبل أسبوع، ولكن بدون ركابها الأوائل، ووقفت الأسرة كاملة تودعها، الرجال عند باب الدار، والنساء فوق السطح، أما الطفلان فأخذا يجريان وراء العربة الى أن دارت مع منعطف ينحدر بشدة نحو السهل. وعندما عادت درعية الى البيت وجدت مرجانة انزوت في أحد الأركان تبكي، وقد غطت رأسها برداء فضفاض لئلا تنكشف دموعها.

كان يوسف الذي تطوع بمرافقة بدر الدين الى تونس شابا قوي البنية، سمح الطباع لمن يحاول الاقتراب منه، لكنه مشاكس عنيف إذا واجه تحديا أو شك في غدر مبيّت. وإضافة الى طيبة قلب تشبه السذاجة يمتلك نباهة فطرية تجعله أقرب الى غريزة الحيوان في التنبه الى الخطر والتحفز للدفاع عن النفس، وأحيانا للهجوم والعدوان.

مشى الزمزمي حذو العربة بفرسه وعيناه ترصدان الأفق، ورفيقاه على الكريطة يتبادلان حديثا لم يهتم به ولم يشارك فيه، لأنه يحس بالتوتر من جراء الأخبار الجديدة، وهي أخبار إن صحّت ستقلب معادلة القوى مرة أخرى في حاضرة السلطنة.

وقد تداولت في رأسه طول الطريق صور متضادّة متنافرة عمن سيربح ومن سيخسر، ومن السلطان الجديد الذي سيحكم البلاد: حامد أو محمد، أم ان الحسن الحفصي سيقوم ثانية من قبره ويطالب بالعرش؟ لكم اختلطت الأمور، وتعقدت حتى لم يعد بسطاء الناس يفهمون إلى أين تسير بلادهم وأي مستقبل ينتظرها؟ ثم عنّ له فجأة أن يقطع حديث الرجلين:

ـ ألا تظنان أن الله غضب على هذه البلاد فحكّم فيها أسوأ السلاطين، ثم زاد فأرسل إليها خصمين عنيفين ضاقت بهما أرض الله الواسعة كلها فجاءا يتعاركان فوق رؤوسنا؟ وياليتها كانت رؤوسا ضخمة عليها عمائم بالياقوت! انظرا ها أنا أعرّي رأسي وهاكم قرعتي. . . فما الذي يُطمع الناس فينا؟ قل يا سي يوسف. . . قل يا سي بدر الدين!

كان الرجل قد نزع عمامته بالفعل وعرّى صلعة ملساء التمعت تحت الشمس، فضحك الشابان من حركته، والتمسا له عذرا فيما حدث ويحدث بالبلاد والعباد في تلك الأيام.

سأل يوسف رفيقه عما إذا كان من السهل على الأتراك دخول تحصينات الإسبان لأنه يعرفها ويعرف مدى صمودها في وجه الغزاة. أجابه بدر الدين :

ـ لا شك أن الترك سيبدأون بالمحاصرة، ثم التضييق والمناوشة، الى ان يخرج إليهم النصارى، فإذا طال الانتظار ولم يخرجوا داهموهم. . . والأمر يتوقف على مدى صبر المتحصّنين، وعلى قوة المدافع التي جلبها الترك. وما أعرفه أن قائد النصارى

قد احتاط وتزوّد بما يكفيه من الماء والمؤونة والذخيرة ليصمد مدة طويلة. ثم إن حصن حلق الوادي، كما تعلم، شديد متين، يمشي على سوره سبعة فرسان جنبا الى جنب، فلاسبيل إلى هدمه في وقت قصير. والأمر متوقف في كل حال على مدافع الأتراك وعلى مهارة قوادهم. إضافة الى هذا كله نحن لا ندري نوايا السلطان الحفصي والى من سينحاز.

نحن مقبلون على مدينة الطلاسم إذن. وافرحتاه!

عقّب الحارس :

ـ منذ خمسين عاما، أي من أيام السلطان حسن، لم تعرف تونس طعم السعادة والهدوء... حياتها هي الحروب والفتن وغزوات النصارى وخصومات حسن مع العربان ومع أولاده، ثم أولاده فيما بينهم، ثم أولاده مع الأتراك، ثم الاسبان مع الترك... سلسلة مستمرة لا يعرف إلا الله متى تنتهي.

لما وصلت القافلة الصغيرة الى أطراف العاصمة نصح الحارس بدخولها ساعة الغروب من جهة سيجوم الى حدود مقبرة الزلاج، ومن ثم التسلّل الى باب الجزيرة حيث دار أحمد الجيار، مع الابتعاد عن القصبة لأنها غالبا ما تكون مليئة بالعسس أو محاطة بالعيون.

وزيادة في الاحتياط تقدم الفارس مسافة غير قليلة ليكتشف

حال الطريق، وكيف تقاسمت الأطراف المتحاربة مناطق النفوذ. لكن الحال هادئ في تلك الأمسية، ولم يقابل الجماعة سوى بعض الأهالي يسعون لقضاء مآربهم متعجّلين كالخائفين من أمر وشيك. ولم يكن هذا من الأحوال الغريبة على أهل تونس، فالحرب ابتلتهم بالخوف الدائم. كان السور وهم يمرون خلفه من جهة الغرب هادئا لا يظهر فوقه أوبقربه أي أثر للحراس. تساءل بدر الدين متعجبا :

ـ ألهذا الحدّ ساد الهدوء، رغم القوات المتواجهة؟

أجاب الحارس :

ـ جمود مليان بارود... غدا يأتيك الخبر!

باتوا ليلتهم الأولى في دار الجيّار منهكين من تعب الرحلة، لكنهم لم ينعموا بالراحة ولم يطل انتظارهم الى الغد، فقد قفزوا من عزّ نومتهم واقفين، لأن ساعة القيامة دقّت على ما ظنوا، وهم يرون الأبواب والنوافذ وخشب السقف ترتجف من قصف المدافع ضربات يتلو بعضها البعض دون توقف.

قال يوسف وعيناه جاحظتان :

ـ كم عددهم يا ترى؟

أجابه بدر الدين : مائة.. مائة وخمسون... مائتان... الله أعلم.

ضربة البداية كانت قبل انقشاع الظلام، وتبعتها أخريات

فأحدثت زلزالا أيقظ يوسف وبدر الدين مفزوعين، وأعلمهما بوصول الأتراك وبداية اشتباكهم مع حامية حلق الواد. فرك يوسف يديه بعد ما زالت دهشته الأولى وسأل :

ـ ابتدأت النهاية يا بدر الدين. . . اذا استمر الضرب على هذه الوتيرة فسينهار الحصن العظيم في يومين.

ضحك منه بدر الدين :

ـ هل هو كدس حجارة يا غافل؟ إن كنت تقصد حصن حلق الواد فلا بد من ضربه أسبوعا لإحداث بعض الضرر بالسور.

ـ فليكن. . . ننتظر أسبوعا!

ـ هذا أقل ما يمكن، فعرض الأسوار ما بين الخمسة عشر والعشرين قدما، كلها من حجارة منحوتة رصّت وبنيت بإتقان وصنعة، فهل تظنها ستنهار بسهولة؟ ثم إن الأتراك لن يقدروا على الاقتراب من الحصن، وسيكتفون في أول الأمر بالضرب عن بعد، لأن خندقا مزوّدا بماء البحر وعرضه يسمح بمرور سفينة يحيط بالبناء من كل الجهات.

ـ وما الذي يمنع الأتراك من دفع سفنهم في ذلك المجرى؟

ـ تمنعهم الحامية المنتصبة على الأبراج، وهي أربعة داخلية وأربعة خارجية. وأتصوّرهم جميعا في حال استنفار، وقد تحصّنوا وأغلقوا الأبواب، وردّوا على المهاجمين بضرب مماثل.

ـ ولكن الى متى؟

ـ لقد زرت الحصن وأعرف ما فيه من أسلحة وذخائر. . . إنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم لمدة طويلة دون أن يحتاجوا الى نجدة خارجية.

ـ هذا من حيث الذخيرة والسلاح. . . بقيت المؤونة فمن أين؟

ـ اسمع يا يوسف. . . هؤلاء الاسبان شياطين، قد تفننوا في حيل الحروب فلا يفوتهم منها شارد أو وارد، وهم يدخرون في الحصون المعرضة للحصار كل ما يلزم ويغني عن انتظار العون الخارجي لمدة طويلة. فإنني رأيت نواحي من السور مجوّفة لاحتوائها على مواجل حفظ الماء، ورأيت مخازن كثيرة لحفظ المؤن، كما رأيت عندهم طاحونة كبيرة وفرنا لصنع الخبز.

ـ إنه لأمر عجب!

ـ ولم تتعجب يا يوسف؟! هكذا تكون الحروب إذا أردت الانتصار فيها. . . والإسبان رتبوا أمرهم على استيطان حلق الوادي، في الساعة الحاضرة على الأقل، للدفاع عن جنوب أروبا، والتحكم في حركة الدخول والخروج الى تونس، واستعملوه بالمناسبة عشا لجواسيسهم وملجأ لعملائهم من السلاطين الخونة، أو التجار ذوي المصالح مع أروبا.

ـ وفي مرحلة ثانية يتسربون الى بقية البلاد لاستعمارها.

ـ هذا غرض غير معلن الى الأمس القريب. لكن بناء البستيون وما جرى يوم الاحتفال ببدء البناء جعلني أعتقد الأسبان ينوون السيطرة على البلد بكامله، وانما هم يؤجلون الأمر انتظارا للوقت المناسب.

قضى الشابان وقتهما في موازنة الأحداث واستقراء ما سيأتي به الغيب، الى أن طلع النهار وتسللت أضواؤه الى صحن الدار، عند ذلك صعدا السطح لاستطلاع الأفق من ناحية البحيرة حيث تدور المعركة. مدّ بدر الدين ذراعه الى ناحية دخان يتصاعد نحو سماء زرقاء صافية وقال ليوسف :

ـ الدخان يستر أغلب السفن فلا تمكننا رؤيتها بوضوح إلا عندما تسكت المدافع، ولكن يمكننا تخيّلها وهي تحيط بالحصن من جهات ثلاث على الأقل، وتقذفه بالكور والبارود وبالسهام النارية وغيرها، فيرد عليهم عساكر الحصن بالمثل . . . وهكذا.

ـ لا يبدو الحصن بعيدا جدا عن تونس.

ـ تراه بوضوح لأن الجوّ صاف، أما الذهاب إليه فكان يأخذ منا على الخيل أربع ساعات إذا سلكنا طريق قرطاج، وإذا قصدناه من ناحية رادس فلا تأخذ الطريق إلا ثلاث ساعات، لكن هذه غير مأهولة ولا آمنة مثل الأولى.

ـ وماذلك البناء الذي يتوسط البحيرة؟

ـ ذلك حصن جزيرة شيكلي أنشأه الاسبان منذ الاحتلال الأول، وهو يبعد عن تونس ثلاثة أميال، وعن الشاطئ ميلا واحدا.

ـ وهو بلا قيمة الى جانب حلق الوادي.

ـ لا يوجد حصن بلا قيمة . . . لكن لكلّ واحد دوره. وهذا جُعل وسط الماء ليصعب الاقتراب منه، واختصاصه هو منح النجاة

لما يقارب الثلاثمائة جندي عند الضرورة، وفيه للمؤونة والسلاح تصلح لنجدة المحاصرين.

ـ وهل تظن الحصار يطول يا بدر الدين؟

ـ أظنه سيطول، وستصاحبه معارك كبيرة وخطيرة

فيما كان الاقتتال متواصلا في حلق الوادي وصل لمحاصرة تونس حيدر باشا من القيروان، ومصطفى باشا من طرابلس ورمضان باشا من الجزائر، فأعانهم سنان باشا بالعساكر والمدافع، وأوصاهم بتطويق أهل البستيون من كل الجهات، وتلهيتهم بالمناوشات الى أن ينتهي حصار حلق الوادي.

فلما رأى السلطان محمد الحفصي، ومن معه من النصارى، كثرة عساكر الترك، علموا أن لا طاقة لهم بقتالهم لأن أغلب تحصينات القصبة مخرّبة، ومثلها المدينة هدمت وغادرها غالب أهلها. فخرج الى الضواحي بمن معه من فلول حرسه ومرتزقة البدو، فعملوا لأنفسهم متاريس من الخشب حشوها بالرمل والتجأوا فيها مع سلاح وطعام كثير. في الأثناء اغتنم باشوات الترك فراغ القصبة وخلوّ المدينة فدخلوهما من كل جهة وحصّنوهما. ولما جاء القائد سنان وشاهد تحصينات البستيون، أشار بتوزيع العسكر من كل جهاته، ورفع هضاب حجر وتراب تنصب فوقها المدافع لتصبّ نارها في قلب المعسكر، وأن تحفر

خنادق حول السور لحماية الجند، مع الاستمرار في الضرب والمناوشات، كما هو حادث في حلق الوادي، الى أن يرهق المدافعون وتخور قواهم، عند ذلك تنصب السلالم، ليقفز منها الأتراك الى داخل البستيون، ويجهزوا على من بقي فيه.

دخل الأتراك حيّ باب الجزيرة لينصبوا فيه مدافعهم، وبذا صارت الحرب دائرة في قلب المدينة فلا مجال لأحد أن يلازم الحياد. عندها قفز الجواسيس والعملاء سريعا ليتحصنوا مع أصحابهم الاسبان، وتبع السلطان الحفصي أنصاره إلى البادية، وأما الذين فرحوا بالنجدة التركية فتطوّعوا لرفع الجرحى ودفن الموتى وحفر الخنادق. ومن بين هؤلاء كان يوسف وبدر الدين، وقد جلبت شجاعتهما أنظار الضباط الأتراك، فكلفوهما برعاية التحصينات وتعهّدها. وهنا أظهر بدر الدين مهارته في البناء والهندسة الحربية مما أهّله لقيادة فريق الإسناد.

حُفرت الخنادق يتلو بعضها بعضا، واقتربت من سور البستيون ليلة بعد ليلة، وكلما حفر خندق مليء بالجند مع سلالم طويلة أعدّت للهجوم الأخير. لكن هذا الموعد تأجل مرّات لأن الاسبان قاوموا بشدة مؤمّلين وصول نجدة من أروبا لكنها لم تأت. ثم نالتهم الضربة القاصمة يوم سقوط حلق الوادي، وكان يوما حزينا، سلب منهم كل أمل وهيّأهم للهزيمة الوشيكة. لقد خضعوا للحصار أربعين يوما مستمدين الصبر والشجاعة من

صمود حلق الوادي مطمئنين بدويّ المدافع القادم من جهة البحر يخبرهم أن اخوانهم صامدون، رغم المعارك الدامية، وانقطاع المساعدات.

وذات يوم سكتت المدافع، ومضى شوط من النهار في هدوء كامل، فظنوها هدنة أو استراحة قصيرة، لكن الشمس غربت والمدافع على صمتها، عندئذ تخشبت عروق القائد سربّلوني، وتجمدت دماء جنوده. ولم تطل بهم الحيرة إذ ارتفعت ألسنة النار وسحب الدخان لتسدّ الأفق، ولتعلم الجميع بأن أخشاب المخازن ذهبت طعما للّهب وأن الفرقعة الهائلة التي يسمعونها هي صوت بارود تلك المخازن، ثم ها هو الحصن بكامله يتفجر من جهات ثلاث بفعل الألغام التركية وتتناثر حجارته بددا في الفضاء.

نادى يوسف من أعلى السلم وهو يميل برأسه يمينا وشمالا تحاشيا للقذائف والسهام والحجارة المتهاطلة من الأسوار كالمطر، فجاء بدر الدين مسرعا ودفعه الى داخل الخندق ونزل خلفه وهو يلومه :

ـ لا تطلع رأسك فوق الأرض شبرا واحدا في المستقبل إلا إذا قررت الموت. والآن قل بسرعة لماذا هذه المخاطرة؟

ـ في أسفل الخندق كتيبة جديدة وصلت بعد سقوط حلق الوادي، وهي الآن تستريح لتأخذ دورها في الضرب والحراسة ليلا.

ـ وما الجديد في ذلك؟ فكل يوم هناك كتائب تعوض كتائب.

ـ الجديد أن فيها عساكر إسبان. لقد سمعت واحدا من أفرادها يخاطب زملاءه بلكنة إسبانية، وأحيانا عندما يعجزه التعبير ينساق في الكلام بالاسبانية. ثم إن الجميع ينادونه فالنتينو... ولهذا أردت منك مشاهدة هذا الرجل فلعله جاسوس يدبر غدراً.

ـ هذا شيء مريب، فهيا بنا إلى تحت

ونزلا في سلّمين متجاورين، فشاهدا أفراد الكتيبة يتفقدون أسلحتهم، وفي أحد الأركان يجلس الشخص الذي قصده يوسف، فلما رآه بدر الدين صاح فيه بأعلى صوته:

ـ ريفاس... ما الذي أتى بك الى هنا؟

ـ بدرو أيها الملعون... هل بعثت من جديد؟ الجميع يظنّونك ميتا، وها أنت واقف أمامي كالمارد.

ـ دعك من موتي، وأخبرني كيف أتيت إلى هنا؟

أمسك ريفاس مخاطبه من ذراعه وانتحى به جانبا من الممرّ الضيق، فتوقف أفراد الكتيبة عن الحركة ليتابعوا حوار الرجلين:

ـ لقد فعلت مثلك يا بدرو، فمصير البستيون معروف ولا فائدة من العناد، لكن قادته المتزمّتين المتهوّرين عازمون على المقاومة الى أن ينهد الحصن عليهم وعلى جنودهم... إنه انتحار جماعي! لقد بعثوني في مهمة تجسس فتصنّعت الفرار كما فعل كثير من الجند وحراس الأبواب على أن أعود إليهم بأخبار جند الاتراك، لكنني بعد موازنة القوى خيّرت البقاء على العودة الى هناك، حيث الحصار والعناء المتواصل، ثم الموت في أشنع صورة.

ـ ولكن الفرق بيني وبينك أنّني لم أهرب لأن مكاني الطبيعي هنا، فأنا أندلسي مسلم واسمي بدر الدين، وإنما شاركت في الحملة متخفيا في كتيبة القبطان أنسارت للحاق بعائلتي اللاجئة في تونس.

ـ أنا أيضا أسلمت، وها أنت تراني بز الجند العثماني أدافع عن المسلمين ضد النصا ى.

ـ هذا ما يظهر للعين يا ريفاس، وما في قلبك يعلمه الله.

ـ لا تتحدث عني بهذا الشكل، فهذا ضد الدين سواء هنا أو في البستيون. وعلى كل الأحوال فالقادة الأتراك واثقون في إخلاصي، وقد كلفوني بأداء مهمة عسيرة في البستيون ولاأدري كيف سأقتبل هناك؟

ـ ما معنى هذا؟... هل ستكشف لهم عن نفسك وعن هروبك؟ إنك ستقتل ولا شك.

ـ كلفني سنان باشا بحمل رسالة الى سربلّوني، والرسول لا يقتل عند الأمم المتحضّرة.

ـ لكنك لست رسولا عاديا، فهم يعتبرونك هاربا وخائنا ومرتدّا الى غير ذلك من الصفات، ولديهم بها قائمة أطول من قائمة الرتب العسكرية.

ـ حفظت دوري، وسأعرف كيف أخاطبهم لعلني أنقذ أرواح الجند المحاصرين من تعنّت قادتهم، فيؤخذوا للأسر عوض أن تتناهبهم السيوف.

- قبل الغروب على ما أظنّ. فقد بعثت الى هنا مع هذه الكتيبة المكلفة بحراستي وتغطية عبوري خط النار الى غاية البوابة الكبيرة، وها أنا أنتظر الفارس المكلف بتسليمي الرسالة. هذا ما طلب مني!

- وهل يمكنني باسم رفقتنا القديمة أن أطلب منك خدمة إضافية؟

- مهمتي عسكرية ومحفوفة بالخطر، لذا أشك في قدرتي على قضاء أي شأن آخر غيرها.

- لما أطلبه منك علاقة وطيدة بمهمتك العسكرية، ولها نفس الأهداف، ثم هي لا تكلفك مجهودا خاصا.

- اشرح ماهو مطلوب، وسأحكم وأعطي رأيي فيما بعد.

- يبدو عليك التوتر والعصبية، لماذا أجد كلامك جافا وثقيلا؟

- لأنني قد أموت عند العبور ولا أصل الى الباب. هل لديك فكرة عن كمية القذائف المتبادلة بين الخصمين؟ تصوّر أنني سأمرّ من خلالها... أتظنّني أنجح في ذلك دون أن أفقد رأسي أو رجليّ؟

- أرجو أن تصل سالما وتؤدي مهمتك وترجع.

- هات ما عندك الآن!

- يمكنك على ما أعتقد توجيه كلمتين الى أنسارت قبطان كتيبة

الحرف والصنائع التي كنت فيها، وأنت تعرفه جيدا

- ولماذا لا تكتب إليه الكلمتين وتعفيني من لقا غير مجد؟

- قد يفتشونك أيها الذكيّ ويعثرون على الرسالة فيمنحونك شنقا إضافيّا. افهمني جيدا... ستجد فرصة ولو صغيرة لتكلم الرجل على لساني، تظاهر بأنك تسلم عليه وأوصه بأن يحتمي في السجن مع من بقي من كتيبته عند أول اقتحام للبستيون.

- ولماذا السجن؟

- نعم، عليه الاحتماء بالسجن وغلق أبوابه جيّدا، لأن تلك علامة اتفقت مع القيادة بشأنها، بعد أن أقنعتهم أنّ أنسارت وفرقته لم يحاربوا وإنما قاموا بمهمات صناعية، ولذا ليس من العدل قتلهم إذا لم يجرموا، وبأنهم مهرة في صنع المدافع وسبك الحديد والبناء ومد الجسور وغير ذلك، فلماذا لا يُنتفع بهم بعد نهاية الحرب لإصلاح ما فسد؟

- فأنت إذن مهتم جدا بإصلاح ما فسد في البلاد؟

- مهتم بالفعل لأنني سأقيم هنا بقية عمري، ثم لأن ذلك القبطان أعانني على تنفيذ خطتي، ولم أر منه إلا سموّ الخلق وعلوّ الهمة.

- سأحاول من أجلك الاقتراب منه وإبلاغه تحياتك.

- لا تذكر اسمي.. وإنما أخبره بما قلت لك نقلا عن شخص يحترمه ويريد له الخير. هذا كل شيء وأرجو لك العودة سالما.

لم يعلم المتحصنون في البستيون بتفاصيل ما حدث في حلق الوادي إلا في رابع يوم عندما عاد إليهم جاسوسهم فالنتينو، وكانوا يتصيدونه لأنه تركهم دون أخبار مدة فاقت العشرين يوما، ويوم قدم عليهم كان في زيٍّ عساكر الترك ولديه رسالة من سنان باشا الى جنرال البستيون. لكنه منذ أول لقاء برفاق الأمس رأى العداوة في وجوههم واستشعر الخطر، فأقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يكن حاضرا عند سقوط حلق الوادي، وأنه لو لا الفرصة التي سمحت بها هذه الرسالة لما أمكنه اجتياز الخنادق والتحصينات للوصول إليهم. وبدأ الاستنطاق لمعرفة كيف كُلّف بإبلاغ الرسالة، وكيف أن العراقيل زالت من وجهه هذه المرة؟ فروى أنه بقي في الخنادق أربعة أيام ينتظر فرصة سانحة للاقتراب من البستيون، إلى أن أتى ذلك الصباح فارس تركي يسأل عساكر الخندق هل بينهم رجل شجاع يريد التضحية لخدمة السلطان، وأنه اغتنم هذه الفرصة وتطوع لأداء الرسالة مبتهج النفس، لأنها ستفتح أمامه الطريق الى الحصن.

صمت الضباط المحيطون بريفاس مرتابين، ورأى ذلك واضحا في عيونهم فاحتجّ أنه لو لم يكن مسيحيا مخلصا يقبل الموت في سبيل عقيدته ما كان يتطوع لأداء المهمة، فيجيء إلى الحصن بعد سقوط حلق الواد، وظهور بوادر الهزيمة. وفي الختام ترك الخيار في يد القواد إن شاءوا أعادوه حيث كان ليؤدي الواجب المطلوب منه، وإن شاءوا أن يقعد معهم في الحصن قعد. كان يذرف الدمع غزيرا مع كل كلمة، ويقبّل الصليب من حين لآخر، الى أن رقّت قلوب الحاضرين لهذا المسكين الذي لم يفعل سوى القيام بواجبه

حسب ما تتيح له ظروفه الصعبة. واتفق الجميع الى أن يقرأ القادة الرسالة ويبتّوا في الرد المناسب.

كتب على غلاف الرسالة: «جناب السيد ڤبريو سربلّوني جنرال بستيون تونس، وإلى سالازار قائد عسكر الصبنيول، وإلى ڤانو دوريا»

وهذا نص ما جاء فيها: «أيها السادة العظام، أعلمكم أننا في 23 من هذا الشهر استولينا على حلق الوادي، وأننا أسرنا دون بياترو والسلطان، أما باقي الحامية التي لم تستجب للإنذار فقد أعملنا فيها السيف، لأنه لم يكن بالإمكان شيء آخر للأسف. فلتأخذوا ممّا حدث عبرة، ولتعملوا عند علمكم بمحتوى رسالتنا على تسليم البستيون ومن فيه. فإذا استجبتم ووافقتم أعطيتكم عهدا بأنكم تخرجون سالمين أحرارا أنتم الثلاثة، ومع كل منكم خمسة من رجاله يختارهم، وإذا أبيتم فسنفعل بالبستيون مثل ما فعلنا بحلق الوادي الذي طالما افتخرتم بمناعته وقوته. كتب في 23 أوت الامضاء: سنان باشا قائد جيش السلطان الأعظم».

رأى القواد جميعا أن يُرفض الاقتراح، لذا طووا الرسالة ولفّوها بقطعة رصاص ثم رموها في خندق العدو، واستمر الحصار شديدا، وتهديم جوانب القلعة متواصلا لمدة عشرين يوما أخرى، إلى أن نزف الإسبان دماءهم وقواهم وبلغوا غاية الإنهاك، فخرجوا هاربين ناحية البحيرة، لكن لحق بهم الأتراك في الماء وأفنوهم بالسيوف والسّهام قبل أن يصلوا الى حصن شيكلي الذي استسلم قائده أيضا وخرج طالبا الأمان، وبهذه

الواقعة انتهت أطماع الا وحلفائهم في الحصول على موضع قدم في تونس.

أسرع بدر الدين يوم اقتحام البستيون الى ناحية السجن فوجده محكم الإغلاق. كان متفقا مع قائد الكتيبة التركي أن لا يصيب المحتمين بالسجن أي ضرر إذا أعلنوا الاستسلام، وأن يؤخذوا أسارى الى سنان باشا. لكن الجميع فوجئوا عند وقوفهم على الباب بصوت ينادي من الداخل بلكنة إسبانية :

ـ يابدر الدين! . . أين أنت يا بدر الدين؟ تعال ولا تكذب عليّ. . . ألم تعدني بالإنقاذ والسراح أنا والقبطان أنسارت؟ هل تحايلت عليّ لتدخلني السجن؟

ـ اسكت يا باش كذاب! ها أنا جئت ومعي قائد الكتيبة ليشنقك لأنك فضّلت البقاء في البستيون عوض الرجوع بالردّ الى القائد الذي أرسلك.

هذا ما أجاب به بدر الدين على استغاثة ريفاس وهو يضحك من هلعه وارتعاش صوته. وعندما كسر الجند الباب وأخرجوه في مقدمة المساجين، ارتمى المسكين على قدمي الضابط التركي يرجوه أخذه سالما الى القائد سنان، ليشرح له كيف أدى مهمته، لكنه لم يستطع العودة لأن الاسبان حبسوه وكادوا يقتلوه. كان يحلف بالله ويعدد أسماءه الحسنى كمسلم شديد التقوى، ويذكر

إخلاصه في خدمة الجيش العثماني، وكيف غامر بحياته لإيصال الرسالة، إلا أن الكفرة رموا بها في الخندق وسجنوه. كان المسكين يتضرع ويلتفت من حين لآخر ناحية بدر الدين مستجيرا ومذكّرا بما دار بينهما عشية ذهابه للمهمة. قال له وهو يشير بيده الى داخل السجن الذي لم يخرج منه الى ذلك الحين أحد غيره :

ـ انظر الى الداخل يا بدرو. . أقصد يا بدر الدين! تأمّل ستجد هناك الضابط أنسارت وجماعته، أو على الأقلّ من بقي منهم. . . تأمل داخل السجن لتصدقني، وأخبر البلوكباشى أنني نفذت الوصية تماما، ورسالة الباشا قائدنا قبل كل شيء، ولكن الإسبان هم الذين. . .

قاطعه الضابط منتهرا :

ـ سكوت . . . نظام!

ثم أخذ بدر الدين جانبا، وأوصاه بإخراج جميع المساجين تحت الحراسة، ومعهم ريفاس، للذهاب بهم الى الباشا. فسأله إن كان سينفذ وعده بالدفاع عنهم لدى القائد فأجابه بحزم :

ـ معلوم بدر الدين أفندي، عهود وثيق محترم!

وانصرف الضابط الى المهام الكثيرة الموكلة الى المنتصرين الجدد، فطمأن بدر الدين المساجين الخائفين، وطلب منهم مصاحبة حراسهم الى خيمة الباشا حيث سيقرر مصيرهم. نظر أنسارت الى بدر الدين ولم يفه بكلمة، ولكن عينيه امتلأتا شكرا وعرفانا بالجميل.

كان يوسف في ربكة اقتحام البستيون قد سقط من أحد السلالم، فتهشم جسده وغاب عن الوعي أياما وليالي. وقد هتف كثيرا باسم صديقه وهو على سرير المستشفى، ولما لم يستجب له، ألحّ في النداء، حتى صار لا ينام إلا واسم بدر الدين على لسانه. وذات يوم وقد اشتدت به الحمّى، رأى شفقا أحمر بين سماء وأرض خاليتين، وإذا بدر الدين يتجسم شيئا فشيئا ويملأ ذلك الأفق، صورة غائمة أول الأمر، ثم كائنا كاملا يلبس ثيابا حريرية بيضاء، ما أبعدها عن ثياب يوم الحادث المتسخة، فينظر إليه بحنوّ ويقول:

ـ ها أنا يا يوسف

فيسأله صاحبه بعتاب

ـ ألم تتألم لمصابي أيها الصديق؟ ألم تعلم بأن جسمي كله تحطم عند ارتطامه بأرض الخندق فلم يبق لي عضو أعتمد عليه. أين رجلاي؟ أين ذراعاي القويان؟ بل أين رأسي؟ إني أنزف من كل مكان... وقد ناديتك أياما وليالي. فما لك لم تأت لنجدتي؟

ـ ها أنا جئت يا يوسف، لا تخشَ شيئا... ستعود أعضاؤك إلى عافيتها الأولى، لا تحزن، سأخرجك عمّا قريب من هذا المكان. وأذهب بك بعيدا عن موقع الحرب لتسترد صحتك في هدوء.

ـ كيف تأخذني وأنا ركام زجاج مهشم؟ لا بد أن أشفى قبل ذلك.

ـ ستشفى عندي وفي بيتي، ألم تطلب مني المساعدة؟ ها أنا جئت لآخذك إلى حيث الراحة والسلام، إلى مكان اهتديت إليه بعيد عن الحرب والخصام، والمدن المبقورة المفتتة، والجثث المتفحّمة من نار المدافع.

ـ وأي مدينة سلمت في أيامنا من كل هذا؟ إنك تتحدث عن حُلم لا عن مكان موجود فعلا.

ـ هي مدينة لا تعرف روائح البارود ولا دخان الحرائق. لم تسمع أنين الجرحى ولا صياح الثكالى. لم يعرف الألم طريقه إليها أبدا، وليس إلاّ السرور الدائم وراحة النفس منذ أن تدخل أبوابها.

ـ هي مدينة ماذا... هذه؟!

ـ مدينة للسلام وللأحلام، كما تصوّرها فلاسفة العرب واليونان دون أن يحققوها.

ـ خذني إليها يا بدر الدين... فأنا ما استطعت في حياتي كلها أن أحقق حلما، مهما كان بسيطا.

ـ سأحقق أحلامك عندما تذهب معي إلى المدينة.

ـ وكيف أذهب معك؟ ألا ترى حالي وما أنا فيه؟

ـ يوم أو يومان وتستعيد عافيتك. فتذهب إلى العالية وتأتي بأهلي وأهلك.

ـ وأين أجدك عندما أعود بهم؟

ـ سأنتظرك في المدينة حيث سنستقر جميعا.

- ذلك ما أتمنّى يا صاحبي! ولكن. . .

وبدأت صورة بدر الدين تغيب عن ناظري يوسف وسط ضباب خفيف، حاول تجليته برموشه ويديه ليبقى يقظا ويواصل الحوار مع صاحبه.

- أتدري أن جماعة من الحجيج المغاربة كانوا عندي منذ قليل ومعهم جريح أندلسي الأصل؟

- هل شاركوا في المعارك؟

- لا. . . وإنما نهبهم قطّاع الطرق وضربوهم، وقد مرّت بهم محلّة رمضان باشا فخلّصهم وأتى بهم للتداوي، وبقي يزورهم ويتفقدهم كل يوم.

- هل عرفت اسم الأندلسي، ومن أين هو؟

- قدم من الحجر الأحمر واسمه أحمد، أظنه عمك الذي تحث عنه.

في هذه المرة غاب بدر الدين، ولم يعد يظهر لصاحبه من خلال الضباب. ناداه يوسف مرة ومرتين ثم غلبه الإغماء، في نفس الوقت انتقل بدر الدين باحثا عن المغاربة إلى أن بانت له جلابياتهم وعمائمهم الكبيرة، فنادى :

- يا فلّش بيجارانو. . . يا أحمد الحجري!

رفع رجل يلّف رأسه بضمادات كثيرة يده المعروقة وسأل عمن يطلبه، فرد بدر الدين :

- تعال يا شيخ أحمد. . . أنا بدر الدين الحجري ابن أخيك محمد.

قفز الشيخ من مكانه بحركة فجئية حتى انفصمت الضمادة ونزلت إلى عنقه. حدّق مليا في وجه الفتى وحرك شفتيه بصعوبة :

- بدرو. . . بدر الدين؟! أنا عمك أحمد، لكم كبرت أيها الصغير! ها أنت عجوز مثلي ومع ذلك سأضمّك إلى صدري فقد اشتقت إليك كثيرا.

- تعال معي يا شيخ أحمد سآخذك إلى مدينة تبرىء جراحك وتنسيك ما قاسيت في أيامك الماضية. تعال معي إلى مدينة السلام الدائم والعيش الهانىء لا نكد فيه.

- معي أصدقاء من المغرب، رافقوني وأصابهم ما أصابني

- ودّعهم، فأهلك أولى بك، وأشد اشتياقا إلى لقائك.

- لكن كيف نمرق بين المتحاربين وبارودهم يملأ الأرض والسماء؟

- سنعلو فوقهم بالجسد والروح. سنتركهم في قتالهم وننتقل إلى مدينة لا تعرف البارود ولا الحرب. بنيت للحبّ والألفة بين الناس مهما كانت أجناسهم وفئاتهم.

- أين تكون هذه المدينة يا ابن أخي؟ كن بارّا بعمّك العجوز ودلّه عليها، فقد ملت نفسه الخصام والجدال، ولم تعد ترى فيه نفعا لا للأرض ولا لمن عليها.

- قم معي أيها الشيخ واتبعني إلى حيث نعلّم المحبّة العيش في تعاون وسلام.

- حبذا يا ابن أخي... حبّذا.

اختفى يوسف من المستشفى، واختفى الشيخ الحجري أيضا، وجد المرضون فراشيهما فارغين تتناثر عليهما الضمادات والثياب الملطخة بالدم. وبعد أن بحثوا في كل مكان، شغلتهم طلبات بقية الجرحى، وكانوا بلا عدد، كما اهتموا بدفن من لم ينفع معهم علاج فغادروا الدنيا. وآلت الحال كما هي العادة عند انتهاء الحروب وسكوت المدافع إلى تنظيف الأمكنة، رأب الصّدوع، مواساة من نكب في بدنه أو ماله، ثم اعداد العدّة لما قد يستجدّ من فتن وحروب.

وعلى هذا غادر الأسطول التركي مياه تونس، وشرع الباشوات المشاركون في حصار البستيون يعودون إلى أقاليمهم، وكان أول الخارجين حيدر باشا القيروان. وقفت طوابير شرف طويلة عند باب الجزيرة لتوديعه بالطبل والزّرنة واطلاق البارود في الهواء، فانتفخت أوداج الرجل، وهمز حصانه ليقفز أمام العسكر مبرزا عضلات قوائمه، ومشى خلفه الجنود صفوفا طويلة فيها الممزّق الثياب والمعصوب الرأس والمعلق الذراع، وجرّ بعضهم خيولا منهكة وعربات مدافع منكسرة، فضريبة الحرب قاسية دوما حتى في حالات الانتصار.

ساروا على أرض رملية محاذية للشاطىء، واجتازوا الحمامات متجهين جنوبا، إلى أن كانت ساعة الظهيرة وقد أحالت الشمس كل شيء رجراجا زئبقيا، حينها جاءتهم نسائم معطرة بالياسمين تحمل أنغاما رقيقة كأنها أناشيد حوريات الجزر. توقف الركب كله، ورفعت الخيل آذانها تتنصت، وبانت عند الأفق الشرقي أسوار جديدة تتلألأ، يشرق طلاؤها الحديث في ضوء النهار، وتفتح محارسها الأنيقة عيونا واسعة على كل الجهات. أما الأبواب فهي من الزخرف والفخامة كأبواب القصور. والبحر من خلف ذلك يشبه لطخة زرقاء في لوحة فنان، ترسم حدود الأفق وتهيء لأبراج المدينة خلفية داكنة تبرز البهاء في كليته. اختفى من المشهد كل ما عدا البحر والمدينة، وكتلة الجنود المنبهرين الباحثين عن أوصاف مناسبة لما يرون. أشار مساعد القائد ناحية السور بتعجب ولم يقل شيئا، نظر إليه حيدر باشا مبتسما:

- انها المدينة، مدينة السلام، مدينة الأحلام، هي ليست لكم، أنتم أهل حرب فأين منكم السلام والأحلام؟ لا تلتفت ناحيتها ما دمت جنديا تقتتل وتحمل السلاح!

أدار الضابط وجهه. حوّله عن البحر والمدينة تبعا لأوامر الباشا، وتجوّل بين الجنود يبث التعليمات:

- لا تلتفتوا شرقا، انظروا أمامكم فقط. والآن إلى الأمام سِر!

ضحك حيدر باشا من مساعده، وألقى نظرة رقيقة ناحية الأسوار من حيث أتت الأنسام والأنغام، وتساءل فيما بينه وبين نفسه إن كان قد رأى ذلك البناء في سفره الأوّل؟ ولما لم يجد

جوابا قاطعا نسب عجز ذاكرته إلى الحرّ وإلى شدة ما أرهقته الحرب.

في اليوم الموالي مرّت محلة مصطفى باشا عائدة إلى طرابلس. توقف الركب أيضا، ورفعت الخيل آذانها، وأشرقت أسوار المدينة على خلفية البحر الأزرق، اختفى من المشهد كل ما عدا ذلك وبقي القائد وجنوده منبهرين. وكان في الركب ثلاثة رجال بجلابيات مغربية وعمائم كبيرة، وهم الحجاج الذين أنقذهم رمضان باشا وائتمنه عليهم، وهؤلاء لما شاهدوا ارتفاع السور ونقش الأبواب ملكتهم النخوة، وقال أحدهم :

ـ ما اسم هذه المدينة يا باشا؟ انها تشبه احدى قلاعنا بالمغرب

ردّ عليه صاحب له :

ـ هي أشبه بقلعة آسفي في المتانة وكثرة المحارس.

ـ أبدا... آسفي بناها البرتغال فهي كالحة مكفهرّة كوجوههم. أما هذه فأبوابها تبتسم. انظر النقش والتخريم والتعريق ومسامير التصفيح... ما شاء الله كأننا داخلون أحد أبواب مراكش. هل ستزورها يا باشا؟

ـ هذه مدينة لا يدخلها إلاّ طالب الهناء والراحة، أما نحن فكما ترى مقبلون على سفر طويل ومهمات جسام. عسى أن تكتب لنا السلامة ويمتد بنا العمر فنعود يوما لزيارة مدينة السلام.

في ذلك الحين التمعت أنوار ساطعة من شرفات السور، وظهرت خلفها قامة رجل على رأسه عمامة حرير مطرّز، ونادى

ـ يا صحبة الخير... يا أصحاب البركة... رافقتكم السلامة ووُقيتم من كل شرّ. سأشتاق حضوركم وطيب مجلسكم، لكن هذه سنة الحياة وأحوال الدنيا، لقاء وفراق يتلوهما لقاء وفراق، إلى أن يأتي يوم التلاق. اجعلوا مولاي سلطان المغرب يقبل عذري في التخلف عن خدمته والبقاء عند أحبابي، فقد عثرت أخيرا على بقية أهلي وجمعت شتات عائلتي.

تبادل الحجّاج نظرات التعجب، وقال أحدهم :

ـ هي إذن مدينة رفيقنا وصاحبنا. أنعم الله عليه وأثابه في الدنيا والآخرة.

وقال آخر :

ـ ألا نزوره للتوديع والاطمئنان على حاله؟

قال مصطفى باشا بلهجة حازمة

ـ حاله خير من حالنا. ألم أقل أن الطريق أمامنا طويل، والخطر كثير؟

وهمس في أذن مساعده أن يأمر العساكر بالسير دون الالتفات شرقا. فتجول بينهم يبث التعليمات :

ـ لا تلتفتوا شرقا... انظروا أمامكم فقط... والآن إلى الأمام سر!

ارتفعت سحائب الغبار ثانية حين تحرك العسكر، وبقي الشيخ

الحجري يرقبهم فوق السور ويذرو في الهواء زهرات فل وياسمين وشفتاه ترددان بصوت خافت الأماني بسلامة الوصول.

نظر إليه بدر الدين مبتسما

ـ هل اشتاقت نفسك إلى السفر ثانية يا عمي؟

ــ أي سفر يا ابني وقد بلغنا هذا المقام، وجمع الله شملنا بمن نحب؟!

وهكذا استقرّ بدر الدين وعمه أحمد في المدينة الجديدة، وصارا من وجهائها، لأن كليهما تمحّض لخدمة أهلها ومصالحهم، فصار بدر الدين متفقدا للمرافق العامة، وتطوّع الشيخ أحمد، من حبّه للعلم والبحث، لإدارة متحف الأديان، فاعتنى بمكتبته، ونظّم حلقات للبحث والتدارس في شؤون العقائد، وتقريب بعضها من بعض، بتقديم معلومات عما يجمع بين الناس عوض ما يشتت، أو يستعدي طرفا على آخر. وكان يقول في بعض حلقاته:

ـ ان التمزّقات التي شاهدناها، في الأندلس أو في افريقية، سببها لجوء بعض الأقوام والملل إلى إسماع صوتها بالعنف والقوّة، أو فرض آرائها على الطرف الآخر بالغزو والتهجير، أو المطاردة ومحاكم التفتيش. إنه لا أساس للكونية إلا بالانتماء إلى الانسانية، ولا وضوح لمعانيها إلا بالتنوع واختلاف الروافد. لذا ليس من حق قوم أن يفرضوا آراءهم أو أسلوب حياتهم على الجميع، فلا سيادة مطلقا لحضارة على أخرى.

وقد أحد الزوّار من آرائه الجريئة

ـ كيف تقول أيها الشيخ أن لا سيادة لحضارة على أخرى وأنت تعلم أن الديانات لا تعيش إلا باستعداء أتباعها على أتباع غيرها. وأن أشد أولئك الأتباع تعصّبا هم أميلهم إلى القهر والاضطهاد، والأشد تنافسا وتقاتلا من أجل المعتقد، كأنهم الموكّلون عليه وحدهم دون شريك؟

أجاب الشيخ مبتسما:

ـ لو يطيعني أهل المدينة سأسمي كافة أبوابها باسم واحد هو «أبواب المحبة»، فالناس لن يظفروا بالسّلم الدائمة والعيش الهانىء إلاّ إذا خرجوا من باب الخوف ودخلوا من باب المحبة، إن خوفهم يفسد عليهم حياتهم.

خوفهم من ماذا؟

ـ خوفهم من المصير، من بعضهم البعض، ممن لا يشبههم... من كل شيء. لقد سحت في بلاد الله، وناقشت أتباع كل الديانات، فما وجدتهم يعلّمون سوى الخوف، سماؤهم رعود وصواعق لا سبيل تحتها إلى الهدوء وراحة البال. يدافعون عن عقائدهم بحماس فيّاض متصورين أن دفاعهم عن هذه العقيدة ضد تلك سيضيف إلى حرارة الشمس، أو يزيد من ضياء القمر، أو ربما يغيّر طعم الخبز، أو لعله ينقص من الظلم ذرّة ويزيد في كمّ الفضيلة ذرّة. انه تفاؤل أبله وأمل لن يتحقق حتى ولو ظل قساوسة العالم يسبّحون ليل نهار. الدخول وحده من باب المحبة يصنع المعجزات.

خرج بدر الدين وعمه من نهج الباي في طريقهما إلى السقيفة الكحلة ليلتقيا عند باب زويلة وهو هنا «باب المدينة» بالقرصان أندريا دوريا القادم في زيارة استطلاع لمعالم المدينة، بعد أن سمع أخبارها في موانىء البحر المتوسط. خاطبه بدر الدين وما زالت بينهما خطوات:

ـ حسنا فعلت أيها القائد لمّا تركت سفنك وأسلحتك بعيدا عن مياهنا، فنحن لا نقبل هنا إلاّ من جاء مسالما ومسامحا، فإن كانت هذه نيتك الحقيقية تركناك تزور مدينتنا، وإن كنت باقيا على سيرتك القديمة، فلا مجال لك بيننا.. ولتعد من حيث جئت!

ـ لا أرى مدينتكم على صفة ما عرفت من المدن القديمة... تنبعث البهجة منها وأنت تراها من بعيد، فتنجذب نحوها كما انجذب أوليس نحو حوريات الجزيرة.

قال أحمد الحجري:

ـ وهل تريد دخول مدينتنا دون تكفير عن أفعالك السيئة، وغاراتك على أراض مسالمة نالها من عدوانك الكثير؟ وغير بعيد يوم هجمت على الحمامات ساعة الضحى والرجال جميعا في الحقول، فأخذت النساء والصبيان وتركت المدينة خاوية، لم يجد فيها المزارعون حين عادوا غير القطط والكلاب.

ضحك القرصان وأجاب:

ـ لا تحزن كثيرا أيها الشيخ، فقد أخذ أهل الحمامات بثأرهم... وزارونا في مالطة حين كانت سفننا غائبة، وأخذوا من النساء والأطفال بعدد ما فقدوه.

تدخّل بدر الدين

ـ لا تعودوا إلى مثل هذا الحوار فلا فائدة فيه. فإذا جاء الرجل مسامحا متخلصا من البغضاء ومن أسلحة العدوان فأهلا به في مدينتنا ضيفا وزائرا.

ثم التفت إلى الشيخ الحجري قائلا:

ـ لا أظن ستحاسب الاسبان الوافدين للفرجة على «حي البستان» المطابق لقصر غرناطة الشهير!... أعرف أن لديك ما تسترجعه من ماضيك ببلادهم، كما أنني لم أنس بدوري ما صنعوا بي. ذلك هو التاريخ وقد طوته صفحات الكتب، وأما ما بقي اليوم فهو إنسانية الإنسان، وواجبها أن تتغلب على عواطف الكراهية، ومعاداة الغير، والتكالب على السلطة والقوة وكثرة المكاسب.

كان بدر الدين وعمه قد وصلا مجمّع البستان، ووقفا على حافة بركته الضخمة يتأملان نافورة الماء تبذر منه حبيبات لترطب النسيم المضمخ بعطر الياسمين والفلّ. وتقع النافورة وسط فناء واسع، تحيط به أقواس ترفعها أعمدة جميلة النحت، ذات تيجان يزيّنها تعريق وتزويق قوامه الأغصان والأزهار. وخلف الأقواس أروقة يغطيها قرمود أزرق لامع يُماشي الحواشي ويدور مع كل الزوايا. أما من الداخل فسقوف مزينة بالجصّ المخرّم ونقش الحديدة، تشكل جميعها تمويجات وتعاريج نباتية محوّرة عن

الطبيعة، بهندسات وتشكيلات فيها من الألوان مثل ما في الزهور والفراشات الحائمة حولها، وهي تختلط حتى تتمازج، أوتتباعد حتى يكاد يغيب بعضها في آخر المطاف فلا نعثر له على أثر. وتكون رافعا رأسك تتأمّل تفاصيل كل ذلك وأنت تعبر من رواق إلى آخر، فتلتقي عند المنعرج بقبّة قاعدتها نقش وتخاريم، وأعلاها فصوص زجاج بكل أنواع التلوين، تفسح للضوء الهادىء كي يقوم بدوره، وتلطف من أشعة الشمس فتمنحها ألوانا من ذاتها بين وردية وزرقاء وليمونية، ومن الجميع تتكون داخل القبة هالة شبيهة بقوس قزح. بذخ وثراء وجمال ورونق تؤلّفه الصور والمشاهد الماثلة عند كل زاوية ومدخل ونافذة، مما لا يمكن استيعابه وتخزينه في الذاكرة، فلا يبقى للناظر إلا المشاهدة والانبهار، ولا شيء سواهما.

كان زوار أجانب ينتظرون قرب النافورة العظيمة فعرف الشيخ الحجري من بينهم المركيز دي سانتا كروز الذي طالما غزا جزر قرقنة وأفرغها من أهلها ودوابّها. وأراد تذكيره بما فعل في غزواته، فنبهه بدر الدين إلى أن الرجل قد يذكّره بأفعال مراد رايس وما أنزله به من هزائم، وأضاف :

ـ الأولى بنا يا عمي التذكير بما يجمع لا بما يفرّق، ولأن قائمة الحروب طويلة فلنحاول نسيانها وتعويضها بقائمة فترات السلم

وأحواله، وبما يمكن أن نقوم به خلاله من إيجابي الأفعال. وهذا القبطان أنسارت قائد الصنايعية اسأله كم أعان على إعادة البناء، وإصلاح ما انعطب من الأسوار والحصون، وكم ساعد في سبك الحديد والمعادن.

نادى علج علي قبودان من خلف الصفوف محتجا

ـ هؤلاء الذين يدّعون البناء اليوم هم الذين أحرقوا سفني في بحيرة تونس حين جاءت لنصرتكم، ها هو ألنسو بيمنتال واقف يشاهدني. اسألوه إذا لم يكن قد أحرق سفني جميعا، وكانت أفخم عمارة بحرية شهدها المتوسط.

أجابه سربلّوني قائد البستيون :

ـ تتكلم عن خشب تافه أكلته النار وتصاعد دخانا في الهواء... ولماذا لا تتكلم عن البستيون وحلق الوادي..؟ عن الأربعين عاما من الجهد البشري والبناء المتواصل الذي سويتموه بالأرض في أربعين يوما. بالبارود والديناميت تركتموه حجارة وغبارا مخلوطا بالدماء؟

تدخّل بدر الدين ليهدّىء من عاصفة توشك أن تندلع بين أعداء الأمس، بينما جميعهم ضيوف على مدينة لا مكان فيها لغير السلام، ولا مجال لغير بناء العلاقات الجديدة :

ـ ما رأيكم لو نمرّ من السقيفة الكحلة إلى السقيفة البيضاء مرورا بنهج الباي ومتحف الأديان وساحة شهرزاد الزاهية؟

فهم العم ما يلمّح إليه بدر الدين فوافق على رأيه وذهب يرافق مجموعة الزوار إلى باقي الساحات، ولبعضها اسم وليّ صالح

كسيدي بوسعيد أو سلطان المدينه، ولبعضها اسم زهر مشهور كالفل أو الياسمين، وبعض منها يحمل أسماء متفائلة مثل ساحة الهناء أو النجاح أو السّعد، وعلى كل زائر أن يتوجه نحو العنوان المثير لاهتمامه.

اختار القبطان أنسارت «نهج البايات» ليتجوّل بين دكاكينه الحافلة بإبداع الفنيين وصنّاع الفضة والجلد والخشب والنحاتين والنقاشين، وبقي يسأل من دكان لآخر عن مصادر المواد الأولية وعن الآلات المستخدمة، وما هو قديم منها وما هو مستحدث، ثم التفت الى بدر الدين في نهاية الجولة ليسأله هل بامكانه اكتراء دكان في ذلك السوق اذا ما عنّ له الاستقرار نهائيا في المدينة.

ضحك بدر الدين ولامس كتف أنسارت قائلا :

ـ ويمكنني أن أشاركك إذا رضيت، ففضلك عليّ لا يُنسى... أنت الذين يسّرت لي الوصول إلى أهلي وأحبابي.

ـ وأنا أيضا لا أنسى فضلك عليّ يوم سقوط البستيون، فوساطتك لدى الأترك هي التي أنقذت حياتي وحياة كل الصنّاع والحرفيين المرافقين لي.

وحين خرج الجماعة من باب البحر متوجهين نحو الشاطىء القريب لاتمام فسحتهم شاهدوا عمارة بحرية تقطع الأفق، قوامها سفن عديدة حاملة رايات أجنبية فصعد الشيخ الحجري مكانا مرتفعا ونادى القبطان بأعلى صوته :

ـ عرفناك يا شبريّان فبرغم تظاهرك بالبراءة كنت تؤدي مهمة مدسوسة.

أجاب شبريان من فوق الصاري :

ـ أنا عابر سبيل، أمر ببلدكم سريعا وسوف لا أنزل إلى البرّ.

ـ عرفناك وعرفنا أن مهمتك لا تتوقف على نزولك الى البرّ، وإنما أمرت بإنزال صنيتعكم حامد الحفصي ليثير الأعراب ويعيد الفتن إلى مثل ما كانت أيام أبيه وجده. أصدقنا الخبر... في أي الجهات زرعتموه؟ في الساحل أم في الجنوب؟

ـ تركناه قرب جرجيس، ولم نفعل سوى نجدة أمير مسكين وإعادته إلى أرض أجداده كما رغب.

ـ أنت لم تنجده يا شبريان وإنما أذنبت في حقه وفي حق هذه البلاد. والآن إن شئت العودة إلينا ضيفا فأهلا بك على شرط أن تخلع الدسائس وتترك السلاح.

وهتف الجميع من وراء الحجري :

ـ افعل مثلنا يا شبريان... اطرح في البحر ما حشاه في رأسك فرسان مالطة، وتعال بغير دسيسة أو سلاح، فهذه مدينة لا مكان فيها لغير الحبّ والسلام.

من ساحة شهرزاد تعالت أنغام روحانية لا يمكن أن تصدر من صنوج أو دفوف أو أوتار، وانما يأتي بها النسيم من اللامكان واللازمان. انعطف الضيوف نحوها ليجدوا أنفسهم في حي أنيق، هو قطعة بغدادية من حي الرصافة أوسُرّ من رأى، أروقة ظليلة ذات أقواس مقطوعة الوسط أو مذنبة الحواشي، وحجارة نحتت فيها أبيات شعر بالخط الكوفي من خمريات أبي نواس أو زهديات أبي العتاهية. وفي الساحة فتيات لهن عمر الورد يحطن بشهرزاد وقد لبست من الحلل أبهاها ومن الحليّ أغلاها، وتماوجت هي وصاحباتها مع لحن يعمر المكان ويرتفع به حتى يغيّبه عن الحاضر. رقص معجب من حوريات في رقة النسيم على وقع لحن مطرب من زرياب كبير المغنين في زمانه.

يا ساحر العشاق   بلحظك الأغنج
ومُحرق المشتاق   بخدّك الأضرج
ارو صدى الأشواق   من ثغرك الأفلج

يا قاتلي بالله   دعني نزد عشقا
إذا نموت بالله   حسنك لمن يبقى

التفت بدر الدين الى عمه وسأله :

ـ هل صحيح أنكم في الأندلس كنتم تقضون وقتكم كله في حلقات طرب كهذه... لا يهمكم من أمر الدنيا وما يحدث فيها شيء؟

ردّ محمد الحجري على ابن أخيه محتجا :

ـ محض اختلاق... كانت الموسيقى أحد أوجه الحضارة التي تعيشها بلادنا، لا تأخذ من جهد الناس ووقتهم أكثر مما يأخذه تدريس العلوم، أو بحوث الزراعة أو زخرفة المباني وإجراء مياه السواقي، اقرأ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، واقرأ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وسترى أن كمّ العلماء والفلاسفة والمهندسين أكبر وأضخم من كمّ المغنين والملحنين.

وما كاد العم ينهي كلامه حتى توسطت الساحة فرقة فلامنكو وملأت المكان بشقشقة الصنوج وعزف القيثارة ودقات أقدام الراقصين والراقصات تشجعها صيحات المتفرجين :

ـ هولي. هولي!

من بعض الجهات

ـ الله الله!

من بعض الصفوف الأخرى، وفي النهاية اختلطت الأصوات جميعا في انسجام وحماس ملتحم لا يميز السامع مصدره أو مأتاه.

من ساحة سيدي بوسعيد القريبة من نفس المكان علت أصوات المنشدين مرددة المالوف العتيق، وهو غناء اشتهرت به هذه المدينة يقضي به الساهرون أطيب الأوقات في المقهى العالية يرددون مع

شيوخ الطرب رقيق الشعر المتوارث

يا من بسيف الأشفار مزّق صميم فؤادي
قل لي يا زين الأقمار على آش رضيت بعادي

وكان اللحن يتسرب رقيقا هادئا شبه حالم، مصحوبا بالنقر الخفيف على النغرات والطار والأوتار. ولقد انتشر هذا النوع من الانشاد منذ انعقدت أولى حلقات الششتري والمجرّد في زاوية القشاش، ومنه انتقلت إلى تستور وبنزرت، وتفرعت من قصائد التصوّف إلى أشعار الحنين ووصف الرياض والشوق إلى الأحباب. كما أن الألحان تنوّعت وتطوّرت، وتقلبت بين أنماط وأساليب فيها قديم كثير وجديد أكثر. وما زال أهل تونس يعتبرون هذا النوع من الغناء لونهم الأصيل المميّز حتى لا يكاد الواحد منهم يجهله أو لا يحفظ البعض منه. وليس أشهر لدى المغنين أو ا لمستمعين من ناعورة الطبوع يحبونها وينشدونها في كل مناسبة. ويفكر بدر الدين في تخصيص ركن من هذه الساحة لنصب تماثيل لعباقرة حذقوا هذا الفن وأغرموا به، ثم أشاعوه فيمن حولهم فحفظه الكبار والصغار. ويكون هذا الركن شبيها بما خصّص لجماعة تحت السور.

اختار بعض الضيوف الجلوس في هذه الساحة لسماع الألحان الهادئة الحالمة، فخصصت لهم أرائك من ديباج، وقدّمت لهم القهوة المعطرة بماء الزهر: الفنجان بيد ومشموم الفل باليد الأخرى، والمطرب قد زاغ من لحن إلى لحن.

ثم شاهد الحجري زنوجا يتراقصون في قيافة غريبة

تبدأ بطرطور هرميّ يغطي الرأس، وعليه رياش طيور ملوّنة وقطع زجاج وأصداف محار من كل الأحجام. وينزل جزء من الطرطور قناعا يغطي الوجه فلا يُبرز غير العينين. باقي الجسم مكسوّ بثياب صارخة الألوان خارجة عن المعروف المألوف، تنتهي عند الحزام لتتدلى فيما بعد شرائط جلد أو فرو حيوانات، وفي الرجلين أخفاف مشدودة بخيوط جلد، علقت بها جلاجل تهتز في جنون مع اهتزاز الرجلين وتوقيعهما القوي عند الرقص.

لما شاهد الحجري ذلك تذكر أهل قناوة الذين كلما اجتمعوا ارتفع تصفيقهم ورقصهم الايقاعي المتسارع على نقر الشقاشق النحاسية وأوتار القمبري وقرع الطبل. وقد شاهد مثل ذلك عند خدمته لسلطان المغرب واقترابه أكثر من أراضي افريقيا السوداء. فقد كان خدام القصر وحراس السلطان يعقدون حلقات تشبه مثل هذه ويراهم يشتدون في الحركة ويجذبهم اللحن حتى يغيبوا عن حاضرهم ويتيهوا في ملكوت بعيد، والدليل على ذلك حدقاتهم المنقبلة إلى أعلى، ورؤوسهم التي لا تتوقف عن الدوران يمينا ويسارا ، مع ألسنة تتدلى وصياح غير مفهوم.

وقد اقترب من بدر الدين ووصف له مشاهداته من أحوالهم في مراكش فقال له :

ـ شبيه بذلك رأيته كثيرا في تونس، يخرج جمع الزنوج ليطوف في المدينة يتقدمهم شخص بمثل تلك الزينة يسمونه بوسعدية، يرقص خلال التجوال مصحوبا بعازفين لمثل تلك الآلات ومعهم تيس ضخم القرنين عليه زينة وشرائط ملوّنة يقال

له «عتروس سيدي سعد»، ويكون موعودا في النهاية للذبح وإطعام الفقراء من مريدي سيدي سعد شيخ الطائفة، والذي باسمه طاف الجماعة بالأسواق والأحياء وجمعوا الصدقات.

في ساحة البطحاء تجمعت طائفة أخرى أغلب لباسها عمائم كبيرة على الرؤوس و«بدن» من صوف خشنة، وهم «المتصوّفة» المنتسبون إلى طرق وزوايا صوفية اشتهر أصحابها بالتقوى والكرامات، واعتقد فيهم العامة الصلاح. ومن أشهر هؤلاء سيدي بوسعيد الباجي وسيدي بلحسن الشاذلي وسيدي علي عزوز وسيدي أحمد التيجاني وسيدي عبد القادر الجيلاني وغيرهم. ولكل زاوية سناجق يرفعها المريدون، وأناشيد وأذكار تمدح خصالهم ويستجارون بها للغوث وإصلاح الحال. التأم الجمع عند الساحة يضجون منشدين تصاحبهم الدفوف، تدعوهم إلى الرقص جماعة في صفوف متلاحمة، قد تنسجم في الوجد إلى حد الانجذاب والغيبوبة.

تقدمت جماعة الطريقة القادرية باشراف وتوجيه جماعة الديوان، وتلتهم جماعة سيدي مدين يقودهم الحاج مختار الكسراوي، وبعدهم جماعة باب الأقواس وقائدهم الشاعر عمر بن أبي بكر، يتلو جميعهم البردة أو الهمزية مع تشطيرات وتخميسات تفنّن فيها القوم نظما وإنشادا.

في ساحة المركنتي لمح بدر الدين دون خوان النمساوي يهم بدخول أحد ملاهي المكان، فقصده راغبا أن يسأله عما صنع بعرصات الرخام الوردي التي أخذها من جامع الزيتونة، وهل

صحيح أنه يزين بها بيتا أنيقا بناه في أوڤستا بصقلية؟ فأجابه القائد بهدوء:

- هي أربع عرصات لا أكثر... أعجبني لونها النادر فنقلتها الى سفينتي خوفا عليها من التلف.

- كيف خفت عليها من التلف... هل كان الجامع متداعيا للسقوط؟

- لا... وإنما أعمال التخريب التي بدأها الجند لا تنبىء بخير... ألم تسمع بما فعلوا في باقي الأحياء والمنازل؟ لقد خرجوا عن السيطرة عندما وجدوا المدينة خالية، وأعماهم الطمع فيما خلفه الناس قبل هروبهم.

- وتريد إقناعي بأنك أنقذت تلك القطع الفنية من التحطيم؟

- هي في الحقيقة عملية إنقاذ وعملية استرجاع... اسمع هذه القصة: لقد حمل حنبعل رخاما كثيرا من صقلية لبناء المعابد والقصور في قرطاج. ولما استحوذ سيبيون على قرطاج هدمها وحمل رخامها إلى صقلية. ثم لما فتح بنوالأغلب صقلية أعادوا الرخام إلى تونس... فما العيب في أن أستعيد بعضه اليوم وأزين به داري على سبيل التذكار... أو لنقل على سبيل التبرّك. اننا أيها الشاب في هذا البحر كبدو الصحراء الرّحل لا حدود تمنعهم عن التنقل من مكان إلى مكان، بعضهم يرتزق من بعض بالتجارة أو الإغارة، فهم في تحرّك دائم، واتصال مستمرّ حتى لكأنهم شعب واحد لولا الماء الذي يفصل بينهم من تحت، والديانات التي تفصل بينهم من فوق.

تدخّل الشيخ الحجري ليوقف الحوار قبل أن يتطوّر ويتوسع إلى محاور أخرى تنبش في التاريخ والحروب. ودعا دون خوان إلى إكمال سهرته مع رفاقه. شاكرا له هدوءه في النقاش وقدومه هذه المرة ضيفا سائحا ينشد الراحة والمتعة في أرض صديقة مسالمة، ولم يأت غازيا يروم النهب كما فعل أول مرّة.

أعلن عن قدوم يوسف إلى المدينة بصورة فاجأت الجميع، ما عدا بدر الدين فإنه كان في انتظاره، بل كان يعدّ الأيام، حتى أنه في المدة الأخيرة أبدى قلقا وحيرة انتبه إليهما عمّه، وسأله عن السبب. فتردد في الاجابة أوّلا، ثم قال له:

- أما وقد شملتنا النعمة بالاقامة في مدينة الأحلام، فلا أقلّ من أن تتحقق أحبّ أحلامنا إلينا، وهي جمع شملنا ببقية أحبابنا، فتلاقي أهلك وابنتك، وألاقي أهلي وحبيبتي مرجانة، فكل يوم يمرّ علينا في انتظارهم يزيد الشوق ونار اللهفة.

... صباح جاء الخبر بوصول قافلة جديدة إلى باد
س كثيرون ينتظرون الاذن بالدخول. ولما علـ ... در الد
ه وأهل مرجانة طلب من الأدلاء أن يذهبوا بهـ ... إلى ا
ليأخذوا راحتهم ويتهيأوا لأفراح العرس المقرّ ... أن يحـ
ن معا، بعد أن وافق الشيخ الحجري على تزو ... انته

أخذت النساء مرجانة وميمونة إلى حمام التشليلة ومعهما فوج بنات عذارى للصحبة والمؤانسة، فجعلن من الغرف والأحواض والمقاصير الساخنة مسرحا للتعابث واللعب، والتراشق بالماء الحار أو البارد، وأوراق العطرشاء وزهر الليمون. وامتلأ هذا الجو الأنثوي الخالص بالضحكات القصيرة الرنانة، وبالهمسات المليئة بالنكت والحكايات الطريفة، يغلّف الجميع بخار شفاف كشرنقة خفيفة تحفظ بها الطبيعة أسرار هذا الكون الرقيق الغامض بينما ارتفعت أصوات الموسيقى والغناء، وتمايلت الراقصات.

مدّدت العروسان على دكّة الرخام، وسكبت البنات عليهما الماء الدافئ، فبدأ عمل الحوارز في التدليك والتنظيف، ودهن الشعر وسائر الجسم بالطفل المعطر بالورد، وسط زغردة النساء، وتراقص ضوء الشموع، بينما ملأت الأجواء نغمات الموسيقى وإيقاعات الراقصات.

دفقت المياه بلا حساب على سبائك ومدوّرات تلك الأجساد الغضّة الشابة، فازدادت توهّجا، ومشطت جدائل الشعر فالتمعت وظهر لها بريق، ثم غطّيت العروسان حتى لا تنال منهما عين الحسّاد، وأخرجتا إلى القاعة الكبرى فألبستا الحلي والحلل، وأكملت زينتهما فصارتا من حور الجنة.

في نفس اليوم ذهب بدر الدين مع يوسف الى حمام الرجال، ومعهما شبان ساعدوهما على الدلك وتنظيف الجسم، في جوّ مرح مليء بالتفكه والمداعبة. وفي القاعة الخارجية كان الحلاق ينتظر، حتى إذا نشف عرق العريسين وارتديا حلة الزفاف

الخريرية، تناولهما بالتعطير وتزيين الشعر والوجه، فازدادت وسامتهما وتألق شبابهما، ومن هناك خرج موكب بهيج تحيط به الفوانيس، وتتقدمه فرق الصوفية لمرافقة العريسين إلى ساحة «الرحبة»، حيث يلتقيان بعروسيهما وتبدأ المواسم واحتفالات الزواج.

وكان أن أحضر أهل المدينة الحلاّقات والمزيّنات، وجهزوا العروسين بنفيس الذخائر وثمين الجواهر، ثم صنعوا عربة مزدانة بالورد والزهور تجرّها خيول بيضاء كأنها إحدى مقاصير الجنان تحمل اثنتين من الحور الحسان. وأمر حرّاس الشرف أن يخرجوا في موكب عظيم لملاقاة العروسين ومن معهما بالتكريم، وأن يكونوا في أحسن البهجات، ناشرين على رؤوسهم الفوانيس الملوّنة والرايات. ونادى مناد في المدينة أن لا تبقى بنت مخدّرة، ولا حرّة موقّرة، ولا عجوز مكسّرة إلا وتخرج إلى لقاء العروسين. فخرجْن إلى لقائهما، وسعى كبراؤهم إلى خدمتهما. واتفق أهل المدينة على تزيين الطريق والوقوف على حافتيه حتى يمر الموكب محاطا بجوقة الشرف ذات اليمين وذات الشمال.

ولم تزل العربة سائرة بالعروسين، والكلّ قد خرج ليتفرج عليها، ومعهم الطبول ضاربة، وفرق الرقص لاعبة، والأبواق صائحة، وروائح الطيب فائحة، والرايات خافقة، والخيل متسابقة، حتى وصلوا إلى ساحة البطحاء المترامية الأطراف حيث ينتظر العريسان. ومن هناك أخذ كل واحد منهما عروسه، وتوجّه عبر ساحة شهرزاد نحو قبة آخر الزمان التي تتحرر فيها الطاقات، وتنعتق الممارسات، ويسود جو الانطلاق بعد الكبت والغربة

مرجانة

- هل صحيح أننا نلنا كل المنى يا حبيبي؟ هل في آخر الزمان يا بدر الدين؟

مرّر يده على شعرها بحنان

- أطيب الأماني تؤخذ في جُرعات وتُنال على دفعات، وإلا ما أحسسنا لذّة العيش يا حبيبتي. وصلت بنا الأحزان آخر أيامها، فتعالي نحتفل بتوديعها ونقتبل أول أيام الزمان الجديد.

وتعانقا أطيب ما يكون العناق إلى أن تمازجا، وتبادلا الذوبان حتى صارت هي هو، وصار هو هي. وكانت نافورة صغيرة تحت قبة الماء تراقبهما فنظمت أغنية من حُبيباتها المتناثرة، وأرسلتها إلى العاشقين مع نسائم قبة الهواء، فذبذبتها ورشرشتها على الجهات الأربع، تحية رقيقة شفافة، فهمها العرسان، ولكن من انشغالهما لم يردّا عليها.